

الجمــهورية الــجزائرية الديمقــراطية الشعــبية

وزارة التعلــيم العالي و البــحث العلمي



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قسنطينة

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

قسم التاريخ

رقم التسجيل: ....

الرقم التسلسلي: ....

العلاقات التجارية بين مدينة الجزائر ومدينتي تونس وسلا كمراكز للجهاد البحري خلال القرنين(17- 18م)

مذكرة مكملة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر

تخصص: العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر العثمانية ودول المغرب الكبير خلال العهد العثماني

إعداد الطالبة:

وهيبة بولصباع

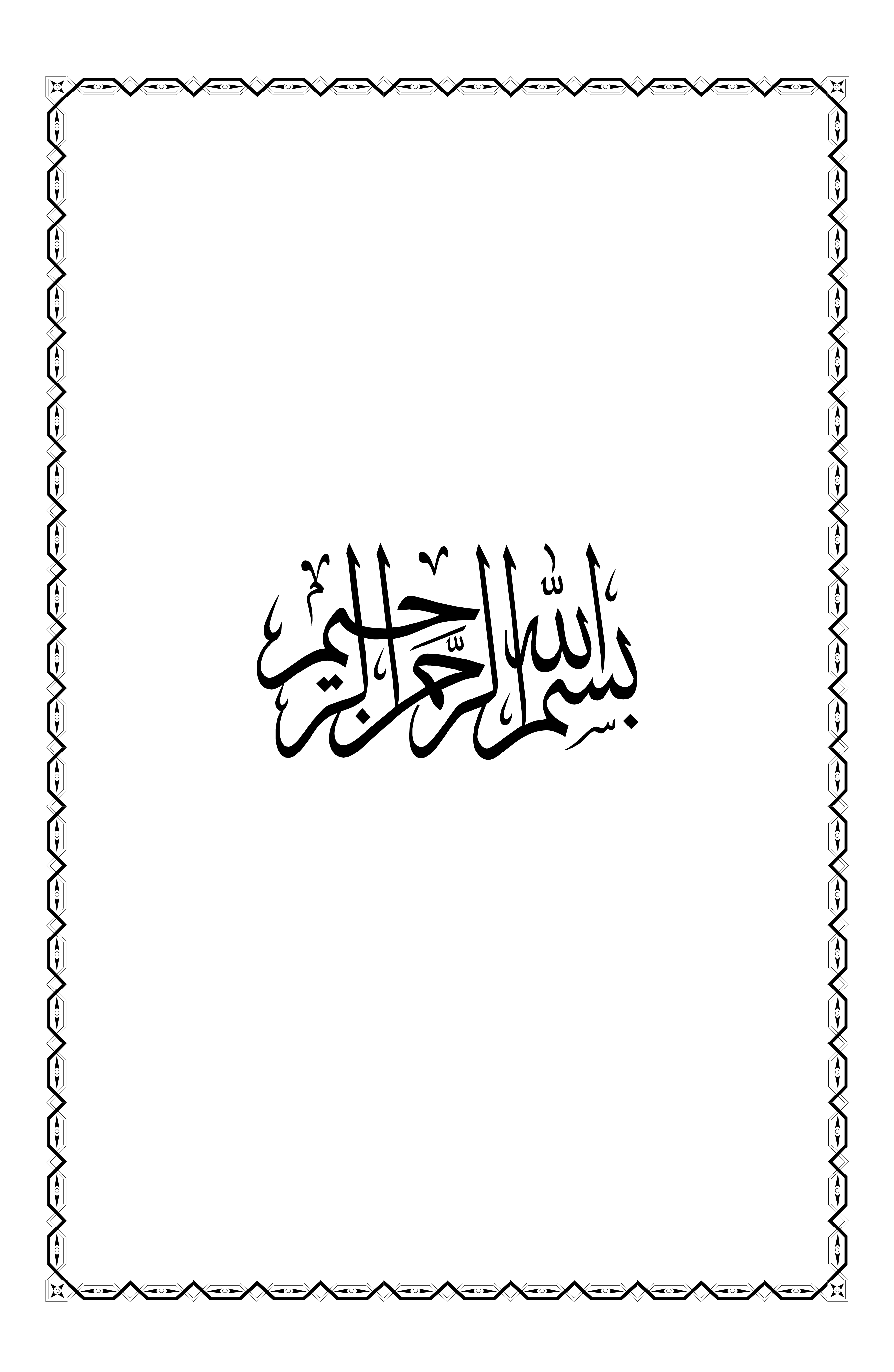
إشراف الدكتور:

أحمد صاري

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلميّة	الجامعة الأصليّة	الصفّة
أ.د.أحميدة عميراوي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة	رئيسا
أ.د. أحمد صاري	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة	مشرفا
د.جميلة معاشي	أستاذة محاضرة	جامعة منتوري-قسنطينة	عضوا
د.عبد المجيد قدور	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة	عضوا

السنة الجامعية:1434-1435هـ/2013- 2014م


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

أهدي ثمرة هذا العمل إلى من قال فيهما الرحمن: «..ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا..»

إلى قرة عيني، وريحانة قلبي، وسعادة نفسي.... إلى أطيب قلب في الوجود.

إلى أمي الغالية

إلى العزيز على قلبي، والغالي على نفسي ... إلى من علّمني مبادئ ومكارم الأخلاق ، إلى أول من وضع قدمي على درب العلم ودفعني إلى صعود سلم الحياة.

إلى أبي العزيز

حفظكما الله وجزاكما عنيّ خير الجزاء.

إلى من شاركوني حلو الحياة ومرّها:

إخوتي: رضوان ، محمد ،صابر ،رابح.

أخواتي: راضية، سميحة، لبنى ، حياة.

إلى كلّ الذين جمعتني بهم المحبّة الخالصة أهدي هذا العمل المتواضع.

إلى الوالدين الكريمين مرة أخرى.....

كلمة شكر

أولا وقبل كل شيء أحمد الله عز وجل على توفيقه لي في إنجاز هذا العمل حمدا لا انقطاع له و شكرا لا خاتمة له، كذلك الشكر الجزيل لأستاذي الفاضل الدكتور " أحمد صاري" على توجيهاته القيمة التي قدمها لي، آملة من الله عز وجل أن يحفظه و يجعله دوما في خدمة العلم .

كما لا يفوتني أن أشكر كل أساتذة التاريخ في جامعة الأمير عبد القادر الذين وقفوا معي طوال هذا المشوار.



مقدمة

إن دراسة التاريخ الاقتصادي بجوانبه المختلفة، يرصد لنا مستوى التطور والتواصل الحاصل في بنية المجتمع المغاربي والأسباب الكامنة فيه، فضلا عن كونه اتجاها متميزا في الدراسات التاريخية التي تلتقي جميعها في إبراز معالم الحضارة المغاربية.

من المسائل التاريخية التي لها ارتباط بقضايا الحاضر وتأثير على تصور الماضي والحكم عليه في تاريخ المغارب مسألة الجهاد البحري، التي لا تزال تثير النقاش وتدفع إلى الجدل وقد تفرز مواقف عاطفية غالبا ما تكون مشحونة بترسبات الاحتكاك الجدلي بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، ومما زاد المسألة غموضا في التحليل واضطرابا في التصور كونها تعكس لنا تباين المواقف وتظهر ازدواجية النظرة المتأثرة بالمناخ الثقافي، إذ لا يمكن استخلاص الأحكام التاريخية حول الموضوع اعتمادا على تلك الأحداث العرضية والمعلومات العامة، دون الرجوع إلى المصادر الأساسية وتفهم معطيات حركية المجتمع بالمراكز الجهادية الكبرى كالجزائر، تونس تطوان، سلا وطرابلس وكذا التوجهات السياسية للمغارب (الجزائر، تونس والمغرب الأقصى).

ومن هذا المنطلق نطرح مسألة العلاقات التجارية بين مدينة الجزائر وبين مدينتي تونس وسلا كمراكز للجهاد البحري خلال القرنين (17-18م)، كإشكالية تتجاوز بنا خصوصيات تاريخ مدينة الجزائر كمركز جهادي إلى ما يتصل بصيرورة وتطور علاقاتها .بمراكز جهادية مغاربية أخرى، وكذا الدور الريادي الذي لعبته مدينة الجزائر في الحوض الغربي من البحر المتوسط خلال هذه الفترة .

إن دراسة العلاقات الاقتصادية بين الحواضر المغاربية بصفة عامة والعلاقات التجارية بين مراكزه الجهادية بصفة خاصة كالجزائر، تونس، تطوان، طرابلس وسلا خلال العهد العثماني، لا تزال تعاني نقصا واضحا باستثناء ما قدمه الدكتور عمار ابن خروف الذي تناول العلاقات الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغـــرب الأقصى مـــركزا في دراسته على قضايا اقتصادية خلال القرن 16م، ويعتبر هذا العمل من أهم الدراسات الأكاديمية الجزائرية التي طرقت موضوع العلاقات الاقتصادية بين المغارب، إضافة إلى ما

قدمه الدكتور محمد العربي الزبيري في دراسة التجارة الخارجية للشرق الجزائري خلال العهد العثماني، إضافة إلى دراسات أكاديمية أخرى قام بها باحثون من المغرب الأقصى وتونس، على غرار ما قدّمته الباحثة المغربية ليلى مزيان حول القرصنة السلاوية خلال العهد العلوي من خلال دراستها الموسومة بــ" **سلا وقراصنتها (1666-1727)**" وما قدّمه الباحثان التونسيان عبد الجليل التميمي ومحمد الهادي الشريف حول التاريخ السياسي، الاجتماعي والاقتصادي لتونس في العهد العثماني، ونظرا لقلة الدراسات التي طرقت موضوع العلاقات التجارية المغارب، فقد شكلت هذه الدراسات الأكاديمية السالفة الذكر أرضية صلبة لدراسة طبيعة العلاقات التجارية بين مدينة الجزائر ومدينتي تونس وسلا كمراكز للجهاد البحري خلال القرنين(17-18م).

هذا النقص الحاصل في دراسة العلاقات التجارية بين المغارب من ناحية النشاط الأسطول القرصني، كان السبب الأساسي في اختياري لهذا الموضوع الذي يتناول العلاقات التجارية المغاربية، من خلال العلاقات التجارية بين المراكز الجهــادية الكبرى بالمغارب (الجزائر، تونس، سلا) خلال القرنين(17- 18م).

ومن هنا جاءت هذه الدراسة الموسومة بـــ:« **العلاقات التجارية بين مدينة الجزائر ومدينتي تونس وسلا كمراكز للجهاد البحري خلال القرنين 17و 18م** » للمساهمة في فهم دور الجهاد البحري كنشاط محوري في التجارة الخارجية لهذه المدن في ربط علاقات تجارية قوية فيما بينها، خاصة وأن العلاقات السياسية بين المغارب قد تميزت بالتوتر والمشاحنة في معظم الأوقات.

وقد يكون منطلق هذه الدراسة نابعا من بعض الميول الشخصية قصد التعرف على دور الجهاد البحري كنشاط متعدد الأبعاد : سياسي، عسكري، اقتصادي وثقافي في ربط علاقات قوية بين المغارب انطلاقا من مدينة الجزائر باعتبارها مركزه المحوري، هذه الرغبة الشخصية ترسخت أكثر بتوفر الأسس العلمية لهذه الدراسة، خاصة وأن نشاط رياس البحر الجزائريين قد تعاظم بشكل مذهل طيلة القرن 17 وأوائل القرن 18م، حيث فرضوا سيطرتهم على كل الطرق البحرية من البحر الأدرياتيكي إلى السواحل الشمالية لأوروبا مرورا

بجبل طارق بالتعاون مع البحارة القراصنة من مدينتي تونس وسلا، وتمكنوا بذلك من التحكم في التجارة الأوربية نحو المشرق لعقود طويلة من خلال فرض الاتاوات على السفن الأوربية المارة بالبحر المتوسط، والتي عادت على المراكز الثلاث بغنائم ضخمة وبمداخيل مالية معتبرة ساهمت في انعاش الحياة الاقتصادية بها وكذا تنشيط الحركة التجارية فيما بينها.

وقد حصرنا فترة الدراسة في القرنيين (17- 18م) وهي فترة عرفت تغيرات على مستوى البحر المتوسط ؛ فهي فترة مفعمة بازدهار النشاط البحري، خاصة القرن خلال 17م الذي يعد العصر الذهبي للقرصنة والمتـــزامن مع ازدهار التجـــارة الأوربية مع المشرق وغيرها من التغيرات السياسية والأحداث الهامة التي طبعت هذه الفترة – موضوع البحث- وهو ما جعل هذه الفترة جديرة بالدراسة، خاصة إذا أضفنا إلى أحداثها الكثيرة والمتداخلة تجدد الصراع الجدلي بين الشرق والغرب بالحوض الغربي للبحر المتوسط عقب قرار الطرد الجماعي الذي أصدره الملك الإسباني لويس فليب 1609 ونزوح حوالي ثلاث مئة ألف أندلسي إلى المغارب استقر معظمهم في مدن الجزائر، تونس وسلا وتطوان، الأمر الذي أعطى دفعا جديدا للجهاد البحري خاصة وأن الأتراك العثمانيين قد تبنوا الجهاد البحري بكل الثغور المغاربية على اختلاف انتماءاتها السياسية وقدموا لها كل الدعم العسكري انطلاقا من مدينة الجزائر، التي اتخذها الأتراك العثمانيون قاعدة جهادية منذ العقد الثاني من القرن 16م لتحرير كل الثغور المغاربية التي وقعت تحت الاحتلالين الإسباني والبرتغالي، وهو الأمر الذي أعطى لمدينة الجزائر مركز الريادة في الحركة الجهادية بالحوض الغربي للبحر المتوسط طيلة القرنيين (17–18م) التي استهدفت في البداية اسبانيا وايطاليا، لتشمل لاحقا كل الدول المسيحية .

ونطمح من خلال هذه الدراسة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف المعرفية والتي يمكن حصرها في النقاط التالية:

1-إبراز الدور المحوري الذي لعبته مدينة الجزائر في ربط علاقـــات تجارية بين المغـــــارب خلال القرنيين (17 – 18م).

2- تسليط الضوء على جانب غير معروف من العلاقات التجارية بين ثلاث مدن تعد أكبر

مراكز الجهاد البحري في العصر الحديث (الجزائر، تونس، سلا) تكملة للدراسات السابقة التي تناولت تاريخ الجهاد البحري من حيث عائداته المالية على المغارب، حيث ستساهم هذه الدراسة في إعطاء صورة كاملة مكتملة عن تاريخ العلاقات التجارية بين المغارب خلال القرنين (17- 18م) .

3- تسليط الضوء على إحدى مظاهر العلاقات الاقتصادية بين المغارب وهي العلاقات التجارية القرصانية التي كانت تتم بين رياس البحر.

4- عقد مقارنة بين العلاقات التجارية (الجزائر- تونس) الخاضعتين للحكم العثماني (وحدة سياسية) من جهة والعلاقات التجارية (الجزائر – سلا) من جهة أخرى (سلا لم تخضع للحكم العثماني).

إن إشكالية العلاقات التجارية بين مدينة الجزائر ومدينتي الجزائر وسلا كمراكز للجهاد البحري خلال القرنين(17-18م)، تعتبر إحدى النماذج المتميزة في دراسة العلاقات التجارية بين المغارب حيث تفرض علينا طرح السؤال التالي: هل قامت علاقات تجارية بين مدينة الجزائر ومدينتي تونس وسلا كمراكز للجهاد البحري ؟ وإذا قامت هذه العلاقات فعلا فما هي طبيعتها ؟ وقد جرّنا التعامل مع هذه الإشكالية إلى الإجابة على عدة تساؤلات فرعية تتعلق بالموضوع لكن من جوانب متعددة كالتساؤل عن الظروف التي أحاطت بالمغارب خلال القرن 16م والتي سمحت بظهور مدينة الجزائر كقطب جهادي أول تحكم في كل الشبكة الجهادية المغاربية عبر الحوض الغربي للبحر المتوسط والسواحل الأطلسية طيلة القرنيين (17-18م)؟

ما هو أثر ازدهار حركة الجهاد البحري في المغارب(الجزائر، تونس، المغرب الأقصى) خلال القرن 17م على العلاقات التجارية بين مراكزه الرئيسية الجزائر-تونس- سلا؟ وما هي العوامل المؤثرة في العلاقات التجارية بين المراكز الثلاث (سلا-الجزائر-تونس)؟ وهل العلاقات التجارية بين كل من (الجزائر- تونس) و(الجزائر- سلا) كانت تتم بنفس القوة أم أنها خضعت للأوضاع الداخلية للمدن الثلاث (سياسية مثلا كاختلاف نظام الحكم بين الجزائر والمغرب الأقصى ووحدته في الجزائر وتونس) ؟ أم أن هذه العلاقات لم تخضع لإرادة

الحكام بل تحكمت فيها الخلفية الثقافية كالوازع الديني المتمثل في الجهاد، وتقديم مصلحة المسلمين بغض النظر عن انتماءاهم العرقية والسياسية؟ وما هي مظاهر التبادل التجاري بين هذه المراكز (الجزائر، تونس وسلا) هل اقتصر على المبادلات الرسمية بين الموانئ وعن طريق القوافل، أم أهَا تعدت إلى التبادل التجاري بين البحارة القراصنة البحر من المدن الثلاث؟ وما هي طرق التعامل التجاري المعتمدة ؟ وما هي وسائلها؟ وهل اقتصـــرت هذه العلاقات التجارية على الحـــملات المشتركة على السفن والسواحل الأوربية واقتسام الغنائم ؟ أم أهَا تعـــدت إلى علاقات تجارية إنســـانية كالإمدادات، تبادل الهدايا، وفداء أسرى الطرفيين ؟

وقد اعتمدنا في دراسة الموضوع على ثلاثة مناهج هي:

– المنهج الوصفي لتقديم عرض شامل ودقيق عن الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي بالمدن الثلاث مما جعلنا نعتمد على هذا المنهج لوصف الأحداث التاريخية لتلك الفترة ومظاهرها .

– المنهج التحليلي لفهم واقع المبادلات التجارية بين مدينة الجزائر ومدينتي تونس وسلا وفهم دور مدينة الجزائر في إدارة هذه العلاقات ضمن هذا الثالوث الجهادي المغاربي .

– المنهج المقارن وهو أنسب منهج لمعالجة مثل هذه المواضيع لإضفاء طابع الدقة والموضوعية على البحث.

كـــما اقتضـــى البحث في هـــذا الموضوع الاعتمـــاد على بيبليوغـــرافيا متنوعة باللغـــتين العربية والأجنبية والتي ساعدتنا على إزالة الغموض عن بعض القضايا التـــاريخية يمكن أن نوردهـــا على الشكل التالي:

- **المصادر العربية:**

إن المصادر المحلية لم تتطرق إلى موضوع العلاقات التجارية بين المراكز الجهادية بشكل مفصل، بل تضمنت إشارات بسيطة فقط ولكن تبقى قيمتها عظيمة، خاصة أبو قاسم الزياني الذي تحدث كتابه **الترجمانة الكبرى** عن تجربته أثناء تنقله من مدينة تونس إلى مدينة الجزائر وتعرض سلعه للنهب بالبحر من طرف قراصنة أوربيين، إضافة رحلة عبد الرزاق ابن

حمادوش إلى المغرب الأقصى الموسومة **بلسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال** إضافة إلى ما أورده كل من ابن أبي الدينار في كتابه: **المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس** والوزير السرّاج صاحب **الحلل السندسية** حول الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بمدينة تونس وبعض علاقاتها الخارجية، أما السلاوي صاحب **كتاب الاستقصا** فقد أعطانا معلومات مهمة عن المعاملات التجارية بين مدينتي الجـــزائر وسلا وكذلك ابن زيدان (مولاي عبد الرحمن) في كتابه الموسوم: **المنتزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف**، أما محمد الصغير اليفريني فقد أورد في كتابه: **روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف** معلومات مهمة تخص العلاقات التجارية بين مدينتي الجزائر وسلا في العهد العلوي خاصة في عهد المولى إسماعيل. وبالرغم من قلة المعلومات التي توردها هذه المصادر، إلا أنها تشكل قاعدة صلبة للبحث في هذا الموضوع .

- إضافة إلى بعض المؤلفات المتأخرة **كمذكرات نقيب الأشراف الزهّار** الذي تحدث عن بعض الأحداث التي تعكس العلاقات التجارية بين مدينتي الجزائر وتونس، وكذا وابن أبي الضياف في مؤلفه: **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان** الذي أعطى معلومات مهمة حول الأوضاع السياسية و الاقتصادية بتونس أواخر العهد العثماني.

- **المصادر الأجنبية:** تضمنت هذه المصادر معلومات مهمة عن تاريخ المدن الثلاث خاصة الدراسات التي تتعلق بتاريخ مدينة الجزائر ومن المصادر نذكر ما كتبه الأب دان Dan في كتابه :تاريخ بلاد البربر وقراصنتها (الجزائر، تونس، سلا، طرابلس) histoire de la barbarie et de ses Corsaires معلومات مهمة عن النشاط التجاري للبحارة القراصنة بهذه المدن في الحوض الغربي للبحر المتوسط وسواحل المحيط الأطلسي، غير أن ما أورده الأب دان لا يعكس سوى نظرة دينية متشبعة بترسبات الاحتكاك الجدلي بين الشرق والغرب، إضافة إلى ما أورده الدكتور توماس شو وفانتور دو بارادي حول الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لإيالة الجزائر خلال القرن 18م.

إضافة إلى المصادر الأجنبية المترجمة إلى اللغة العربية التي تقدم مادة هامة للبحث على غرار **مذكرات أسير الداي كاثكارث (قنصل أمريكا في المغرب)** ورحلة **العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونـــس وطـــرابلس 1732 .**

- **المراجع العربية والأجنبية**: إن الاطلاع على هذه المراجع كان مفيدا للغاية لفهم طبيعة الظروف التاريخية والاقتصادية والتطورات التي عرفها البحر المتوسط خلال القرنيين17و18م، ونذكر من هذه المراجع على سبيل المثال لا الحصر **النظام المـــالي للجزائر في العهد العثماني** لناصر الدين سعيدوني، بالإضافة إلى **سلا ورباط الفتح وقرصنتهما الجـــهادية** للناصري وهو كتاب في غاية الأهمية باعتبار المؤلف سليل المؤرخ المغربي المعروف السلاوي، وكذا اعـــتماده على مصـــادر الخزانة الناصرية بسلا، **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830** لعبد القادر حليمي، إضافة إلى رشـــاد الإمام في دراسته الموسومة : **سيـــاسة حمودة باشا في تونس (1782-1814)**، وكذا محمود مقـــيدش في كتابه: **نزهة الأنـــظار في عجائب التـــواريخ والأخبار**.

أما الكتابات الأجنبية فتتمثل فيما قدمه دوكار E. Rouard de Card في كتابه **معاهدات فرنسا مع إفريقيا الشمالية traités de la France avec les pays de l'Afrique du Nord (Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc** الذي أوضح جانبا مهما من تاريخ العلاقات التجارية بين مدينة الجزائر ومدينتي تونس وسلا خلال القرنين (17- 18م) بالإضافة إلى ما قدمه كل من:

- Henri Delmas de Grammont, **Histoire d'Alger Sous la domination turque (1515 -1830) .**

-Paul Masson **: Histoire des établissement et du commerce français dans l'Afrique barbaresque.**

-Ernest Mercier **: Histoire de l'Afrique septentrionale-**

-Roger Coindreau **: les Corsaires de Salé**.

والملاحظ أن هذه المراجع تعالج موضوع الجهاد البحري من زاوية ضيقة محاولة إبرازه

كعمل منافيا للأخلاق واعتباره عملا وحشيا، ولم تعالج الموضوع في إطاره الموضوعي ويبرز هذا التوجه من خلال تداول هذه الكتابات لمصطلح بارباريا الذي أطلقه الأروبيون على كل المغارب.

- **أما الدراسات الحديثة** : فبالإضافة إلى الدراسات السالفة الذكر، فقد قدمت الباحثة المغربية ليلى مزيان معلومات جد مهمة حول النشاط البحري لقراصنة سلا، كما تطرقت باقتضاب إلى علاقتهم ببعض البحارة المسلمين من مراكز أخرى كالجزائر تونس وتطوان حيث تناولت الباحثة الدور الجهادي الذي لعبه قراصنة سلا بالتعاون مع أتراك الجزائر في دراستها الموسومة **سلا وقراصنتها (1666-1727)** .

إضافة إلى ما سبق، فقد زوّدني **كشاف الوثائق الجزائرية بالأرشيف التونسي** الذي عرضه الدكتور خليفة حمّاش بمعلومات غاية في الأهمية حول العلاقات التجارية بين مدينتي الجزائر وتونس كمركزين جهاديين، غير أنها لا تغطي سوى الفترة المتأخرة من النصف الثاني من القرن 18م.

وقد قسّمت موضوع الدراسة إلى مقدمة أردفناها بأربعة فصول عالجنا فيها موضوع الدراسة، ثم تخمناها بحوصلة ما خرجنا به من البحث، وألحقنا ذلك بمجموعة من الملاحق والفهارس.

- أما **المقــــدمة** فقد عــــرّفنا فيها بالموضوع وأبرزنا أسبـــــاب اختياره وأهم العــــراقيل التي واجهت البحث، إضافة إلى بيان لأهم المصــــادر والمراجع المعتمــــدة في البــــحث، والخــــطة المتبعة فيه.
- أما **الفصل التمهيدي:** فيتضمن مقدمات أساسية عن البحث كالإطار الجغرافي للمدن الثلاث، وكذلك ضبط مصطلحات أساسية في البحث وهي الجهاد البحري، القرصنة والقنص، كما تضمّن لمحة وجيزة عن الأوضاع السياسية للمغارب خلال القرن 16م وظهور مدينة لجزائر كمركز جهادي في بلاد المغرب.
- أمّا **الفصل الأول:** فيتناول لمحة وجيزة عن الأوضاع السياسية والاجتماعية

والاقتصادية المدن الثلاث طيلة القرنين (17- 18م)، قصد إبراز الظروف المحيطة بالعلاقات التجارية بين الأقطاب الجهادية الثلاث.

- أمّا **الفصل الثاني** فكان بعنوان «**العلاقات التجارية بين مدينتي الجزائر وتونس كمراكز للجهاد البحري خلال القرنيين (17–18م)** » وخصصناه للحديث عن العوامل المؤثرة في العلاقات التجارية بين مدينتي الجزائر وتونس كمركزين جهاديين عثمانيين، سواء كانت عوامل داخلية أو خارجية، ثم أهم مظاهر التعامل التجاري بينهما والمواد التجارية المتبادلة، وكذا العملة المتداولة في المعاملات التجارية بينهما، ثم أهم الطرق التجارية الرابطة بين المدينتين وحالة الأمن بها، وكذا وسائل المستعملة في النقل.
- أمّا **الفصل الثالث** فكان بعنوان «**العلاقات التجارية بين مدينتي الجزائر وسلا كمراكز للجهاد البحري خلال القرنيين (17–18م)** » وخصصناه للحديث عن العوامل المؤثرة في العلاقات التجارية بين مدينتي الجزائر وسلا كمركزين جهاديين واحد عثماني وآخر تابع للمغرب الشريفي (رغم أن مدينة سلا كانت مستقلة في بعض الأوقات)، سواء العوامل الداخلية أو الخارجية، ثم أهم مظاهر التعامل التجاري بينهما والمواد التجارية المتبادلة، ثم أهم الطرق التجارية الرابطة بين المدينتين وحالة الأمن بها وكذا وسائل المستعملة في النقل.

وأنهينا دراستنا بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي تم التوصل إليها خلال البحث في العلاقات التجارية بين مدينة الجزائر ومدينتي تونس وسلا.

مدخل:

مقدمات أساسية عن المدن الثلاث

أولا: الإطار الجغرافي للمدن الثلاث.

ثانيا: ضبط المصطلحات: القنص– القرصنة – الجهاد البحري.

ثالثا : الأوضاع السياسية للمغارب خلال القرن16م.

أولا: الإطار الجغرافي للمدن الثلاث:

1- الإطار الجغرافي لمدينة الجزائر:

تقع مدينة الجزائر على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط على خليج واسع محصورة بين البحر وجبل بوزريعة الذي يبلغ ارتفاعه 407م، وقد بنيت في منطقة تنحدر اتجاه البحر،[1] تمتد على دائرة 36° شمالا وعلى خط طول 21 درجة وعشرون دقيقة [2].

وإذا اعتمدنا على المظهر الطبيعي كمعيار لتحديد إقليم المدينة، نجد أن مدينة الجزائر تمتد من شاطئ البحر الأبيض المتوسط بجبل بوزريعة إلى جبال الأطلس البليدي، ويحده شمالا البحر الأبيض المتوسط ويحتضنه من الشرق وادي الحراش ومن الغرب واد زعفران[3]، وقد بنيت المدينة بشكل شاقولي على مستوى سطح الماء [4]، إذ تنحدر من أعلى هضبة القصبة إلى جانب البحر على شكل مثلث[5] وقد وصف جمالها الرحالة الألماني ج . أو.هابنسترايت بقوله:«.. وبنيت مدينة الجزائر على منحدر جبلي، وهذا ما جعل أزقتها متدرجة يعلو بعضها البعض مثل مدرجات مسرح روماني، هذا التدرج مع البياض لمنازلها ذات السطوح المشرفة على البحر هو الذي يكسبها منظر متميزا جدا....»[6]، فهي بذلك تشبه محجره من محاجر الرخام الأبيض[7]، وفي الضواحي يحيط بها سهل متيجة وقد أشار إليه

---

1 - أندري ريمون : **المدن العربية الكبرى في العهد العثماني**، ترجمة :لطيف فرج، ط2، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة،1991، ص85.

2- Venture de Paradis **: Alger au VX IIIe siècle**, Édité par :E .Fagnon, typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1898, p3.

3- عبد القادر حليمي :**جغرافية الجزائر**،ط1، مكتبة الشركة الجزائرية مرازقة، الجزائر،1968، ص01.

4- كوريين شوفا ليه: **الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1530-1541)**، ترجمة :جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص10.

5- أحمد توفيق المدني: **كتاب الجزائر**، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1963، ص198 .

6- ج. أو. هابنسترايت: **رحلة إلى الجزائر وتونس وطرابلس1732**، ترجمة وتقديم وتعليق: ناصر الدين سعيدوني ، دار الغرب الإسلامي ،بيروت،2008 ، ص35-36.

7- اليسور وويلد: **رحلة طريفة في إيالة الجزائر**، تحقيق وتقديم وترجمة: محمد جيجلي، دار الأمة، الجزائر، 2002، ص3.

المقري[1]بقوله:«...ومدينة الجزائر، جزائر بني مزغنة من أقصى إفريقية من أرض متيجة...»[2].

وبذلك فإن إقليم مدينة الجـــزائر يشمل مظهرين طبيعيـــين مختلفين تماما أحـــدهما سهلي وآخر وجبلي[3]، أما واجهتها البحرية فهي في غاية الأهمية إذ تقع على منتصف الطريق الساحلي الذي يربط تونس شرقا بالمغرب غربا[4]، أما موقع المدينة بالقياس إلى شبه الجزيرة الإيبيرية فقد كان له دور كبير في تعمير المدينة خصوصا عقب هجرة الأندلسيين إليها، كما أن موقعها الوسطي بين قناة صقلية ومضيق جبل طارق مهم من الناحية العسكرية وهذا ما سمح للمدينة بالتحكم في الطرق التجارية بالبحر المتوسط وقطع الطرق الأكثر مباشرة من جبل طارق نحو الحوض الشرقي للبحر المتوسط، ومن جنوب اسبانيا نحو ايطاليا وصقلية[5].

ونظرا لما يتوفر عليه هذا الموقع من مزايا فقد الأكثر ملائمة لتشيد هذه المدينة[6] وباعتبار المدينة إحـــدى الثغور المعرضة للخطر فقد أولتها السلطة العثمانية الرعاية الخاصة، لذا حرصت على تحصينها[7]، أما سورها فينحدر من القصبة إلى البحر من الجهتين الشرقية والغربية، وقد وصف الوزان متانة سور المدينة أوائل القرن 16م بقوله: «...أسوارها رائعة

---

[1]- أحمد بن محمد المقري: تلمساني المولد ن انتقل إلى فاس 1009ه وتولي الفتى والخطابة بجامع القرويين 1022ه،أهم مؤلفاته :**نفح الطيب، فتح المتعال، أزهار الكمامة . راجع** : أبو القاسم محمد الحفناوي : **تعريف الخلف من رجال السلف،** القسم 2 ، ط1 ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ،بيروت، 1982،ص 48.

[2]- أحمد بن محمد المقري التلمساني: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،** تحقيق: إحسان عباس، م6، دار صادر بيروت،1968 ص497.

[3]- عبد القادر حليمي: **المرجع السابق،** ص02.

[4]- آمنة أبو حجر : **موسوعة المدن الإسلامية،** ط1 ،دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان ، 2002، ص123.

[5]-عبد الرحمن الجلالي وآخرون : **تاريخ المدن الثلاث،** ط1، دار الأمة للطباعة والنشر، 2007، ص187

[6]- العربي أشـــبودان: **مدينة الجزائر،** ترجمة: جناح مســـعود، مراجعة: حاج مسعود مسعود، دار القصـــبة للنشر الجزائر 2007، ص20.

[7]-عبد القادر حليمي: **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830**، ط1، دار الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972 ص241.

متينة جدا مبنية من الحجر الضخم... »[1].

وللمدينة خمسة أبواب رئيسية تربطها بالعالم الخارجي: باب الوادي، باب جديد، باب الجزيرة، باب البحر وباب عزون، وكل باب مخصصة لغرض معين.

كما اهتم الأتراك العثمانيون طيلة حكمهم لمدينة الجزائر بإقامة المنشآت الدفاعية، لذا تكثر بها الأبراج والحصون كبرج تامنفوست[2]، وكذا برج البحري في ناحية الشرق الذي يمثل نقطة استراتيجية يراقب منها العدو القادم عن طريق البحر المتوسط[3].

أما مرسى المدينة فقد وصفه كار بخال أنه آمن وأكبر مما كان [4]، وذلك بعد أن أمر خير الدين بربروس بربط الجزيرة بواسطة رصيف حاجز استعمل في بناءه الحجارة المجلوبة من الموقع الأثري لمدينة تامنفوست، وبسد ما بين الجزر الصغيرة [5]حتى اتصلت بالمدينة برصيف طوله 220 مترا وعرضه 25متر[6] مشكــلة حوضا تشرف عليه المخازن والثكنات ودار الإمارة[7].

بذلك أصبحت المدينة منيعة حتى أن تحصيناتها أثارت إعجاب التمكروتي الذي وصفها قائلا: «...الجزائر...عامرة كثيرة الجند حصينة...»[8] ، أما السلاوي فقد وصف المدينة بأنها

---

[1]- الحسن بن محمد الوزان : **وصف إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي، محمد الأخضر،ج2، ط2،دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983ص36 .

[2]- عبد القادر حليمي: **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830**، ص241-242.

[3]-عبد القادر حليمي: **جغرافية الجزائر**، ص43.

[4]- مارمول كاربخال : **إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي، محمد زينبر، محمد الأخضر، أحمد توفيق، أحمد بنجلون، ج2، دار المعرفة للنشر، 1989، ص17.

[5]-عبد القادر حليمي: **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها 1830م**، ص43.

[6]- شوقي عطا الجمل: **المغرب العربي الكبير في العصر الحديث**، ط1، الإنجلو مصرية، القاهرة، 1977، ص84.

[7]- أحمد توفيق المــدني: **المرجع السابق**،ص197.

[8]-علي بن محمد التمــكروتي: **النفحة المسكية في الســفارة التركية**، تقــديم وتحقيق: عبد اللطيف الشــاذلي، المطبعة الملكية الرباط، 2000، ص45.

أمنع من عقاب الجو لا تخشى هجومات الدول الأوربية[1].

أما عن وجه تسمية هذه المدينة "الجزائر" فقد وردت في معظم المصادر العربية ابتداء من القرن 10م لفظ: جزائر بني مزغناي[2]، أو جزيرة بني مزغناي، وسواء ورد اسمها مفردا أو جمعا في المصادر العربية، فمن المؤكد أن المدينة استوحت اسمها من الجزر الصغيرة الواقعة على مسافة من الموقع الذي بنيت فيه[3]. ونسبت إلى مزغنة؛ وهي قبيلة بربرية من صنهاجة كانت تقطن بالمنطقة [4]، أما الأتراك العثمانيون فقد أطلقوا عليها اسم "الجزائر غازيه" أي الجزائر المحاربة، أما عن أصل لفظ Alger فهو تعجيم للفظ العربي "الجزائر" تناقله الملاحون الأوربيون بلهجاتهم المختلفة خلال القرن 16م وقد أكد ذلك الوزان بقوله «...لكن الإسبان يسمونها ألجي... » [5]، وكيفما كان اسمها فإن المدينة قد منحته لكل البلاد [6].

2-الإطار الجغرافي لمدينة تونس:

تعتبر مدينة تونس من أهم المدن على ساحل البحر المتوسط[7]، إذ تقع على الساحل الشرقي لتونس[8] تطل على خليج واسع[9]، وتبعد بمسافة صغيرة تقدر بـــ16كلم[10]عن موقع قرطاجنة القديمة [11].

---

[1]- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي: **كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج1،دار الكتاب الدار البيضاء ، 1959، ص104.

[2]- اسمها الفينيقي إكوسيوم.

[3]- أبو القاسم محمد بن حوقل: **المسالك والممالك والمفاوز والمهالك (صورة الأرض)**، ص52..

[4]-Berthe Rand:« Alger étude archéologique et topographique sur cette ville aux époques romaine arabe – turque»، in **R.A**, N.°19,1870.p297.

[5]- الوزان :**المصدر السابق**، ج 2،ص37.

[6]- Venture de Paradis: **op.cit.** p3.

[7]- كمال مو ريس شربل: **الموسوعة الجغرافية للوطن العربي**، ط1،دار الجيل، بيروت، 1998،ص133.

[8]- الصادق أبو سرور: **كتاب جغرافية القطر التونسي**، ط2، المطبعة التونسية ، 1938، ص40.

[9]- آمنة أبو حجر : **المرجع السابق**، ص77.

[10]- شارل جورج بدران: **الأطلس العالمي**، مطبعة قالاردي، 1978، ص84.

[11]- محمد أفندي مختار بكباشي: **المجموعة الشفاهية في علم الجغرافية**، أركان حرب الجهادية، 1294هـ، ص114.

وقد بنيت المدينة فوق ربوة[1]، على حافة بحيرة تتصل بالبحر بواسطة قناة [2] يتسرب عبرها الماء إلى البحيرة[3]، وقد أشاد الوزان بموقعها المتميز عندما مر بها أوائل القرن16م بقوله: «... مدينة صغيرة من تأسيس الأفارقة، على ضفة البحيرة المكونة من قناة حلق الوادي بعيدة عن البحر بنحو ميلين...»[4]، ويتضح من ذلك أن المدينة لا تشرف على البحر مباشرة بل يفصلها عن مرساها بحيرة، وهذا ما أعطاها حصانة طبيعية تحدث عنها التمكروتي الذي زار المدينة أواخر القرن16م بقوله: «...بحيرة ممتدة من المرسى إلى باب المدينة... وعند المرسى حلق من البحر يدخل إليها... سمي حلق الوادي... »[5]، وهذا يتفق مع ما ذكره ابن أبي الدينار 18م: «...مدينة تونـــس في جون خارج من البحر، وهي بحيرة محتفرة عرضها أكثر من طولها وذلك أن طولها ستة أميال وعرضها ثمانية أميال... »[6] ويوجد مرسى المدينة وحصنها عند نهاية القناة على ساحل البحر ويسمى حصن الوادي وقد أعطانا التمكروتي وصفا دقيقا لكل من المرسى والحصن، أما عن مرسى حلق الوادي فذكر أنه مرسى تونس وهو أصعبها للسفن وأقربها إلى المدينة، وأن بينه وبين مدينة تونس اثنا عشر ميلا [7].

أما حصن المدينة قائلا: «... ثم بنوا على المرسى حصنا عظيما وقشتيلا منيعا متقنا عجز الترك لما أخذوه عن هدمه...»[8]، وتكمن أهمية الحصن في كونه يحمي القناة التي تصل البحر بالبحيرة المتاخمة للمدينة، وهذا ما جعله بمثابة القلعة التي تدافع عنها[9].

---

[1]- مسعود الخوند: **الموسوعة التاريخية الجغرافية**، ج7، الشركة العالمية للموسوعات، بيروت،2004، ص113.

[2]- ج .او .هبنسترايت: **المصدر السابق**، ص113.

[3]- مارمول: **المصدر السابق**، ج2، ص113.

[4]- الوزان: **المصدر السابق**،ج2 ،ص 71.

[5]- التمكروتي: **المصدر السابق**، ص 41.

[6]- محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (ابن أبي الدينار): **المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس**، ط3، دار المسيرة ، بيروت 1993 ص19.

[7]- التمكغروتي :**المصدر السابق**، ص41.

[8]- **المصدر نفسه**، ص42.

[9]- ج .او.هابنسرايت :**المصدر السابق**،ص114.

أما عن تسمية المدينة، فقد أطلق العرب عليها اسم تونس[1] أما اسمها اللاتيني فهو تونيوتيوم حسب ما أورده الوزان، وتتفق معظم المصادر العربية أن اسمها القديم على نحو ترشيش فقد أورد الوزان في هذا الصدد: «...كانت تدعى في غابر الأزمان ترسيس كنظيرتها الأخرى في أسيا... »[2]، أما التمكروتي فقد أورده ترشيس «...تونس تعرف بترشيس...»[3]، أما ابن أبي الدينار فقد أورده ترشيش بقوله: «... ومدينة تونس في ذاتها قديمة اسمها في التواريخ ترشيش ولما فتحها المسلمون وأحدثوا بها البناء سموها تونس... »[4] وكيفما ورد اسمها فإنه من المتفق عليه أن العرب الفاتحين هم الذين أطلقوا عليها اسم تونس لبهجتها وانفساحها وأنسها، فقد قال عنها التمكروتي عندما مر بها أواخر القرن 16م: تزدهي بها المحافل، ويجتبيها القادم والآفل والله در القائل:

تونس تؤنـــس من زارها   وتودعه لوعة حيث سارت

فيغدو ولو حل أرض العراق   يحن إليـــها حنـــين الحوار

ويأمل عـــودا ويشتـــاقه   اشتياق الفرزدق عود النوار[5]

3- الإطار الجغرافي لمدينة سلا :

إن إطلال المغرب الأقصى على واجـــهة المحيط الأطلسي جعلته على اتصال دائم بأوروبا الغربية والشمالية من ناحية، وبأمريكا من ناحية أخرى[6]، لذلك نجد الأقدمين طرقوا سواحل المغرب الغربية وأسسوا مراكزهم التجارية بها، خصوصا عند مصب الأودية والأنهار

---

[1]- تونس كلمة بربرية معناها البرزخ.راجع : لزهر الحسناوي : **أطلس الدول العربية**، منشورات نوميديا، 2010، ص10.

[2]- الوزان :**المصدر السابق** ،ج 2، ص 71.

[3]- التمكغروتي، **المصدر السابق**، ص45.

[4]- ابن أبي الدينار : **المصدر السابق**، ص77.

[5]- التمكغروتي : **المصدر السابق**،ص46.

[6]- عثمان الكعاك : **محاضرات في مراكز الثــقافة في المــغرب من القرن (16-19)**، المطبعة الكــمالية ، القاهرة 1958 ص40.

في هذا البحر كمصب نهر أبي رقراق[1]، ففي القرن 12 ق م أسس الفينيقيون مدينة سلا على المحيط وأطلقوا عليها شالة[2].

وقد بنيت مدينة سلا على شاطئ المحيط في موقع جميل[3] على الضفة الشرقية لمصب نهر أبي رقراق[4]، تقابلها على الضفة الأخرى تماما مدينة الرباط[5] والتي تبعد عنها بأكثر من ميل ونصف[6]، إذ يفصل بين المدينتين نهر أبو الرقراق؛ أما وضعه الجغرافي فقد أعطى للمدينة أهمية كبرى، كونه أكسبها حصانة طبيعية، فمدخله الصعب يتسبب في تجمع الرمال عند مصبه في البحر، قد شكل خطرا على السفن الداخلة إليه، إلا أنه إذا تجاوزته السفن وجدت عمقا جيدا ومرسا آمنا تأوي إليه المراكب التجارية والأساطيل الحربية[7]، ومدينة سلا مدينة محصنة بقصبة على النهر[8] محاطة بسور يحميها وقد أشار إليه الوزان في سياقه حديثه عن المدينة بقوله: «...وتوجد (الدور) في المدينة كلها لاسيما قرب السور المحيط بها...»[9].

---

[1]- جعفر بن أحمد الناصري: **سلا ورباط الفتح أسطولها وقرصنتها الجهادية**، تحقيق: أحمد بن جعفر الناصري، ج3 مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 2006، ص19.

[2]- عثمان الكعاك: **المرجع السابق**، ص33.

[3]- الوزان: **المصدر السابق**، ج1، ص207.

[4]- مارمول: **المصدر السابق**، ج2، ص134.

[5]- أحمد الشناوي وآخرون : **دائرة المعارف الإسلامية**، مراجعة محمد مهدي علام، م12 ،دار المعرفة، بيروت،ص22 .

[6]- الوزان: **المصدر السابق**، ج1، ص207.

[7]- الناصري : **المرجع السابق**، ج3، ص20.

[8]- مارمول :**المصدر السابق**، ج2، ص135.

[9]- الوزان: **المصدر السابق**،ج1، ص208.

ثانيا : ضبط المصطلحات :

إن بداية الحروب البحرية في الحوض الغربي للمتوسط قديمة، إذ هناك أمثلة تاريخية عديدة تتحدث عن العنف البحري، أما اللصوصية فقد ظلت لزمن طويل الوسيلة الوحيدة لبعض الشعوب لخوض حروبهم البحرية[1].

وبناء على هذا فإن القرصنة لم تكن بالشيء الجديد في غرب البحر المتوسط، فمنذ قرون طويلة كان المسلمون والمسيحيون على السواء يقومون بأعمال القرصنة في البحر المتوسط[2].

فقد تحدث أبو العباس الغبريني (644-714هـ) عن وجود مثل هذا النشاط البحري في مدينة بجاية بقوله:«... وكانت بجاية بلدة غزاة، وكان الغزاة يدخلون إلى الجزر الرومية وغيرها ويسقون السبي الكثير منها ويترل الناس لشرائه بحومة المذبح ... وهناك يخمس ويقع الفصل فيه.... وبلغ من كثرة سبي الآدميين أن يباع بيض..» [3]،كما أشار ابن خلدون في كتابة العبر إلى سيطرة المسلمين على البحر المتوسط أواخر القرن 8هـ بقوله: «...وكان المسلمون قد تغلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت وصلتهم فيه، فلم تكن الأمم النصرانية بأساطيلهم بشيء من جوانبه، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة على السواحل مثل: ميورقة ومنورقة....وقد امتلأت سفنهم الأكثر من بسيط هذا البحر عددا وعدة واختلفت في طرقه سلما وحربا...»[4] ولكن هذا لا يعني أن النشاط البحري كان حكرا على

---

[1]-Leila Maziane : **Salé et ses Corsaires (1666 .1727), Un port de la course Marocaine au XVIII Siècle**, Thèse Soutenue En1999 à Université de Rouen havre, Normandie, 2007, p 22, (Books .Google.com).

[2]-F. Braudel :« Les espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 à 1577», in **R.A**, N.°69 .Alger , 1928.pp196-197.

[3]- أبو العباس الغبريني : **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق : عادل نويهض منشورات ،ط2، دار الأفاق الجديدة، بيروت 1979، ص 45.

[4]- عبد الرحمن ابن خلدون : **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر من ذوي الشأن الأكبر**، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت 2007، ص 262.

المسلمين، لأن عدد القراصنة المسيحيين بهذا البحر كان كبيرا جدا خلال القرنين (15-16م)، ففي الوقت الذي تراجعت فيه القرصنة المسيحية مع بداية القرن 16م، نشـــطت القرصـــنة الإســـلامية في المغارب بعد طـــرد سكان الأندلس وإبعادهم إلى الســـواحل المغاربية[1]، وبعد نجاح الإسبان في عـــملية استرداد الأندلس كثفوا حملاتهم على الثغور المغاربية، واضطرت هذه الأخيرة إلى توحيد الجهود لرد العدوان، ثم تحولت في مرحلة لاحقة من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم والتتبع[2]، والملاحظ أن معظم الكتابات الأوربية أشارت إلى المغارب" ببرباريا " ونعتهم بالوحشة والشراسة، ومما لاشك فيه أن هذا المصطلح يعكس حتما وجهة نظر الاوربيين لا أكثر، فليس من العدل أن يتحمل المغارب وحدهم مسؤولية العنف البحري، ومن أجل العمل على تبني موقف تأملي سليم حول القرصنة وجب على المؤرخين أن يعملوا على دراسة هذه الظاهرة بشكل أعمق[3]، لذا وجدنا من أنه الضروري ضبط بعض المصطلحات لتجنب أي مغالطة في استعمالها، وهنا نتساءل هل المغاربة لصوص بحر pirates أم قراصنة corsaires أم مجاهدون في البحر؟

1- تعريف القنص:

أ- لغة:

قنص الصيد، يقنصه قنصا، واقتنصه وتقـــنصه: أي صاده [4]، والقنّاص هو الصيّاد [5] وكذلك القنيص والقانص [6].

---

[1]- F. Braudel : **op**، **cit** ،p 196-197.

[2]- Leila Maziane : **op** ،**cit** ،p23.

[3]- جيروم فينار: «رؤية جديدة للقرصنة» **المجلة التاريخية المغاربية** ،ترجمة : عبد الجليل التميمي، العدد 13-14، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل،1979،ص111.

[4]- أبو الفضل جمال الدين محـــمد بن مكرم ابن منظور: **لسان تهذيب لسان العـــرب**، ج2، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، 1993، ص422.

[5]- **المنجد في اللغة والأعلام**، ط4، دار المشرق، بيروت، 2003، ص657.

[6]- ابن منظور : **المصدر السابق**، ص422.

ب- اصطلاحا:

فالقنص اصطلاحا يقابله باللغة الفرنسية capture هو نوع من اللصوصية البحرية الدنيا لا تتعدى تأمين احتياجات جماعات بشرية ذات مستوى معيشي متدني، وذلك عن طريق قطع البحر واصطياد السفن المارة به[1]، والاستيلاء على الأموال والممتلكات دون أي اعتبار ديني أو سياسي من طرف مغامرين ولصوص قطاع الطرق البحرية، فالقناص يترصد سفن سائر الدول التي يصادفها في البحر سواء كانت مسالمة أو معادية[2] .

2- مفهوم القرصنة :

أ- لغة: لفظة قرصان دخيلة في اللغة العربية، جاءت من اللفظة اللاتينية كورس course الدالة على السرعة في الجري اشتقاقا ومعنى[3] .

أما الأب دان Dan فقد عرف لفظة كورسير corsaire أنها جاءت من كورس Corse اسم الجزيرة الواقعة في البحر المتوسط، أو من كورس corse اسم سكانها لأنهم يتصفون حسبه بالشراسة والعنف في الأخلاق[4]، ثم أطلقت على البحارة التي يجوبون البحار بسرعة لأجل الحرب والغزو واصطياد السفن .

وتطلق كلمة قرصان على السفن أو الأسطول جمعا وفـــردا [5]، أو على من يتعاطى القرصنة ويستعمل مفردا وجمعا ويجمع أيضا على قراصين أو قراصنة، والفعل المشتق منها هو قرصن على وزن فعلل[6]، والاسم منه قرصنة[7].

---

[1]- شوفا ليه: **المرجع السابق**، ص54.

[2]- الناصري: **المرجع السابق**، ج 3، ص8.

[3]- **المرجع نفسه** : ج3، ص5 .

[4]- P. Dan : **Histoire de la barbarie et de ses Corsaires(du royaume et des villes d'Alger, de Tunis, de tripoli et de salé**), Seconde Édition, chez l' imprimeur et libraire ordinaire du roi , Paris, 1649,p p09-10.

[5]- الناصري: **المرجع السابق** ،ج3، ص05-06.

[6]- نور الدين عبد القادر: **صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي**، ج2،مطبعة البعث، قسنطينة، 1965 ، ص58.

[7]- **المنجد في اللغة والإعلام** ، ص620.

ب- اصطلاحا:القرصنة هي نوع من أنواع الحروب البحرية التي تقع بين الدول المتعادية ظهر هذا المصطلح حوالي سنة 1577 بعد معركة ليبانت[1]، تتم هذه الحروب البحرية بواسطة بيان صريح للحرب أو ترخيص يتم بموجبه تجهيز سفن حربية جوازات السفر لجان وتعليمات[2]، فالقرصنة تخضع للقانون البحري الدولي؛ فإذا كانت من الدول المعادية تقتاد سفنها أو تغرق، أما إذا كانت مسالمة فيتعين اجتنابها وفقا للمعاهدة المبرمة بينهما، شرط ألا تكون حاملة لعدة حربية لدولة معادية أو متوجهة لأحد المراسي المحاصرة[3].

و هنا تجدر الإشارة إلى أن هناك فرق شاسع بين مدلولين وردا في الكتابات الأوروبية، أما المدلول الأول فهو course وهي القرصنة وقد سبق التطرق إليها، أما المدلول الثاني فهو piraterie فهي لصوصية البحر بغير إذن حـــكومة معلـــومة يقوم بها مغامرون من أجـــل الذهب والسلب السبي.[4]

وبالرغم من أن اللغة العربية لا تتضمن هذه التفرقة الاصطلاحية، إلا أنها تضمنت مدلولا آخر وهو الجهاد البحري.

3- مفهوم الجهاد البحري:

أ- لغة: جاهد أي استفرغ وسعه في الحرب، وغلّب على القتال في سبيل الحق[5]، فالجهاد هو الصورة الوحيدة للحرب التي يجيزها الإسلام[6].

ب-اصطلاحا: يقصد به في الاصطلاح الفقهي، البذل في سبيل الدفاع عن الدعوة

---

[1] -Alain Rey et autres : **Dictionnaire historique de la langue française,** édition dictionnaires le robert , Paris ,1992, p504.

[2]- شوفا ليه: **المرجع السابق**، ص54.

[3]- الناصري: **المرجع السابق**،ج3، ص06-08.

[4]- **المرجع نفسه**،ج3، ص08.

[5]- أحمد رضا : **معجم متن اللغة**، م1، منشورات مكتبة الحكمة، بيروت،1958،ص577.

[6]- أ.جي. بريل: **موجز دائرة المعارف الإسلامية**، ج 12،ط1، ص3248.

بالنفس والمال امتثالا لقوله تعالى: «... **إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض...**» [1].

أما في الاصطلاح التاريخي فهو عمليات عسكرية جهادية في البحر[2] يقوم بها أفراد مسلمون، قبل أن ينتظم ذلك ويتحول إلى حالة حـــرب مفتوحة على كل الجـــبهات انطلاقا من الثغور الإسلامية[3]، التي تعرضت للحملات الصليبية المتـــكررة بمباركة من البابا[4]، فالمؤكد أن الجهاد البحري ظهر للدفاع عن السواحل الإسلامية، والمساهمة في إنقاذ مســـلمي الأندلس عقب سقوط غرناطة سنة 1492، والانتقام من سفن وسواحل الدول المعادية [5].

ومن هذا المنطلق يمكن القول أن القرصنة البحرية المغاربية هي في الحقيقة جهاد شـــرعي ورد فعل مشـــروع علـــى الغارات الأوروبية [6]، فهي بذلك « قرصنة جهادية» لها مبرراتها في نطاق العلاقات السياسية والاقتصادية بين ضفتي البحر المتوسط بعد سنة 1492، أما عن حكمها الأخلاقي فهو دفاع مشروع بالرغم من معارضة الأوربيين له واعتباره عمـــلا عدائيا يتنافى والقانون الدولي وما تقتـــضيه حرية التجارة والتبادل بين الدول [7].

---

[1]- أحمد عطية الله: **القاموس الإسلامي**، م 1، ص644.

[2]- شوفا ليه : **المرجع السابق**، ص55.

[3]- **مذكرات خير الدين بربروس** : ترجمة :محمد دراج، ط1،شركة أصالة للنشر والتوزيع، الجزائر،2010،ص10.

[4]- عمار عمورة: **الجزائر بوابة التاريخ**، ج 2،دار المعرفة، الجزائر،2009، ص123.

[5]- مذكرات خير الدين :**المرجع السابق**، ص10.

[6]- أحمد توفيق المدني: **المرجع السابق**، ص122.

[7]- ناصر الدين سعيدوني: «نظرة في التاريخ الموريســـكي للجزائر خلال العهد العثماني » **مجلة سرتا**، العدد3 قسنطينة، 1980، ص81.

ثالثا :الأوضاع السياسية للمغارب خلال القرن16م.

يعتبر القرن 16م بالنسبة للتاريخ المغاربي قرنا محوريا، إذ شهد تحولا كبيرا جدا على جميع المستويات، حيث عرف هذا القرن عدة مجابهات حربية بين أطراف مختلفة، فهو لا شك قرن التحولات الضخمة في الأنظمة السياسية والاتصالات المباشرة والبعثات التي حصلت بين أطرافه عبر البحر المتوسط[1].

وفهمنا للأوضاع السيـــاسية السائدة في تلك الفترة لا يتم إلا بعد تحليل الأبعاد المتعددة للموضوع فهناك مثلا: كتداخل (الدين والسيـــاسة)، (الدين والاقتصاد) (الدين والمجتمع) نظرا لارتباطها الوثيق بالصـــراع الاسباني العثماني وهجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب [2]، خاصة وأن هذه الفترة شهدت تجدد التزاع بين الشرق والغرب الذي أصبح فيما بعد نزاعا بين المسيحية والإسلام، برز بشكل واضح بعد حروب الاستيراد التي تمكن الإسبان على إثرها من القضاء على الكيان الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية بعد سقوط غرناطة سنة 1492[3]، وتمكنهم بذلك من القضاء على دولة الإسلام والمسلمين بالأندلس وصقلية[4].

هذا الصراع امتدت آثاره إلى شمال إفريقيا[5]، حيث تعرضت السواحل إلى هجمات برتغالية واسبانية متكررة انتهت بالاحتلال العسكري للموانئ الرئيسية المغاربية[6]، وقد أتيحت الفرصة للبرتغال في وقت مبكر عن الإسبان لاحتلال بعض الثغور الأطلسية للمغرب الأقصى: مثل احتلال أغادير سنة 1505، آسفي سنة1507، أزمور سنة 1513 بحيث لم

[1]- عبد الجليل التميمي: **دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن 16م**، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس،2009، ص98.

[2]- امحمد بن عبود: «الأندلسـيون وهجراتهم إلى المغـــرب الأقصى خلال القرنين 16و17م » **المجلة التاريخية المغاربية** العدد(55-56) تونس، 1989، ص194.

[3]- محمد العربي الزبيري: **مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث**، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر، ص17.

[4]- عبد الرحمان الجيلالي: **تاريخ الجزائر العام**، ج2، ط8،دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 2008، ص301.

[5]- محمود علي عامر وآخرون: **تاريخ المغرب الحديث (المغرب الأقصى، ليبيا)**، دمشق، ص41.

[6]- محمد العربي الزبيري: **المرجع السابق**، ص 17.

يبق في أيدي المغاربة من الموانئ المهمة على الأطلسي سوى سلا [1] .

وكان النشاط البرتغالي فقد تركز على الساحل الأطلسي مع بداية القرن 16م، خاصة بعد نشاط حركة الكشوفات الجغرافية على السواحل الغربية لإفريقيا [2].

أما الإسبان فقد وجهوا أنظارهم إلى الضفة الجنوبية من البحر المتوسط، وشنوا حملات شرسة على الثغور المغاربية بقيادة دون دييغو ديفيرا Diego de Vera وبيدرو نافارو **Pedro de na varo**، والتي أســـفرت عن احتلال المرسى الكبير عام1505، وهران سنة 1509، بجاية سنة 1510، شرشال سنة 1511 طرابلس سنة1515، ثم تونس سنة1535[3].

وهكذا فمع مطلع القرن 16م كان البرتغاليون والإسبان قد احتلوا العديد من المدن والمراسي الساحلية من المغارب[4]، ونتج عن هذه الأحداث المتلاحقة طرد آلاف المسلمين من الأندلس وتشريدهم إلى مختلف الثغور المغاربية، وهلاك مئات أخرى خلال السفر نظرا لما اقترن بالنفي من المحن والآلام [5] .

وفي هذه الظروف العصيبة، كان المغاربة عاجزين عن صد العدوانين الإسباني والبرتغالي لأسباب عديدة أهمها: ظاهرة الصراع الدائم بين القوى السياسية المنقسمة على نفسها وبين القوى المحلية ذات الطابع القبلي أو الديني، التي عمقت ظاهرة الانحطاط والفوضى السياسية نظرا لغياب دولة مركزية موحدة وقوية معترف بها بالمغارب، وغياب شبه كلي للدفاع عن السواحل التي أصبحت مفتوحة لكل المغامرين [6] .

-1 محمود علي عامر وآخرون : **المرجع السابق**، ص22.

-2 محمد العربي الزبيري: **المرجع السابق**، ص15.

-3 محمود علي عامر وآخرون: **المرجع السابق**، ص82.

-4 محمد العربي الزبيري: **المرجع السابق**، ص15.

-5 محمد بن عبد الله عنان:« سقوط الأندلس وآخر مسلميها» **مجلة الأصالة**، العدد27، مطبعة البعث، قسنطينة 1975، ص110.

-6 عبد الجليل التميمي: **المرجع السابق**، ص99.

عاش المغرب خلال هذه الفترة حالة من الغموض، انتهت سنة 1529 بالنسبة للجزائر وسنة 1574 بالنسبة للمغرب الأقصى وتونس باعتبارها السنة التي تم فيها تأسيس إيالة تونس على يد سنان باشا، وبذلك وضع حد للأطماع الإسبانية. أما بالنسبة للمغرب الأقصى فقد انتقل الحكم في هذه السنة إلى محمد المتوكل، الذي تعتبر فترته تمهيدا لعصر منصور الذهبي الذي زود المغرب الأقصى بنظام إداري محكم [1] .

أما بالنسبة للجزائر فقد تمكن خير الدين من افتكاك حصن البنييون من يد الإسبان سنة1529 بعد فشل أحمد بن القاضي في تحريره[2]، وكان قد استعمله الإسبان كمركز لقيادتهم البحرية يهددون به مدينة الجزائر ويراقبون منه حركة المسلمين في كل الثغور[3]، ويتحكمون في مدخل ومخرج المدينة وتسببوا في شل الأعمال البحرية بها [4] .

وكان الأخوان عرّوج وخير الدين بربروس قد جاءا من مدينة تونس واتخذا من جيجل قاعدة لنشاطهما، وبعد أن تمكنا من تحرير بجاية، بعث إليهما أهل مدينة الجزائر يشكون النصارى ويطلبون نجدتهما بعد أن ذاع صيتهما في الجهاد[5]، لتصبح بذلك مدينة جيجل نقطة ارتكاز لقوات خير الدين للهجوم على الاستحكامات العسكرية الإسبانية بمدينتي بجاية والجزائر خاصة وأن خير الدين[6] قد تلقى دعما كبيرا من السلطان العثماني قدر بحوالي 14سفينة، وأكثر من 100مجدف وكمية معتبرة من الأسلحة. [7]

---

[1]- محمد العربي الزبيري: **المرجع السابق**، ص18 -17.

[2]- عزيز سامح إلتر: **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية**، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت ص50.

[3]- محمود علي عامر وآخرون : **المرجع السابق**، ص 83.

[4]- عزيز سامح إلتر:؛ **المرجع السابق**، ص50.

[5]- ابن رقية التلمساني : **الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة**، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية رقم2603، ص2 -3.

[6]- اشتهر خير الدين باشا باسم بربروس أي ذي اللحية الحمراء وكذلك بفتوحاته في بلاد المغرب .**راجع**: فريد بك المحامي، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، مكتبة الآداب، القاهرة 2009،ص 95.

[7]- خليفة حماش : **العلاقة بين الجزائر والباب العالي**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، كلية الآداب، مصر، 1988، ص 26 .

وكانت مدينة الجزائر قد استقل بها الثعالبة وعيّنوا سالم التومي ملكا عليهم الذي أبدى ولاء للإسبان، وتعهد للملك الإسباني فيرناندو بدفع غرامة سنوية والسماح لبيدرو نافارو بإنشاء حصن البنيون فوق إحدى جزر مدينة الجزائر على بعد 300متر من باب البحر، ومن هذا الحصن ظل الإسبان يهددون سكان مدينة الجزائر[1]، فرفض السكان ذلك واستنجدوا بعروج فأرسلوا إليه رسالة يلتمســـون فيها مســـاعدتهم وتخليصهم من الإسبان، وكتبوا له عهدا بالسمـــاح له بالإقامة في مدينة الجزائر[2]، وفرض سيطرته على المدينة سنة1516[3] بعدما ألحق هزيمة كبيرة بالإسبان[4]، وبعدما تم له فتح الجزائر بعث إليه السلطان العثماني بالخلعة ومنشور التولية على الجزائر وبلادها [5]، لتتعرض بعدها مدينة الجزائر إلى حملتين بحريتين اسبانيتين؛ أما الحملة الأولى فكانت سنة 1516 بقيادة دييغو دي ديفيرا Diego de Vera لقيت هزيمة نكراء على يد عروج، الذي استعد بشكل جيد مع الأتراك العثمانيين والمهاجرين الأندلسيين والأهالي والقبائل لمواجهة الإنزال الإسباني بميناء الجزائر في سبتمبر 1516، فلم تستطع القوات الإسبانية الهائلة الصمود أمام هجماته، فأصدر قائد الحملة أمرا بالانسحاب[6].

أما الحملة الثانية سنة 1519 فكانت بقيادة كونزالفو ماري نودي ربيرا، لقيت هزيمة من قوات خير الدين، وقد تحدث الوزان عن تفاصيل الحملتين قائلا: «... لقد عزم الإمبراطور كارلوس الخامس مرتين... على الاستيلاء على مدينة الجزائر، وأرسل في سنتين مختلفتين أسطولا للإغارة على المدينة فهزم الأول وغرق معظمه في المرسى، واستطاع الثاني أن يترل

---

[1]- عبد القادر حليمي: **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830**، ص 163.

[2]- عزيز سامح ألتر: **المرجع نفسه**، ص 50.

[3]- الوزان: **المصدر السابق**، ج2، ص166.

[4]- محمد العروسي المطوي : **السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1980.

[5]- محمد بن عبد القادر الجزائري :**تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**، شرح وتعليق : ممدوح حقي،ج1+2 ط2،دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، ص92.

[6]- **المرجع نفسه**، ص50.

الجنود إلى البر ...إلا أنهم غلبوا فقتل بعضهم وأسر البعض الآخر، فأصبحوا عبيدا لبربروس...»[1]، لتدخل الجزائر تحت الحماية العثمانية سنة1519مقابل ضريبة سنوية تدفعها إلى الباب العالي، وذلك بناء على رسالة بعث بها أهالي مدينة الجزائر للسلطان سليم الأول سنة 1519[2].

ومع بداية شهر ماي سنة 1529 بدأ خير الدين بالهجوم على الحصن، ونصب مدفعين مقابلين للجزر وقصف الحصن بعنف لمدة عشرين يوما دون انقطاع، وألحق أضرارا كبيرة به، وفي يوم الجمعة 27 ماي تمكن من إحداث فتحة ملائمة بالحصن وبدأ بالهجوم من جميع الجهات مرة واحدة بخمسة وأربعين سفينة مملوءة بالمحاربين، وبعد صراع دام يوم واحد تمكن من السيطرة على الحصن ثم قام بتوسيعه عن طريق إنشاء رصيف يربط بين الجزر الصـــغيرة والمدينة مشكلا حوضا للسفن، وبذلك أصبـــح لسفن القراصنة ملجأ تتخبأ به وتحتمي به من العواصف[3]، حيث يعـــتبر هذا الحـــدث (طرد الإسبان من حصن البنييون سنة 1529هو التاريخ الفعلي لتأسيس إيالة الجزائر.

وبذلك أصبحت مدينة الجزائر قوة بحرية فاعلة في البحر المتوسط، والملجأ المفضل للقراصنة المغاربة[4]، حيث برزت مدينة الجزائر كقوة بحرية جديدة نمت في وقت قصير وبرهنت بقوتها القتالية على أنها الحربة التي ستواجه أي قوة معادية في البحر المتوسط[5]، وقد وصف الوزان شجاعة وبأس أهالي مدينة الجزائر قائلا:«...وبعد أن سلحوا سفنا تحولوا إلى قراصنة، فصاروا يغيرون على جزر يابسة وميورقة ومنورقة حتى على شواطئ اسبانيا...»[6] أما التمكروتي فقد فضل بحارتها على زملائهم في القسطنطينية قائلا :«...ورياس الجزائر

---

[1]- الوزان: **المصدر السابق**،ج2، ص168.

[2]- عبد القادر حليمي: **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830**، ص216.

[3]- H- D De Grammont : **Histoire d΄ Alger sous la dominations turque (1515–1830)** , présentation : Lemnouar Merouche, Édition Bouchene, 2002,p52.

[4]- **Ibid**. P52.

[5]- يامنة درياس: **السكة الجزائرية في العهد العثماني**، ط1 ،دار الحضارة للطباعة والتوزيع، ،2007، ص207.

[6]- الوزان: **المصدر السابق**، ج2، ص38.

موصوفون بالشجاعة وبقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر يقهرون النصارى في عقر ديارهم، فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير، وأعظم هيبة وأكثر رعبا في قلوب العدو...»[1].

وأصبحت الجزائر "المدينة الدولة" حاملة للواء الجهاد في الحوض الغربي للبحر المتوسط فهي في الكتابات المحلية "المدينة المحروسة"[2]، أما الكتابات الأوروبية فصورتها على أنها "عش القراصنة" الذي ألقى الرعب في قلوب الضفة الأخرى للمتوسط[3]، وارتبط اسمها بتعبير بارباريا وكذلك باقي المغارب[4] على اعتبار أن الرعب "البارباريسكي" المغاربي قد تزايد بشكل أسطوري منذ مطلع القرن16[5].

وقد اشتدت شوكة المدينة بعد تزايد الهجرات الأندلسية إليها؛ بحيث شكل الثغاريون عنصرا مهما في عمليات الغزو البحري، وبذلك فإن الاستراتيجية البحرية للعثمانيين هي المسؤولة في المقام الأول عن بروز المدينة كمركز قيادي للجهاد البحري، فقد عملوا على كسب ولاء البحارة المسلمين من جميع أطراف البحر المتوسط، ومن خلال تدخل عقيدة الجهاد فإن عمليات الغزو البحري قد اصطبغت بالطابع الشرعي، وبذلك فقد زوّد الإخوة بربروس المدينة بمؤسسة جاهزة للقرصنة[6]، نشأت خلايا وقواعدها الخلفية بمدينة الجزائر لتنتقل العدوى لاحقا إلى مواقع أخرى كوهران، جيجل، تونس، سلا والرباط[7]، فبعد أن

---

[1]- التمكروتي : **المصدر السابق**، ص46.

[2]- أحمد بن عمار :**نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب**، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 2757،ص39.

[3]- رجاء رهيوي: **دايات الجزائر صور وأبعاد (1671-1830)**،مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الأمير عبد القادر(2001-2002)، ص01.

[4]- زكريا العابد : **الجزائر في العهد العثماني من خلال رحلات أوربية**، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2007 ص72.

[5]- رجاء رهيوي :**المرجع السابق**، ص01.

[6]-وليام سبنسر : **الجــزائر في عهد رياس البــحر**، تعريب، عبد القــادر زبادية، دار القــصبة للنشر، الجــزائر، 2006، ص10-11.

[7]- عبد الله ركيبي: **الجزائر في عيون الرحالة الانجليز**، ج 2، دار الحكمة، القاهرة، 1958، ص202.

ذاع صيت بربروس عن جرأته في نقل أعداد كبيرة من مسلمي الأندلس وإنقادهم من يد الإسبان واستنجدت به بقية الثغور المغاربية لتحريرها من الإسبان [1] .

ومن هذا المنطلق أصبحت مدينة الجزائر وبشكل سريع احد الثوابت في استراتيجية التحرك العسكري والسياسي الجديد للدولة العثمانية في المغارب[2]، وربما يعود ذلك للاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي اللذان عرفتهما مدينة الجزائر منذ انتصاب الحكم العثماني بها في الربع الأول من القرن16م، والذي شجع أعدادا ضخمة من مهاجري الأندلس على الاستقرار بها على اعتبار أن الأندلسيين شكلوا قوة بحرية جديدة في الفضاء الجيوسياسي في الحوض الغربي للبحر المتوسط، في محاولة لوضع حد للهيمنة الاسبانية والهجمات المتكررة التي كانوا يعتبرونها تهديدا لهم[3]، في حين أن تدهور أوضاع تونـــس أواخر العهد الحـــفصي وما صاحبه من تدخلات اسبانية من سنة 1535إلى سنة1574 لم يساعد على استقطاب المهاجرين الأندلسيين، إلا بعد استقرار الحكم العثماني بها في عهد عثمان داي أواخر القرن16م وأوائل القرن17م، فقد وصف لنا الوزان الانحطاط الذي وصل إليه ملوك تونس المتأخرين بقوله: «...فلابد أن أقول بأن هذا الملك باع في استخلاص المـــال من رعاياه، حيث يعيش كلها مجون وخلاعة.. » [4].

ونظرا للأهمية الاستراتيجية لتونس وعلى الخصـــوص قلعة حلق الوادي لكل التحركات العثمانية[5]، فقد استولى عليها الأتراك العثمانيون سنة 1529 لكن استنجـــاد الملك الحفصي (الحسن بن أبي عبد الله) بملك اسبانيا (شارل الخامس) الذي أعـــد قوة ضخمة قادها بنفسه ودخل تونس سنة 1535، ونصب الحسن الحـــفصي على كرسي الحكم من جديد ـــ 1535[6].

---

[1]- محمود علي عامر وآخرون : **المرجع السابق**، ص96.

[2]- عبد الجليل التميمي: **المرجع السابق**، ص101.

[3]- **المرجع نفسه**، ص119.

[4]- الوزان: **المصدر السابق**، ج2، ص81.

[5]- عبد الجليل التميمي: **المرجع السابق**، ص56.

[6]- محمود علي عامر وآخرون، **المرجع السابق**،ص85.

وقد أكد هذا الوضع هشاشة الموقع العسكري العثماني بتونس، إذا ما قورن ذلك بالأطماع الإسبانية بها وبالفضاءات المجاورة، وأدرك الباب العالي أهمية الفضاء المغاربي في الرهانات المستقبلية بالبحر المتوسط، والعمل على عثمنته والحيلولة دون الهيمنة الإسبانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط انطلاقا من مدينة الجزائر.

وإذا كانت الاستراتيجية الإسبانية قائمة على الاهتمام بالساحل التونسي وعلى الخصوص قلعة حلق الوادي التي قاموا لتحصينها، وكذا العمل على تصفية ولاية الجزائر الخطيرة على أمن السواحل والبواخر الإسبانية انطلاقا من حلق الوادي[1]، فإن الأتراك العثمانيين قد حاولوا كسر شوكة الإسبان بالحوض الغربي للبحر المتوسط ذلك بتنصيب الحكم العثماني في طرابلس سنة1551، وبذلك تمكنوا من حصار الإسبان في تونس.

كما حاول الأتراك العثمانيون ضم المغرب الأقصى إلى المدار العثماني، خاصة وأن السياسة الوطاسية في النصف الأول من القرن 16م كانت قائمة على مهادنة البرتغاليين والإسبان، بل تعدت إلى تهميش العنصر الأندلسي الوافد إلى المغرب الأقصى وعدم استخدامه في المخزن، فتحول الأندلسيون إلى قوة معارضة خطرة قاعدة على الإسبان ناقمة على الوطاسيين واعتصموا في قصبة سلا بقيادة الدكالي واتخذوها قاعدة للجهاد البحري[2]، وقد تحدث عن ذلك مارمول بقوله: «... ومن هناك تجهز سفن حربية للقيام بالقرصنة في الشـــــواطئ المسيحية منذ التجأ إليها موريسكي من غرناطة يدعى الدكالي[3] ... »[4].

وهذا ما يفسر أن المغرب الأقصى خلال القرن 16م لم يعرف هجرة جماعية للأندلسيين تماثل ما حدث بالجزائر، بالرغم من عـــلاقاته التاريخية وصـــلاته البشرية وقربه

---

[1]- عبد الجليل التميمي، **المرجع السابق**،ص72.

[2]- محمود علي عامر وآخرون، **المرجع السابق**، ص31.

[3]- سعيد الدكالي قائد القوات الأندلسية بسلا. راجع عبد الرحيم بن حادة وآخرون : **العثمانيون في المغارب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطية**، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2005 ، ص25.

[4]- مارمول، **المصدر السابق**، ص135.

الجغرافي من الأندلس[1].

ويبدو أن الأتراك العثمانيين قد عرفوا كيف يستغلون الصراع الوطاسي السعدي على السلطة ليوطدوا نفوذهم بالمغرب الأقصى تمهيدا لضمه، وتبدو محاولات الأتراك العثمانيين جلية سواء من خلال محاولة احتواء قراصنة سلا، وإيفاد إمدادات إلى بعض الثغور المغربية، حيث تشير بعض الوثائق إلى وصول ثلاث وعشرون سفينة بقيادة باشا الجزائر إلى الحسيمة سنة1522[2]، أو من خلال توجيه حملات عسكرية على فاس كحملة صالح رايس على فاس سنة1554، وظاهر هذه الحملة هو الاستجابة لطلب أبو حسونة الوطاسي المخلوع، ولكنها في الواقع تهدف إلى تثبيت الوجود العثماني في المنطقة، وقد اقترح صالح رايس على السلطان العثماني أن أربعين إلى خمسين سفينة وستة آلاف انكشاري كافية لأن تسيطر الدولة العثمانية على كل البلاد المغربية وتحرير الثغور المحتلة[3]، إلا أن جهود العثمانيين باءت بفشل ذريع وصفه القشتالي بقوله: « ... وكان زحف صالح رايس الآتي من الجزائر بجنود الأتراك مع مستنفرهم أبو حسون المريني علي حين كان الغمام منفردا فيه عند جنوده وأنصار دولته، وعندما التقى الجمعان بكدية المخالي من ساحة فاس ودارت رحى الحرب....فزحزح الأتراك عن مركزهم واستولى على مدفعهم... »[4].

وبالرغم من فشل الحملة، إلا أنها أثارت مخاوف حكام الثغور الإسبانية من أي تحرك تركي في المنطقة من شأنه أن يهدد المصالح البرتغالية والإسبانية على السواحل الأطلسية والمتوسطية، وسعت إسبانيا والبرتغال إلى إجراء اتصالات مع الشريف السعدي محاولة الوصول إلى اتفاق معه وتشجيعه على مواصلة الحرب ضد الأتراك[5]، ويبدو أن بعض

---

[1]- ناصر الدين سعيد وني، **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر(العهد العثماني)**، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984، ص127

[2]- عبد الرحيم بن حادة وآخرون، **المرجع السابق** ، ص109.

[3]- **المرجع نفسه**،ص16.

[4]- أبو فارس عبد العزيز بن محمد القشتالي: **مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا**، تحقيق: عبد الله كنون،ج 2، المطبعة المهدية، تطوان 1964، ص109.

[5]- عبد الرحيم بن حادة وآخرون :**المرجع السابق**،ص19.

السلاطين السعديين قد فضلوا التعاون مع الإسبان على الخضوع للأتراك العثمانيين واعتبروا نفسهم أحق بالخلافة على المسلمين من الأتراك، وحسب الزياني فإن الأمر قد وصل بهم إلى تسليم بعض الثغور المغربية للإسبان حيث أورد : « ... واستولوا (يقصد الإنسان) على حجر بادس بالريف عام 964هـــ، فهي في أيديهم إلى الآن، وسبب ذلك أن السلطان عبد الله الغالب السعدي لما تولى الملك ...ورأى مراكب الجزائر لا ينقطعون عن مرساها، تخوف منهم واتفق مع الطاغية أن يعطي له حجر بادس، فينقطع بذلك مدد الأتراك ففعل ودخلوها...»[1].

بالرغم من فشل مساعي الأتراك العثمانيين في ضم المغرب الأقصى، وتحرير تونس من الاحتلال الاسباني مع منتصف القرن 16م، فإن إصرار الدولة العثمانية على الدفاع عن هذا الفضاء المغاربي قد أصبح جزءا من استراتيجية التحرك العثماني للحفاظ على الوحدة الجغرافية للإمبراطورية العثمانية[2] إذ مكنها من تنصيب الحكم العثماني في طرابلس سنة1551 كما سبقت الإشارة، وبالتالي محاصرة الإسبان في تونس بين الجزائر وطرابلس العثمانيتين، كلها عوامل سمحت بنجاح الاحتواء العثماني لتونس وحلق الوادي من طرف بايلرباي الجزائر علج علي باشا سنة 1569.

غير أن الإسبان كانوا مدركين أهمية حلق الوادي في الاستراتيجية العسكرية للقضاء على النفوذ العثماني في شمال إفريقيا، ومن هذا المنطلق عاود دون خوان دتريش احتلال تونس وحلق الوادي في أكتوبر سنة 1573 مدفوعا بالغرور بعد انتصاره على علج علي في ليبانيت في أكتوبر سنة 1571، فاتفق مع بني حفص في تونس وأشراف فاس وشيخ بني عباس على مهاجمة الأتراك العثمانيين وطردهم من الشمال الإفريقي .

أما شيخ بني عباس فقد أعلن عصيانه وتمرده وحاول احتلال مدينة الجزائر، أما حاكم فاس فقد استعد لمهاجمة تلمسان، في حين تآمر بني حفص مع الإسبان ضد الأتراك

---

[1] محمد بن يوسف الزياني: **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، تحقيق :ا لمهدي البو عبدلي، لشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص145 .

[2] عزيز سامح التر: **المرجع السابق**، ص245.

العثمانيين[1]، هذه التداعيات دفعت الباب العالي إلى التحرك السريع لإعداد حملة بحرية لاسترجاع تونس وحلق الوادي[2]، وتوجيه الأوامر إلى أمراء شمال إفريقيا تطالبهم بالاستعداد للحرب، وكذلك دعوة كل المسؤولين على اختلاف درجاتهم بالجزائر، تونس، طرابلس وكوكو وزوارة للمســـاهمة في الاستعدادات للحملة، وهذا ما يترجم أن الاستراتيجية العثمانية لم تهمل أية قوة سياسية أو دينية للمساهمة الفعالة في هذا الحدث[3].

وفي شهر سبتمبر سنة 1574 تمكن الأسطول العثماني بقيادة سنان باشا وعلج علي باشا من فتح مدينة تونس من جديد، بعد حصار اشترك فيه أمير أمراء الجزائر رمضان باشا وأمير أمراء طرابلس الغرب مصطفى باشا إضافة إلى حيدر باشا، لتندمج تونس كلية وبشكل نهائي في المدار العثماني.

وفي الوقت الذي كان فيه الأتراك العثمانيون منشغلين بالحرب في تونس، كان الفاسيون يلاحقون الأندلسيين ومؤيديهم من المرابطين بغيبة القضاء عليهم بدلا من تقديم المساعدة لهم.

وبناء على ذلك سعى الأتراك العثمانيون إلى تنصيب نظام موالي لهم بالمغرب الأقصى تمهيدا لضمه، خاصة بعد نجاحهم في إدماج كل من الجزائر، طرابلس وتونس في المدار العثماني، و لم يبق إلا المغرب الشريفي[4].

وتتضح نوايا الأتراك في ذلك من خلال شن حملة ثانية على فاس سنة 1576 بقيادة رمضان باشا، انتهت بتنصيب الأمير السعدي اللاجئ للأتراك عبد المالك حاكما على فاس[5]، وكان الإسبان يخشون ألا يقف الأتراك العثمانيون عند فاس وأن يتطلعوا للسيطرة على الثغور الأطلسية المحتلة.

---

[1]- عبد الجليل التميمي :**المرجع السابق**، ص57.

[2]- عزيز سامح التر : **المرجع السابق**، ص 246 .

[3]- عبد الرحيم بن حادة وآخرون: **المرجع السابق**، ص19.

[4]- عزيز سامح التر، **المرجع السابق**،ص249.

[5]- عبد الرحيم بن حادة وآخرون، **المرجع السابق**، ص25.

وتتضح هذه المخاوف من خلال تقرير وصل إلى الملك الإسباني في 25 جويلية سنة 1576 يشير إلى وصول حوالي ألف تركي على متن سفن إلى مدينة سلا، وذلك لدعم صفوف عبد الملك كما يشير إلى أن عبد الملك أرسل إلى الجزائر واسطنبول ليخبر بالنصر وليطلب إيفاد خمسين سفينة إلى مدينة سلا والعرايش، كما نصحه بذلك سعيد الدكالي قائد القوات الأندلسية بسلا [1] .

وبذلك فإن أولى خلايا الجهاد البحري بالمغرب الأقصى قد تشكلت بمدينة سلا، والتي تلقت دعما كبيرا من الأتراك العثمانيين وبعض السلاطين السعديين، فصارت سلا مركزا للأساطيل الجهادية السعدية وقد أشار إلى ذلك القشتالي بقوله:«..وأما ماله أيده الله (أبي العباس المنصور) من المآثر الشريفة في الجهاد ..اتخاذ الأسطول برباط سلا أمنه الله، فتعددت مراكبه، وعقد رياسته لرجل من أهل المغرب يدعى إبراهيم الشط، ورأى أيده الله أن يقلده قيادة الأسطول ويقضي به لوظيفته الجهادية دينه ويسند إليه رياسة القطاع والشواني ... ويممه قائد على العمارة البحرية والقطائع الجهادية... وهو أيده الله لهذا العهد بصدد الاستكثار من الأساطيل رغبة في الجهاد والاستظهار على عدو الدين قوى الأسر بحمد الله وافر العدد والمدد.. » [2]، لتتحول مدينة سلا إلى إحدى أهم قلاع الجهاد البحري في المغارب .

غير أن الغزو البحري المغاربي قد زادت وتيرته بمدينة سلا وغيرها من المراكز الجهادية في المغارب، بعد قرار الطرد الجماعي الذي أصدره الملك الإسباني فليب الثالث سنة 1609 ونزوح أكثر من ثلاث مئة ألف أندلسي إلى الثغور المغاربية [3]، على رأسها مدن الجزائر، تونس وسلا التي استقبلت أكبر عدد منهم الأمر الذي جعل من المدن الثلاث مراكز أساسية للجهاد البحري.

-1 **المرجع نفسه**، ص27.

-2 القشتالي: **المصدر السابق**، ج2،ص245.

-3 ناصر الدين سعيدوني، **المرجع السابق**، ص85.

الفصل الأول:

الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية بالمدن الثلاث خلال القرنين 17و18م

أولا :الأوضاع السياسية.

ثانيا: الأوضاع الاجــتماعية.

ثالثا :الأوضاع الاقتصادية.

لقد تأثرت الأوضاع السياسية، الاجتماعية والاقتصادية للمغارب خلال القرنين 17 و18م باستمرار العداء مع مماليك الدول الأوربية بفعل التجاذب السلبي المشحون بروح الصراع الديني المتزامن مع تعاظم قوى العالم المسيحي ماديا وسياسيا. كما أحدث التدفق الأندلسي إلى المغارب عقب صدور قرار الطرد الجماعي سنة 1609 تغيرا جذريا في البناء الاجتماعي السياسي والاقتصادي بالمدن التي استوطنوا بها كالجزائر وتونس وسلا، وظهرت ثمار الوجود الأندلسي من خلال ازدهار الجهاد البحري الذي غذى بدوره أنشطة اقتصادية أخرى بهذه المدن، وأصبح هذا النشاط القضية التي شكلت محور العلاقات المغاربية العثمانية من جهة والصلات المغاربية الأوربية من جهة أخرى، وبالرغم من أن الجهاد البحري قد عمق روح العداء مع العالم المسيحي فقد خلف رخاء اقتصاديا وتعددا عرقيا بمراكزه الأساسية، كما فرض على هذه المراكز التكيف مع مقتضيات الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الجديدة وذلك من خلال خلق صلات متعددة بين هذه المراكز الجهادية.

أوّلا :الأوضاع السياسية بالمدن الثلاث خلال القرنين17 و18م

1- الأوضاع السياسية بمدينة الجزائر:

لقد جعل الأتراك العثمانيون من مدينة الجزائر خلال القرن 16م عاصمة للمغارب(ماعدا المغرب الأقصى)؛ والفضل في ذلك يعود إلى الإخوة بربروس وعلج علي الذين عملوا على تجسيد فكرة الجزائر القطرية[1]، وبعد قرار السلطان العثماني بفصل النيابات العثمانية في المغارب سنة 1587 أصبحت المدينة قاعدة لبلاد الجزائر، أما فيما يتعلق بنظام الحكم الإداري، فقد كانت حكومتهم بمثابة المدينة الدولة بالمعنى الدقيق لهذا المصطلح، لذلك جهزت المدينة بكل مؤسسات الحكم[2] كمقر الحكومة والسلطة الإدارية المركزية أو ما يعرف بدار الإمارة[3]، فقد كان حجر الزاوية في الإدارة العثـــمانية بمدينة الجزائر هو الأوجـــاق

[1] أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج4، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ص190.

[2] وليام سبنسر: **المرجع السابق**، ص65.

[3] عبد القادر حليمي: **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل1830**، ص150.

الذين سيطروا بشكل مطلق على الـــديوان الذي مثل السلطة الفعلية بالمدينة، وكانت هيئة القرصان هي الوحيدة القادرة على معارضته باعتبارها القوة النافذة في حكومة الجزائر التي طالما عرفت صراعا محتدما بين الطائفتين[1]، أما الفئات الأخرى من أهالي مدينة الجزائر فقد أقصيت تماما من المشاركة السياسية بما في ذلك فئة الكراغلة، وهو ما يفسر الخلاف الدائم بينها وبين الانكشارية[2].

ويضم جهاز الحكم إضافة إلى أعضـــاء الديوان مجموعة من الموظفين السامين الذين يترأسهم الداي كالكاهية ، بيت المالجي، الخزناجي، أغا العرب، قـــائد فرق الانكشارية والصبايحية المعسكرة خارج مدينة الجزائر، إضـــافة إلى وكيل الخرج الذي يشرف على الشؤون الخارجية والعلاقات الدولية، ويخضع لأوامر هؤلاء الموظفين السامين كتاب الدولة، موظفي الخدمات الاجتماعية والاقتصادية، شيخ البلد، المحتسب، جماعة الخوجات، كخوجة القصر خوجة الجمارك، خوجة الغنائم وخوجات أبواب المدينة[3]...الخ.

وقد قسم إقليم مدينة الجزائر إداريا إلى قسمين هما :مشيخات المدينة وأوطان السهل المتيجي، أما أوطان السهل المتيجي فتتمثـــل: في وطن الخشنـــة، وطن بني مســـوس، بني خليل السبت، وطـــن بني جعد ووطن يسر، ويشرف على كل وطن قايد.

أما مشيخات المدينة فهي: بوزريعة، بني مسوس، زواوة، عين الزبوجة، بئر خادم، القبة الحامة والقصبة، ويشرف على السكان الحضر إداريا الحاكم الذي ترجع إليه أمور الكاهية (رئيس الشرطة)، فهو يشرف على الأمن العام في المدينة وأقسامها [4] بمساعدة المزوار

1- وليام سبنسر: **المرجع السابق**، ص67-68.

2- عزيز سامح التر: **المرجع السابق**، ص309.

3- ناصر الدين سعيدوني: **النظـــام المالي للـــجزائر في العهد العثماني (1800-1830)**، الشـــركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1979، ص27.

4- عبد القادر حليمي: **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830**، ص275.

الذي يقوم بحملة مراقبة يومية لكل ما يحدث بالمدينة[1]، ويشرف على الأسواق المحتسبون، أما قضاء المدينة فيتولاه قاضيان أحدهما تركي حنفي والآخر قاضي مالكي[2].

وقد مرت السلطة العليا بمدينة الجزائر خلال القرنين (17- 18م) بثلاثة مراحل أساسية هي مرحلة الباشوات (1587-1659)، مرحلة الأغاوات (1659-1671)، وأخيرا مرحلة الدايات ابتداء من سنة 1671 إلى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830[3]، وقد عكست هذه المراحل صراعات سياسية متعددة الأوجه، كالصراع بين طائفتي الانكشارية ورياس البحر على السلطة، وكذا محاولة ولاة الجزائر تأسيس حكومة محلية ذات حكم ذاتي شبه مستقل عن الباب العالي على غرار حكومتي تونس وسلا، إضافة إلى حركات التمرد التي قامت بها طائفة الكراغلة الطامحة للوصول الى السلطة على غرار نظيرتها في تونس.

وقد تم إقرار نظام الباشوات في الجزائر بعد قرار السلطان العثماني بإلغاء منصب البايلرباي بعد وفاة علج علي سنة 1587، وأنشأ بدلا منه ثلاث إيالات في شمال إفريقيا هي: الجزائر، تونس وطرابلس، وعين على رأس كل إيالة باشا [4]، وذلك خوفا من استقلال حكام مدينة الجزائر بالمنطقة خاصة وأن شوكة هذه المدينة قد قويت وأصبحت تتحكم بالأمور في الحوض الغربي للبحر المتوسط، غير أن هذا التقسيم الجديد خلق صـــراعات عديدة بين النـــيابات العثمانية الثـــلاث، نظرا لاستمرار الجزائر في محاولة فرض نفوذها

---

[1] - T. Shaw: **Voyage dans la régence d Alger (description géographique physique, philologique, etc de cet État)** traduit de l’anglais, J. Mac Carthy, chez Merlin édition, Paris, 1830, p.175

[2] - محمد العربي الزبيري: **التجارة الخارجية للشرق الجزائري**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص22.

[3] - **مذكرات أحمد شريف الزهار(1754-1830)**، تحقيق:أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص38-42.

[4] - جون أولف: **الجزائر وأوروبا (1500-1830)** ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار المعرفة، الجزائر 2009، ص135.

على إيالتي تونس وطرابلس[1] وقد تميزت مرحلة الباشوات (1587-1659) بسيطرة الباشا على امتيازات عديدة فقد كان له الحق في الحصول على سهم من الغنائم، وكذا مراقبة المداخيل المالية باعتباره ممثل للسلطان ونظرا لقصر مدة حكمه، فقد كان من المستحيل أن يفهم تعقيدات الحياة السياسية والاجتماعية بمدينة الجزائر[2]، ومن هذا المنطلق فإن هؤلاء الباشوات لم يفكروا إلا في جمع الثروة والعودة من حيث أتوا[3]، الأمر الذي أسفر عن ثورة السكان بمدينة الجزائر سنة 1659 ووصول الأغاوات إلى الحكم والذين تميزت مدة حكمهم بالقصر والمقدرة بشهرين[4]. وقد زاد الوضع تفاقما في الستينات من القرن 17م، الذي شهد ظهور انتفاضات وثورات ضد دفع الضرائب وعجز الأغاوات عن إيجاد حل سياسي، وقد هددت هذه الأزمة مصالح رياس البحر الذين لجأوا إلى الثورة 1671[5]، وعلى إثر ذلك تسلمت طائفة الرياس السلطة وغيرت شكل الحكومة بعد انتخابها دايا مدى الحياة [6]، وأصبحت الجزائر شبه مستقلة عن الباب العالي كما أن الديوان الذي يرأسه الكـــاهية أصبح مجرد هيئة تقليدية ملزمة بقبول قرارات الداي ومساعديه من الموظفين السامين، بعد أن كان هذا المجلس صاحب اليد الطولى في تسيير شؤون الحكم خلال القرن 17م[7]، أما الداي فيعين بالجزائر حيث يجتمع أغا العسكر وكافة أعضاء الديوان المفتين، القضاة، نقيب الأشراف وأعيان المدينة بالإمارة لمبايعة الداي الجديد، وأصبحت صلاحيـــات الباب العالي لا تتعـــدى التصديق على فرمان التولية عند انتخاب كل داي، بل وأكثر من ذلك أصبح هؤلاء الدايات يوقعون المعاهدات مع الدول الأجنبية مباشرة دون

1- عزيز سامح التر: **المرجع السابق،** ص353.

2- Jeronimo Conestaggio: **Relation des préparatifs fait pour surprendre Alger,** Traduit de l italien par:H.D de Grammont, Adolphe Jourdon libraire éditeur Alger, 1882, p10.

3- جون اولف: **المرجع السابق،** ص135.

4- يامنة درياس: **المرجع السابق،** ص11.

5- السايح فيلالي: **العلاقات السياسية الجزائرية التونسية (1792-1837)**، أطروحة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة (1997-1998)، ص3.

6- يامنة درياس: **المرجع السابق،** ص13.

7- ناصر الدين سعيد وني: **النظام المالي للجزائر في العهد العثماني (1800- 1830)**، ص27.

الرجوع إلى الباب العالي، وهذا ما يؤكد استقلالية الجزائر في تسيير شؤون البلاد[1].

وقد صاحب هذا التطور في الكيان السياسي للجزائر من التبعية إلى الانفصال تغير في مكانة الجزائر، فتحولت من واجهت الصراع البحري للدولة العثمانية في مواجهتها العالم المسيحي كإقليم تخوم، وولاية حدودية تحافظ على التوازن الدولي بغرب المتوسط، إلى قوة محلية مؤثرة في غرب المتوسط، وفي هذا الإطار العام تكونت وتطورت علاقة الكيان السياسي بالجزائر مع الدول الأوربية[2]، وأصبحت في هذه الفترة أقل اهتماما بالقرصنة، إذ مع تطور الأنشطة البحرية عن طريق الشرق المعني أساسا بتجارة التوابل، أصبحت الدول الأوربية أكثر تركيزا واهتماما بتأمين سلامة وأمن طرقها البحرية، وعليه قام القناصل ووسطاء الدول العظمى وخاصة جنوه، ليفورنه، مرسيليا، هولندا، الدول الإسكندنافية والولايات المتحدة الأمريكية بالإقامة في مدينة الجزائر لإجراء محادثات مع السلطة للحصول على امتيازات لحماية تجارتهم اعتمادا على وساطة يهود الجزائر[3]، غير أن البحارة الجزائريين كثيرا ما كانوا يخترقون هذه المعاهدات التي تعكس إرادة الحكومة القائمة [4] على مهادنة القوى الأوربية التي أصبحت تملك أساطيل بحرية قوية قادرة على حماية تجارتها بفضل التحولات الاقتصادية التي عرفتها القارة، قد تحدث عن ذلك أحمد بن سحنون الراشدي بقوله:« ... إن أهل الجزائر لا تزال أساطيلهم تغزوا في البحر حتى ضيقوا على الكفرة عريضة، ومنعوهم من سلوكه ...» [5]، وهذا ما جعل مدينة الجزائر تتعرض لهجمات عنيفة من القوى الأوربية البحرية المتضررة من اعتداءات البحارة الجزائريين كفرنسا، اسبانيا وانجلترا وذلك طيلة القرنيين (17- 18م)، وأشهر الحملات التي شنت على مدينة الجزائر حملة لويس الرابع عشر سنة1682، إضافة إلى حملة أوريلي على المدينة

---

1 - **مذكرات أحمد الشريف الزهّار** ، ص17.

2 - ناصر الدين سعيد وني: **الجزائر منطلقات وآفاق**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2000، ص169.

3 - عبد الجليل التميمي: **المرجع السابق**، ص170 .

4 - Dan:**op.cit**. p130

5 - ابن سحنون الراشدي: **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تحقيق:المهدي البو عبدلي، مطبعة البعث قسنطينة 1973، ص 252 .

سنة 1775[1]، فقد تحدثت المصادر التراثية عن هذه الحملات الشرسة على المدينة حيث أورد الرحالة المغربي ابن زاكور الفاسي في هذا الصدد : «...والتي غص ببهجتها كل عدو كافر، فلذلك يتربصون بها الدوائر، في الموارد والمصادر ويرسلون عليها صواعق لم تعهد الزمن الغابر...» [2]، أما ابن سحنون الراشدي فقد أورد :«...هي اليوم قاعدة ملك الأمراء العثمانيين في المغرب الأوسط ...بحيث لا ينال ولا يطمع في أخذها إلا من يطمع في المحال جعلها الله شجى حلوق النصارى وقذى في عيونهم..... يريدون التوصل إليها والاستيلاء عليها فلم يحقق الله رجاءهم، بل ردهم كل مرة مفلولين مقهورين مذلولين...» [3] .

ومن هذا المنطلق عاشت الجزائر في أواخر عهد الدايات ظروفا سياسية غير مستقرة؛ إذ اتسع الشرخ بين الحاكم والمحكوم بتهميش الكراغلة رغم أنهم من نسل الأتراك ، والضغط على الأهالي بسياسة جبائية ظالمة خاصة بعد تراجع الجهاد البحري. وبالرغم من الفتن الداخلية التي عاشتها مدينة الجزائر وكذا الضغوطات السياسية العسكرية الخارجية طيلة قرنيين كاملين، فإن القرن 17م قد مثّل العصر الذهبي للجهاد البحري بالمدينة، حيث برزت كقوة سياسية وعسكرية لها هيبتها في البحر المتوسط حتى أنها سميت بجلادة المسيحية. أما القرن 18 م فقد مثّل المرحلة التي تشكلت فيها معالم الدولة الجزائرية بالمفهوم القانوني الحديث.

2- الأوضاع السياسية بمدينة تونس:

لقد كانت مدينة تونس مسرحا للصراعات السياسية طيلة القرن16م؛ إذ عرفت صراعا متعددة الأطراف بين الإسبان، الأتراك والحفصيين، الأمر الذي أضعف المدينة اقتصاديا وسياسيا، وقد وصف التمكروتي حال المدينة حين مر بها سنة 1595 بقوله:«... إلا أنها اليوم في غاية الضعف لتوالي الفتن عليها، أخذها الترك من أيدي بقية

---

[1] أحمد توفيق المدني: **محمد عثمان باشا داي الجزائر(1766-1791)**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص42-50.

[2] ابن زاكور الفاسي: **نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان**، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم، ص2 .

[3] ابن سحنون الراشدي: **المصدر السابق**، ص252.

الحفصيين، ثم أخذها النصارى منهم بواسطة ما بقي من الحفصيين، فقسموا البلاد بينهم..»[1]، غير أن المدينة عرفت استقرارا نسبيا مع انتصاب الحكم العثماني بها سنة 1574 على يد سنـــان باشا وقد أشار إلى ذلك ابن أبي الضياف بقوله: «...لما استقرت قدمه بالحاضرة... تلافى عن ما بقي من رمقها وأعادها الله دار سلام ...»[2]، وباعتبار مدينة تونس عاصمة البلاد وقاعدتها [3]، فقد ضمت معظم المؤسســـات السياسية والعسكرية للبلاد كالقصبة ودار الديوان، وبعد أن ألحقها سنان باشا بولاية الجزائر جعل بها أوجاقا تشبه أوجاق الجزائر[4] ، أوجد بالقصبة ديوانا أشرك فيه بعض أعيان البلاد من الضباط السامين والبولكباشية، وعهد بحراسته إلى أربعة آلاف جندي من الانكشارية على كل مئة جندي ضابط منهم يسمى "الداي "، وجعل لهم رئيسا وهو الأغا[5].

وبعد انفصال تونس عن الجزائر سنة 1587، أصبح واليها يعين من الباب العالي كل ثلاث سنوات[6]، عادت تونـــس للفوضى طيلة العقود الأولى من القرن17م بسبب ثورات الجنـــد على رؤساء الديوان مستغلين الأزمة السياسية والمالية لإسطنبول، وتعاظم الاستياء الشعبي بسبب الأوضاع السائدة[7]. ومن أشهر دايات هذه المرحـــلة والتي عرفت مدينة تونس في ظلهم الاســـتقرار عثمـــــان داي (1598- 1610)، يوسف داي (1610-1637) واسطا مراد (1637-1640).

---

[1] التمكروتي: **المصدر السابق**، ص41.

[2] أحمد ابن أبي الضياف: **إتحاف أهل الزمان بملوك تونس وعهد الأمان**، مراجعة وتعليق: أحمد الطويلي، ج2، الدار التونسية للنشر ص30.

[3] ابن أبي الدينار: **المصدر السابق**، ص17.

[4] أرجمنت كوران: **السياسة العثمانية اتجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر**، ترجمة عبد الجليل التميمي، منشورات الجامعة التونسية، 1970، ص24.

[5] شوقي عطا الله الجمل: **المغرب العربي الكبير في العصر الحديث**، ط1، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1977 ص108.

[6] H . De Grammont:**op . cit** , p119.

[7] محمد الهادي الشريف: **تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال**، تعريب: محمد شاوش، ط3، دار سرّاس للنشر تونس، 1993م، ص71.

وقد نجح أحد البايات وهو مراد باي في أن يسيطر على شؤون تونس، وأن يظفر من الخلافة العثمانية بلقب "الباشا"، فتحول النفوذ من يد " الداي" إلى يد "الباي"، وجعل الحكم وراثيا لأبنائه من بعده فأسس أسرة حاكمة في تونس هي الأسرة المــرادية التي حكمت البلاد إلى غاية 1702، وبذلك أصبح حاكم تونس يعين محليا دون تدخل الأسيتانة ويتولى الديوان المصادقة على تنصيبه، و لم يعد يشترط أن يكون تركيا خالصا حيث يستطيع الكراغلة والعلوج تولي هذا المنصب السامي[1].

وبالرغم من ذلك فقد كانت الحياة السياسية في عهد هذه الأسرة عاصفة بالنزاعات على الحكم بين أفرادها، ففي كل مرة يستنجد فريق من المتنازعين بالجزائريين الذين انتهزوا الفرصة للتدخل في شــؤون تونس، وخلفــت هذه المنازعات أعمالا تخريبية بالحاضرة [2]، وقد تحدث ابن أبي الضياف عن الحــرب بين الأخوين محمد باي وعلي باي، واستنــجاد محمد باي بالجزائر وما نتج عنه من تخريــب بمدينة تونس بقــوله:«...ونزل علي باي بجــنوده على الحريرية وحاصر الحاضرة، ووقع القتال بين الفريقين، ثم أتــاه خبر بأن محلة الجزائر قدمــت ... فارتــحل من الحاضرة يأخذ من وجده أمامه ...». [3]

ويبدو أن النظام المرادي بإضعافه للجند ومعاملته لرعاياه معاملة الشعوب المغلوبة، قد أدى إلى فقدان هذا النظام لركائزه (الأتراك والرعايا) دون أن يكسب إلى جانبه ما يمكن أن يعوّضها . [4]

وفي سنة 1705 انتقلت الولاية في تونس إلى حسين بن علي، فأسس أسرة حاكمة جديدة هي الأسرة الحسينية التي حكمت طيلة القرن 18م، وقد حاول الحسين بن علي أن يتفادى الصراعات على السلطة فجعل الولاية في بيته يداولها الأكبر من ذريته ليصبح بذلك

---

[1] ج .أو .هابنسترايت: **المصدر السابق**، ص118.

[2] شوقي عطا الله الجمل: **المرجع السابق**، ص110.

[3] ابن أبي الضياف: **المصدر السابق**، ج2، ص72.

[4] محمد الهادي الشريف: **المرجع السابق**، ص80.

الحكم وراثيا[1]، يذكر بن أبي الدينار وفي هذا الصدد :«... وكان الأغا في مبتدأ أمورهم تأتيه الأوامر السلطانية من الباب العالي ... ثم انخرمت هذه القاعدة، فصار يلي هذه الرتبة أكبرهم و لم يحتاجوا إلى أمر سلطاني ...» [2]، ومع ذلك خرج عليه ابن أخيه علي بن محمد، وانتهى الأمر إلى نشوب حروب عديدة بين أفراد الأسرة الحسينية واستمرار تدخل الجزائر في شؤون تونس[3]، أدخت البلاد في اضطرابات وثورات عديدة[4]، حيث تحولت هذه الصراعات إلى حرب أهلية بين مؤيدين (الحسينية) وأنصار (الباشية)، وبعد صراع دام سنة ونصف اضطر علي باشا إلى الانسحاب إلى الجزائر حيث احتجز بمدينة الجزائر مقابل إتاوة سنوية قدرت بـــ 10.000 سكّة يدفعها الحسين ابن علي إلى داي الجزائر كرد عبدي بوعزيز باشا، غير أن هذا الوضع لم يدم طويلا حيث عاد الجزائريون لدعم علي باشا من جديد لتتجدد الفتنة بتونس من جديد سنة 1740[5]، لتتعرض بعدها الخزينة بمدينة تونس لعملية نهب سنة 1756 قام بها الجزائريون[6] كان لها اثر كبير على الحياة السياسية والاقتصادية بالمدينة؛ إذ لم تعرف الحاضرة بعدها الهدوء والاستقرار إلا في عهد حمودة باشا(1783-1814) الذي تمكن من وضع حد لنفوذ حكام الجـــزائر بتونس، كما عرفت المدينة في عهده ازدهارا كبيرا حيث ربطته عـــلاقات طيبة مع الدول الأوربية خاصة فرنسا وبريطانيا[7].

وبذلك فإن الصراعات التي عرفتها مدينة تونس بين الداي والباي عكست التناقضات التي كانت سائدة في القرن17م بين القوى المحلية والقوى التركية، والتي مهدت للتغيرات السياسية التي حصلت فيما بعد وأدت إلى سيطرة الأسرة الحسينية على السلطة

[1] **المرجع نفسه**، ص81.

[2] ابن أبي الدينار: **المصدر السابق**، ص326.

[3] شوقي عطا الله الجمل: **المرجع السابق**، ص112.

[4] محمد الهادي الشريف: **المرجع السابق**، ص81.

[5] ج .أو. هابنسترايت: **المصدر السابق**، ص118.

[6] أحمد توفيق المدني: **محمد عثمان باشا داي الجزائر**، ص52.

[7] رشاد الإمام: **سياسة حمودة باشا في تونس(1782-1814)**، منشورات الجامعة التونسية، 1980، ص302.

ابتداء من سنة 1705، والتي تحولت إلى نوع من الحكومة المحلية التي تجتهد في اكتساب هامش من الحكم الذاتي .

3- الأوضاع السياسية بمدينة سلا:

عرفت مدينة سلا خلال القرنين17و18م تقلبات سياسية عديدة بداية بالحكم السعدي في الثلث الأول من القرن17م، ثم مرحلة الاستقلالية، ثم الاندماج النهائي في المدار العلوي منذ الستينيات من نفس القرن.

أ- سلا في العهد السعدي إلى غاية 1627:

لقد كان جل المغرب الأقصى في بداية القرن 17م واقع في شبه فوضى حكمية، فبعد وفاة السلطان أحمد المنصور السعدي سنة 1603 وقع بين أبنائه نزاع على الحكم وانقسم المغرب الأقصى إلى وحدات سياسية متناحرة. وكانت الحالة على الشواطئ البحرية المغربية غير مستقرة ولا مأمونة تعج بعدد كبير من السفن القرصانية المسلحة المترصدة للسفن التجارية[1].

وبعد إصدار فليب الثاني لقرار الطرد الجماعي لمسلمي الأندلس سنة 1609، نزل عدد كبير منهم بقصبة سلا [2] في عهد سلطان مراكش زيدان الذي أنزل بالقصبة حامية لا تتجاوز عشرين فارسا تحت إمرة قائده عبد العزيز الزعروري، وتخلى لهم عن مداخيل المرسى إعانة لهم وإصلاحا لحالهم [3]. وأمام عجز السلطان زيدان عن مقاومة الغزو الخارجي الذي استهدف المغرب الأقصى وفشله في استرجاع الأندلس، حاول أندلسيو سلا استرجاع الأندلس اعتمادا على أنفسهم [4].

---

[1] محمد داوود: **تاريخ تطوان**، ج1+2، ط2، مطبعة مكتبة كريماديس، تطوان، ص187.

[2] المقري: **المصدر السابق**، ج2، ص528.

[3] الناصري: **المرجع السابق**، ج2، ص205 .

[4] عمار بن خروف: «ملامح من الحياة الاقتصادية في المغرب في عهد السعديين»، **مجلة الدراسات التاريخية**، العدد3، معهد التاريخ جامعة الجزائر، 1987، ص 68.

والواقع أن السلاويين لم يتبنوا الجهاد ليبرروا جرائمهم، أو من أجل الاندماج في مجتمع مغربي كان في أوج صراعه مع الإسبان المتواجدين على السواحل المغربية، وإنما يعود للدافع الديني الذي تتأجج من جديد بعد دخول الإسبان إلى المعمورة سنة 1614[1] التي تقع على مقربة من سلا ؛ لذلك قرر أندلسيو سلا الانفصال عن السلطة العليا بمراكش، وتدبروا الموقف وقرروا إنشاء قوة وعصبة يقدمون عليها من أبناء جلدتهم، فاستدعوا إليهم الجالية الأندلسية المطرودة أخيرا والمتفرقة من أطراف المغرب الأقصى، فاستجابوا لهم واستحسنوا فكرة تكوين وحدتهم فاجتمع المئات والألوف على ضفتي نهر أبي رقراق، ووافق السلطان زيدان على إنزالهم حول القصبة ثم بعث بعدها يطلب ألف رجل من موريسكي سلا ليجندهم بجيوشه، فرفضوا ذلك وأقروا له بأنهم لا يعترفون به ولا بأي ملك أخر[2]، واعتبروا أنفسهم حكاما مستقلين كما هو الشأن في البندقية والأراضي الواطئة[3]، وكان لهؤلاء الأندلسيين المنشقين عن الحكومة المغربية امتيازات في الحكم في اسبانيا في مقابل دفع إتاوة إلى ملوكها، فأعادوا تطبيق هذا النظام على أنفسهم لما شقوا العصا عن مراكش لضعفها وعجزها عن مقاومته.

ب- الجمهورية السلاوية (1627-1641):

تأسست الجمهورية السلاوية والذين كانوا يسمونه بالديوان سنة 1627 والحقيقة أن هذه الجمهورية كانت في الواقع سلاوية رباطية لأنها شملت العمران المتكون على الضفتين اليمنى واليسرى للمصب الرقراقي في البحر، وكان اسم سلا يطلق على العدوتين معا فيقال سلا القديمة وسلا الجديدة (الرباط)، وكان مقر الحكم في القصبة التي كانت بيد الحور ناشيروس المهاجرون الأولون، أما الموريسكوس سكان سلا الجديدة (الرباط) فاعتبروا من الأنصار فقط وحرموا من المشاركة السياسية بالرغم من أنهم يشكلون الأغلبية. وكانت القوة الحكومية بين الأغنياء على غرار ما كان قائما بإسبانيا يسيرها الديوان المتكون من 12

1- Leila Maziane ; **op .cit** , p 29.

2- السلاوي: **المصدر السابق**، ج2، ص51 .

3- محمد داوود: **المرجع السابق**، ص205..

إلى 14عضوا مقره بالقصبة، ويسمى رئيس الديوان بالأميرال الكبير[1]، ويتضح من ذلك أن السلطة كانت بيد رياس البحر.

أما بسلا القديمة فقد حل العياشي[2] منذ أن استنجد به أهلها لمحاربة الإسبان بالمعمورة وبذلك ظهرت قوة العياشي التي حررت سلا من الفوضى والمعمورة من الإسبان[3]، غير أن سكان القصبة استبدوا بالحكم المطلق في حكومتهم الجديدة[4]، وأقصوا الموريسكيين واحتكروا سائر مداخيل الديوانة والمغانم القرصانية [5]، على غرار ما فعلته فئة الأتراك في مدينة الجزائر مع الكراغلة وبقية الفئات الأخرى، وأمام هذا الوضع طالب الموريسكيون في سلا الجـــديدة بالمشاركة السيـــاسية وسائر الامتيازات الاقتصادية، واشتعلت حرب دامية بين الفئـــتين الأندلسيين المهـــاجرتين إلى العدوتين وذلك أوائل سنة 1630، أما أبو عبد الله العياشي المعسكر بسلا القديمة فقد مد يد المعونة لحورناشيروس القصبة[6]، واستمر الخلاف بينهم عدة شهور إلى أن تم الصلح بينهما لمدة سنتين بعد تدخل قنصل انجلترا هاريسون في ماي سنة 1630[7]، وتم بموجب هذا الصلح اقتسام جبايات الغنائم البحرية مناصفة بين حوناشيروس القصبة وموريسكي سلا الجديدة، كما طالبوا بالمشاركة السياسية وسائر الامتيازات الاقتصادية، غير أن الحرب تجددت لمدة أربع سنوات بعد انتهاء الهدنة[8] حيث تمكن بعدها موريسكي سلا الجديدة من اقتحام القصبة والسيطرة عليها سنة 1636،

---

[1] - الناصري: **المرجع السابق**، ج3، ص115- 216 .

[2] -الشيخ أبوعبد الله محمد بن أحمد المالكي الزياني المعروف بالعياشي نسبه إلى بني عبد الملك الهلاليين، اشتهر بجهاده ضد الاحتلال البرتغالي زمن الفوضى الكبرى بالمغرب، بايعه الباس على الجهاد1023ه، دخلت تحت طاعته مدينة فاس، قتل 1051ه راجع:محمد داوود: **المرجع السابق**، ص229.

[3] - **المرجع نفسه**، ص217 .

[4] - عبد الكريم فيلالي: **التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير**، ج4، ط1، شركة ناس للطباعة، القاهرة 2006، ص31.

[5] - الناصري: **المرجع السابق**، ج3، ص227.

[6] - السلاوي: **المصدر السابق**، ج3، ص 228.

[7] - Roger Coindreau**: Les Corsaires de Salé,** Éditeur les croisé des chemins, 1993**,** p 44 .(Books .Google.fr).

[8] - الناصري: **المرجع السابق**، ج2، ص 221 .

وشرد الحوناشيروس إلى الجزائر والتحق بعضهم بتونس ولجأ آخرون إلى سلا القديمة محتمين بسلطة العياشي، ولجأ بعضهم إلى الزاوية الدلائية[1].

ولكن أهل سلا الجديدة (الرباط) عادوا ورفضوا استمرار العلاقة مع العياشي الذي أصبح القوة الفعالة، ومع تعاظم نفوده تخوفوا من سيطرته وأرادوا الاستقلال بمداخيلهم والتحرر من علاقتهم معه، وأكثر من ذلك فقد استغلوا غياب العياشي عن المدينة وتواطؤا مع الإسبان وعقدوا معهم معاهدة[2]، فأقام عليهم العياشي الحجة وشاور العلماء في قتالهم فأفتوا له بجواز ذلك لأنهم تصرفوا في مال المسلمين، وصادقوا النصارى وأمدوهم بالطعام والسلاح[3]، وبناء على ذلك تأزمت العلاقة بين سكان سلا الجديدة والعياشي، الذي وجه المدافع لضرب الرباط كما حاصر القصبة بـــ5000 جندي حيث حقق انتصارا ساحقا ونفى الـــكثير من العائلات إلى الجزائر وتونس، ولجأ بعضهم إلى مدينة سلا القديمة عند العياشي[4].

ج- سلا تحت حكم الدلائيين (1641-1666) :

لما رأى الأندلسيون ما نزل بهم تدبروا فيما سيقابلون به عدوهم العياشي، فاهتدوا إلى الاستنجاد بالشيخ أبي عبد الله محمد الحاج الدلائي وسلطوه عليه، قامت حرب شرسة بين أبي عبد الله العياشي ومحمد الحاج الدلائي استشهد خلالها العياشي في 30 أفريل سنة 1641[5] وقد أشار عن ذلك أبو سالم العياشي بقوله :«... أخبرني الشيخ محمد الفراري بمكة قال :كان بالمدينة المشرفة رجل مغربي من أهل القصر في السنة التي قتل فيها الولي الصالح المجاهد سيدي محمد بن أحمد العياشي قال: فجاءني ذات يوم وقال لي أني رأيت في النوم أختي ورأيت رجلا جالسا مقطوع اليد تسيل دما فقلت له : من أنت؟ قال: "الإسلام"

---

[1]- **المرجع نفسه**، ج2، ص237 .

[2]- عبد الكريم فيلالي: **المرجع السابق**، ص 30 .

[3]- السلاوي: **المصدر السابق**، ج6، ص 76 .

[4]- عبد الكريم فيلالي: **المرجع السابق**، ص 31 .

[5]- الناصري: **المرجع السابق**، ج2، ص 260 .

قطعـــت يدي بسلا، قال فلما أخبرني قلت له: الذي يظـــهر لي من رؤيتـــك أن الرجل الصالح المجاهد الذي بسلا قد قتل قال: بعد ذلك في آخــــــر السنة قدم الحجاج من المغرب فأخـــبرونا بموته..»[1] .

وفي سنة 1641 عين على رأس السلطة في سلا الأمير عبد الله الدلائي الذي جعل مقره بالقصبة، وشملت سلطته مصب أبي رقراق، وقد عرف النشاط البحري في عهده تراجعا كبيرا ولم يبق من الجمهورية السلاوية إلا الاسم[2]. غير أن الصراع الذي ظهر بينه وبين المولى محمد الشريف بفاس انتهى بهزيمته وطرد الدلائيين منها، الامر الذي دفع سكان سلا إلى استغلال الوضع وإعلان التمرد، الذي قابله الدلائيون بعنف شـــديد انتهى بالفشل سنة 1651، ليجدد أهل سلا الثورة سنة 1660 رافضين الاستمرار في حكم دلاء. ولما اطلع أبو العباس غيلان على الوضع وكان من أكبر أصحاب العياشي المجاهدين بشمال المغرب الأقصى[3] جاء بجيوشه إلى الرباط سنة 1664 واستلم مفاتيح المدينة، غير أن غيلان دخل في صراع مع المولى الرشيد ابتداء من سنة 1666 انتهت بهزيمة غيلان ولجوئه إلى الجزائر سنة 1669، وهو نفسه تاريخ استيلاء المولى الرشيد على مصب أبي الرقراق لتندمج سلا في مدار المملكة العلوية[4].

د- سلا في العهد العلوي ابتداء من1666:

بعد توحيد أقطار المغرب الأقصى بما فيها سلا على يد المولى الرشيد، تمكن خليفته المولى إسماعيل من تحرير بعض الثغور المغربية من الاحتلال الإسباني كالعرايش ومدن أخرى انطلاقا من سلا، التي حافظت على مكانتها كمركز مهم من مراكز الجهاد برا وبحـــرا بالمغرب الأقصى وقد أشار إلى ذلك ابن زيدان بقوله:«...وعين الحاج محمد بن

---

[1]- أبو سالم عبد الله محمد العياشي: **الرحلة العياشية المسماة ماء الموائد**، تحقيق: سعيد لفاضلي وسليمان القرشي، ج2، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، دبي، 2006، ص64 .

[2]- R. Coindreau: **op . cit** , p 46.

[3]- محمد داوود: **المرجع السابق**، ج1+2، ص 229 .

[4]- الناصري: **المرجع السابق**، ج2، ص 285 .

ابراهيم معنينو السلاوي ولاه على مرسى سلا الرباط وأسفي وسائر الخدمة البرية والبحرية...» [1]، إضافة إلى كونها كانت مقرا للقنصليات الأجنبية للمملكة ومهبطا للسفراء والبعثات الدبلوماسية، وخصوصا في عهد المولى إسماعيل الذي عرف بالتسامح الديني وببذله مساعي كبيرة لفداء الأسرى، فقد نشطت في عهده البعثات الدبلوماسية ومعاهدات السلم والتجارة حيث تم الاتفاق على هدنة بين أميرال السفن المغربية (ابن عائشة) وقائد القوات البحرية للملك لويس الرابع عشر (دوستري) سنة 1698[2]، تضمنت مجموعة من الشروط أهمها الحد من القرصنة السلاوية التي عرفت تراجعا كبيرا وأصبحت مقيدة بمثل هذه المعاهدات، الأمر الذي أثار كثيرا استياء سكان سلا الذين تعودوا على الاستئثار بالغنائم لعقود طويلة.

ومن ذلك أن السلطان محمد بن عبد الله حين دخل أرض سلا، أغلق صاحبها عبد الحق فنّيش أبوابها في وجهه بعد أن كان قد استبد بها [3]، لذلك كثيرا ما خالف قراصنة سلا هذه المعاهدات واستمروا في عمليات الغزو البحري، مما عرض المدينة لهجومات عديدة من الدول الأوربية، ففي سنة 1766 تعرضت سلا لقصف عنيف من الأسطول فرنسي بعد اختراق قراصنة سلا للمعاهدة المبرمة بين فرنسا والمغرب الأقصى، ولم يتوقف القصف إلا بعد توقيع الهدنة بين الطرفين في 28 ماي عام 1767 بعد نزول القنصل الفرنسي بسلا، واتخاذه المدينة كمقر دائم لقنصليته وكذا تعهد الجانب المغربي بالمحافظة على المصالح التي تربطهم بفرنسا[4].

إضافة إلى معاهدات أخرى عقدت مع السويد وهولندا سنة1777 تتعلق بالأسرى

---

[1] - مولاي عبد الرحمن ابن زيدان: **المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف**، تحقيق: عبد الهادي التازي، ط1، مطبعة إديال، الدار البيضاء، 1993، ص 255 .

[2] - E. Rouad de Card: **Traités de la France et les pays de l'Afrique du Nord (Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc),** A-pédone Éditeur, Paris,1906, p299..

[3] - السلاوي: **المصدر السابق**، ج6، ص 29 .

[4] -Ernest Mercier: **Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête Française 1830**,tome premier ,Paris 1888,p p392-393.

وعدم التعرض للسفن الحاملة للحبوب[1].

ويمكن القول أن الحياة السياسية بمدينة سلا قد تميزت بهيمنة فئة الأندلسيين على الحياة السياسية بالمدينة سواء في مرحلة الاستقلالية أوائل القرن 17م، أو في مرحلة الاندماج في المدار العلوي، الأمر الذي جعل المدينة المركز الجهادي الأول في المغرب الأقصى لما عرف عن هذه الفئة من عداءها الشديد للمسيحيين خاصة الإسبان منهم، خصوصا في مرحلة الاستقلالية التي تميزت بارتباط المدينة بعلاقات قوية مع أتراك الجزائر، نظرا لما أبداه الأشراف السعديين من تخاذل في مواجهة الأخطار الخارجية نتيجة احتدام الصراعات الداخلية على السلطة.

[1] الناصري: **المرجع السابق**، ج4، ص 12 .

ثانيا: الأوضاع الاجتماعية بالمدن الثلاث خلال القرنيين 17 و 18م:

إن خصوصية الأوضاع السياسية التي مرت بها بلاد المغرب منذ أوائل القرن 16م قد أدت إلى توافد عناصر جديدة على المدن الثلاث بالإضافة إلى العناصر القديمة من عرب وبربر الأمر الذي أدى إلى تماثل التركيبة الاجتماعية بها، والذي أدى تلقائيا إلى وحدة الخطاب الفكري بها، وذلك بالرغم من أن لكل مدينة خصوصيتها الاجتماعية و اختلاف هذه الفئات من حيث الامتيازات.

1- الأوضاع الاجتماعية بمدينة الجزائر:

هناك تباين في تقديرات المؤرخين لسكان مدينة الجزائر وعليه فمن الصعوبة تحديد عدد سكان المدينة على مدى القرنين 17 و18م، فقد قدر عدد سكان مدينة خلال القرن 17م حوالي مئة وثلاثين ألف نسمة[1]، والحقيقة أن عدد سكان المدينة قد تناقص في أواخر القرن 18م بسبب الأوبئة [2] التي تسببت في انخفاض عدد سكان مدينة الجزائر إلى حوالي أربعين ألف نسمة في سنتي 1787 و1791[3].

أ – فئة الأتراك العثمانيين:

وهي الطبقة الارستقراطية المسيطرة على مدينة الجزائر منذ أن ارتبطت بالدولة العثمانية سنة1519، وصارت المدينة تتلقى منها الدعم البشري من الجند الانكشاري ومن المتـــطوعين الذين قدموا مع خير الدين[4].

وكان الأتـــراك العثمانيون في مدينة الجزائر ينقسمون إلى فئتين[5]:

---

[1] وليام سبنسر: **المرجع السابق**، ص18.

[2] ناصر الدين سعيدوني: **النظام المالي للجزائر في العهد العثماني (1830–1800)**، ص41.

[3] **المرجع نفسه**، ص41.

[4] عمار بوحوش، **التاريخ السياسي للجزائر من البداية الى1962**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987 ص73.

[5] أرزقي شويتام: **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني(1519–1830)**، ط1، دار الكتاب العربي ص84 .

الفئة الأولى: تتكون من العنصر التركي الخالص المنحدر من أباء وأمهات أتراك وهم في الغالب قادمون من الأناضول والروملي[1]، ورغم قلة عدد هذه الفئة إلا أنها كانت قوية وذات نفوذ واسع في البلاد، حيث يحرص أفرادها على إبقاء المناصب الحكومية بين أيديهم[2].

الفئة الثانية : تتكون من الأوربيين الذين يقعون في الأســـر ويندمجون في الطائفة التركية ويعرفون في مدينة الجزائر بالأعلاج [3] ، وقد ارتفع عددهم بشكل كبير خلال القرن17م نتيجة ازدياد الغزو البحري وازدياد عدد الأسرى المعتنقين للإسلام[4].

وما يمكن قوله أن الأعلاج شكلوا مع الأتراك العثمانيين فئة منسجمة ومتماسكة خلقت توازنا حقيقيا في المجال السياسي والعسكري، حيث ساهموا في تطوير القطاعات العسكرية والمدنية بمدينة الجزائر. [5]

ب- فئة الكراغلة:

ظهرت فئة الكراغلة نتيجة التزاوج بين النساء الجزائريات والرجال الأتراك[6] وقد بلغ عددهم نهاية القرن 18م في مدينة الجزائر حوالي 6000 كرغلي فقط[7]، وتعود قلة عددهم إلى كون الجند من الانكشارية العزاب يفقدون مجموعة من الامتيازات بعد الزواج، وهذا ما جعل عدد الكراغلة محدود [8].

ورغم اشتراك الكراغلة مع الأتراك في الأصل إلا أنهم أبعدوا عن المهام الكبرى خوفا

1- ج .أو. هابنسترايت:**المصدر السابق**، ص73.

2- عمار بوحوش: **المرجع السابق**، ص73.

3- ج. أو.هابنسترايت: **المصدر السابق**، ص73.

4- أرزقي شويتام: **المرجع السابق**، ص85.

5- أرزقي شويتام: **دراسات ووثائق في التاريخ العسكري والسياسي(1519-1830م)**، ط1، دار الكتاب العربي الجزائر 2008، ص45.

6- حمدان بن عثمان خوجة: **المرآة**، تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1985، ص63 .

7- ناصر الدين سعيدوني: **النظام المالي للجزائر في العهد العثماني(1800 -1830م)**، ص43.

8- ج. او .ها بنسترايت:**المصدر السابق**، ص 31 .

من سيطرتهم على شؤون البلاد [1]، و لم يحصلوا على مناصب إدارية في الدولة. ونظرا للقرابة الدموية بين هذه الفئة والأهالي فقد ظهر تعاطف بينهما [2]، الأمر الذي أثار مخاوف الأتراك العثمانيين من ظهـــور حلف وطني يهدد امتيازات الفئة التركية [3]، و لم يبق أمام الأتراك ســـوى سياسة الترضية وكانت النتيجة هي ارتقاء بعض الكراغلة إلى مناصب سياسية[4]،حيث أصبحت هذه الفئة منذ أواخر القرن 16 تشكل قوة متميزة تنافس الأتراك العثمانيين في العديد من الامتيازات . [5]

ج- فئة الحضر:

و نعني بهم العناصر الأولى التي ولدت بالمدن وترعرعت فيـــها وتتكون هذه الفئة أساسا من العرب والأمازيغ [6]، وقد تزايد عـــددهم بمن انضـــم إليهم من الوافدين الأندلسيين طيلة القرن 16م، ودخل عدد كبير منهم إلى مدينة الجزائر عام 1584. [7]

وقد قدّر هايدو عدد منازل الأندلسيين بالمدينة أواخر القرن 16م بأكثر من ألف منزل[8] حيث وصل عدد الأندلسيين بمدينة الجزائر خلال القرن 17م إلى حوالي 25 ألف أندلسي مع دخول آخر دفعة من الأندلسيين سنة 1609[9]، فقد قدّر عدد الوافدين من بلنسية وكاتالونيا والأندلس بستين ألف شخص وبلغ عدد المهاجرين خلال شهر واحد سنة

---

[1]- ناصر الدين سعيدوني: **النظام المالي للجزائر في العهد العثماني(1800-1830)**، ص43.

[2]- عمار بوحوش، **المرجع السابق**، ص74

[3]- ناصر الدين سعيدوني: **النظام المالي للجزائر في العهد العثماني(1800-1830)**، ص43.

[4]- **المرجع نفسه**، ص 44.

[5]- ارزقي شويتام: **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني(1519-1830م)**، ص27.

[6]- **نفس المرجع**، ص77.

[7]- عبد الله بن محمد الشويهد:: **قانون أسواق مدينة الجزائر (1695-1705)**، تحقيق وتقديم وتعليق: ناصر الدين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت، 2006، ص 141.

[8] - D . Haëdo: **Topographie et Histoire générale d'Alger,** traduit par: D Monnereau et A, Berbrugger, imprimé à Valladolid ،1912, en 1870,p 95.

[9]- محفوظ رموم: **الثقافة والمثاقفة في المجتمع الحضري الجزائري خلال العهد العثماني (1519-1830)** مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأمير عبد القادر، 2002 قسنطينة، ص54.

1611 إلى 3804 نفر، وهذا أدى إلى ارتفاع عدد الأسر الأندلسية إلى حوالي 10 ألاف نفر في عام 1619 معظمهم من الغرناطيين والثغاريين[1].

وبناء على ما سبق فإن الأندلسيين شكلوا أهم عنصر في فئة الحضر التي ضمت العلماء، التجار، أصحاب الحرف والصنائع والكتاب الإداريين، وقد حرمت هذه الفئة من أي طموح سياسي[2] فقد فرض عليهم الأتراك العثمانيون وضعية التبعية المطلقة[3]، لذا فقد توجه معظمهم إلى التجارة والصناعة .

وبالرغم من أن فئة الحضر قد حرمت من المشاركة السياسية، إلا أنها كانت تتمتع بنفوذ روحي ومادي، خاصة العناصر الأندلسية التي كان لها دور كبير في تدعيم القوة الدفاعية لمدينة الجزائر في وجه الأطماع الإسبانية، نظرا لحماسهم الديني الجارف وعدائهم المستحكم للنصارى.

د- فئة البرانية:

وهم الأغراب الذين قدموا إلى مدينة الجزائر من مختلف أنحاء البلاد الجزائرية قصد العمل أو الإقامة بها[4]، وهم بالأخص جماعة البساكرة، المزابيين، القبايل، الجماعة الجيجلية والأغواطيين، يعمل معظم هؤلاء كعمال مدنيين في مهن متواضعة[5]، وقد ارتبطت كل جماعة بأعمال معينة وخدمات محددة، أوكل أمر التصرف في شؤونها إلى أمين يختار من بين أفرادها[6].

أما جماعة البساكرة فقد اشتهرت بالعمل بالحمالة[7]، أعمال النظافة والحراسة الليلية[8].

---

[1] اسم يطلق على الأندلسيين القادمين من إقليم كاتالونيا، ينسب إليهم حي الثغارة بمدينة الجزائر.

[2] فيلالي السايح: **المرجع السابق**، ص 23.

[3] ج .او .هابنسترايت: **المصدر السابق**، ص 32.

[4] الشويهد: **المصدر السابق**، ص 25.

[5] فيلالي السايح: **المرجع السابق**، ص 23.

[6] الشويهد: **المصدر السابق**، ص 25.

[7] Venture de Paradis: **op. cit** ,p 14.

[8] ج.أو. ها بنسترايت: **المصدر السابق**، ص 32.

في حين اشتغل الأغواطيون في أعمال النظافة[1]، أما الميزابيون فقد شكلوا فئة متميزة ويعمل معظم أفرادها في المطاحن والمخابز والحمامات ويتمتعون بامتيازات كبيرة مقارنة مع بقية الأهالي[2].

أما جماعة القبائل فتتكون أساسا من قبائل جرجرة وبني عباس [3] معظمهم يشتغل في أعمال البناء[4]. ويضاف إلى هؤلاء الفئة الجيجلية التي عرفت أيضا بجماعة الكواشة [5] لاشتغال معظمهم بالأفران، وقد سخرت هذه الجماعة للعمل في أفران البايلك حيث كانت تحتكر صناعة الخبز لليولداش والأسرى، وحسب فانتور دو بارادي فإن هذه كانت تتمتع بنفس امتيازات الأتراك[6] باعتبارها ساهمت بشكل كبير في إرساء الحكم العثماني بالجزائر منذ نزول خير الدين بجيجل سنة 1514.

ه- فئة الدخلاء:

تضم هذه الفئة كل من الأسرى واليهود، أما الأسرى فمعظمهم من أصول أوربية[7] يعملون في الحانات والسجون أو كخدم في قصر الداي[8]، كما اشتغلوا بالقرصنة خاصة في أعمال التجديف وصناعة السفن[9].

أما الأسرى فقد كان عددهم غير مستقر تتحكم فيه طبيعة علاقات الجزائر بالدول الأوربية ومدى قوة الأسطول الجزائري، وقد سجل أكبر عدد لهم خلال القرن 17م نظرا لتزايد الغزو البحري آنذاك.

---

[1] ناصر الدين سعيدوني: **النظام المالي للجزائر(1800- 1830)**، ص45.

[2] Venture de Paradis: **op. cit**، p 14.

[3] ارزقي شويتام: **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني(1519- 1830)**، ص78.

[4] فيلالي السايح: **المرجع السابق**، ص 23.

[5] الشويهد: **المصدر السابق**، ص 61.

[6] Venture de Paradis, **op. cit**، p 14.

[7] ارزقي شويتام: **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني(1519-1830)**، ص95.

[8] ج .اوهابنسترايت: **المرجع السابق**، ص 34.

[9] فيلالي السايح: **المرجع السابق**، ص 23.

أما الأوروبيون الأحرار فإن وجودهم في الجزائر كان مقصورا على أداء مهامهم التجارية والدبلوماسية، الإدارية والدينية المؤقتة[1].

أما اليهـــود فقد زاد توافـــدهم على مدينة الجزائر مع الهجرة الأندلســـية أوائل القرن17م كما استقطبت المدينة أعدادا كبيرة من يهود ليفورنه، وأصبح اليهود يشكلون جماعة متميزة تمارس التجارة خاصة مع ليفورنه[2]، حيث نلاحظ تواجد اليهود بقوة في أسواق مدينة الجزائر وقد اشتهروا بممارسة السمسرة والربا، غير أن عددهم بمدينة الجزائر قد تراجع كثيرا ابتداء من القرن 18م نظرا لانتشار الأوبئة والأمراض[3]، وبالرغم من قلة عددهم في هذه الفترة إلا أنهم سيطروا بشكل شبه تام على النشاط التجاري مستغلين علاقاتهم الجيدة مع الدايات[4].

وهكذا يتضح أن التركيبة الاجتماعية بمدينة الجزائر تتميز بتعدد عناصرها الإثنية المتباينة الأدوار في واجباتها ومؤهلاتها الوظيفية لكنها في النهاية متكاملة، وهذا يعود لابتعاد المجتمع الحضري عن النظام الطائفي[5].

2- الأوضاع الاجتماعية بمدينة تونس:

من الصعب الإحاطة بجميع جوانب الحياة الاجتماعية بحاضرة عظيمة مثل تونس طيلة قرنين كاملين(17- 18م)، خاصة وأن المعلومات التي توردها المصادر التاريخية شحيحة للغاية تحديدا فيما يخص عدد سكان المدينة، فحسب الرحالة الذي مروا بها خلال القرن 16م فإنها مدينة عامرة بالسكان بالرغم من الفتن السياسية التي مرت بها خلال تلك الفترة[6]،

1- يامنة درياس: **المرجع السابق**، ص 64.

2- ناصر الدين سعيدوني: **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر**، ص145.

3- أرزقي شوتيام: **المجتمع الجزائري وفعاليته في العهد العثماني(1500- 1830)**، ص 92.

4- كمال بن صحراوي: **الدور الدبلوماسي ليهود الجزائر في أواخر عهد الدايات**، بيت الحكمة، الجزائر 2008، ص61.

5- محفوظ رموم: **المرجع السابق**، ص62.

6- مارمول: **المرجع السابق**، ج3، ص 21. راجع أيضا :التمكروتي: **المصدر السابق**، ص41.

ومدينة تونس لا تختلف كثيرا عن مدينة الجزائر من حيـــث التركيبة الاجتماعية التي تتميز بالتنوع والتعدد والانسجام في آن واحد وقد تحدث عن ذلك الورتلاني الذي زار المدينة في القرن18م بقوله: «...جامعة لأجناس الخلائق، فيها جميع الأصناف من أهل الحقائق...»[1]، ويمكن حصر أهالي تونس خلال هذه الفترة في الفئات الاجتماعية الأكثر تأثيرا وهي :

أ- الأتراك العثمانيون:

وهي العناصر التركية الخالصة والتي استقرت مبكرا في مدينة تونس إلا أن عددهم تزايد بشكل ملفت عقب تعيين سنان باشا لأوجاق المدينة[2]، فأصبحوا يشكلون قوة سياسية مسيطرة على دواليب الحكم منذ انتصاب الحكم العثماني بالمدينة 1574[3]، أما لباسهم فيختلف عمن سواهم ولهم أقبية بأكمام طويلة واسعة [4].

ب- الكراغلة:

يطلق على هذه الفئة في تونس اسم الكورغلية، وهم المولودون من رجال أتراك ونساء تونسيات، وتتمتع هذه الفئة بنفس الامتيازات التي يتمتع بها آباؤهم الأتراك[5]، وإذا كانت هذه الفئة في الجزائر لم تنل حظها من المشاركة السياسية وحرمها الأتراك العثمانيون من جميع الامتيازات الاقتصادية والسياسية، فإن هذه الفئة قد تمكنت من إيجاد مكانة سياسية في مدينة تونس من خلال وصولها إلى الحكم واستلام الأسرة المـــرادية لمقاليد الحكم خلال القرن 17م[6] وبذلك حظيت هذه الفئة في تونس بالحق في تولي مختلف المناصب السياسية السامية.

---

[1]- الحسين بن محمد الورتلاني: **نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار**، تعليق: ابن مهنا القسنطيني، ج3، ط خ، دار المعرفة الدولية، 2011، ص328.

[2]- مسعود الخوند: **المرجع السابق**، ص92.

[3]- محمد الهادي الشريف: **المرجع السابق**، ص69.

[4]- ابن أبي الدينار: **المصدر السابق**، ص327.

[5]- محمد الهادي الشريف: **المرجع السابق**، ص69.

[6]- أرزقي شوتيام: **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني(1519-1830)**، ص40.

ج- العلوج:

وهم ذوي الأصول المسيحية الذين دخلوا في الإسلام لهم الحق في تولي المنصب السياسي مثل الأتراك والكراغلة [1]، كما تمتعوا بنفوذ سياسي قوي إذ عملوا كمستشارين سياسيين لذا حكام تونس[2]، ومن أشهرهم أسطا مراد[3] الذي خلف يوسف داي في الحكم سنة 1610[4] وكان عهده حافلا بالجهاد البحري وغنائمه[5]، إضافة إلى أسماء أخرى لعلوج كان لهم دور كبير في الحياة الاقتصادية بتونس كالقبطان صمصوم وقبطان وردية اللذان أغدقا على تونس غنائم ضخمة[6].

د- الأندلسيون:

يعتبر الأندلسيون من الوافدين الجدد على مدينة تونس التي تلقت أكبر موجة منهم سنة 1609، حيث دخلها أكثر من ثمانين ألف أندلسي خاصة بعد أن استبدت بهم الأعراب في بقية المدن التونسية[7]، واستقر معظمهم في عهد عثمان داي (1598-1610م) الذي وفر لهم الأمن والاستقرار، وقام بتبني سلسلة من الإجراءات الإنسانية والإدارية قصد تسهيل عملية اندماج الموريسكيين في المجتمع التونسي، وهذا ما مكنهم من انطلاقة جديدة في الحياة الاجتماعية حيث أبقى على الأثرياء منهم وأهل الحرف كالمختصين في صناعة

---

[1]- ابن أبي الدينار، **المصدر السابق**، ص232.

[2]- محمد بن محمد بن عمر العدواني: **تاريخ العدواني**، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2005، ص195. راجع أيضا: محمد الهادي الشريف: **المرجع السابق**، 69.

[3]- أسطا مراد(1637-1640): من أشهر قراصنة تونس، أغدق على مدينة تونس الآلاف من المسيحيين والأسرى راجع: محمد الهادي الشريف: **المرجع السابق**، ص71 .

[4]- ج .أو .هابنسترايت: **المصدر السابق**، ص118.

[5]- محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج: **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب الهيلة، ج2، دار الكتب الشرقية، تونس، 1973، ص382.

[6]- محمود مقيدش: **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، تحقيق: علي الزواوي ومحمد محفوظ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص92.

[7]- المقري: **المصدر السابق**، ج4، ص528.

الشاشية في مدينة تونس، ووزّع الباقين على قرى ومدن الشمال التونسي[1]، فقد تحدث ابن أبي الدينار عن جهود عثمان داي في دعم الأندلسيين بقوله:«... وفي هذه السنة... جاءت الأندلسيين بلاد النصارى...وكانوا خلقا كثيرا فأوسع لهم عثمان في البلاد وفرق ضعفاءهم على الناس وإذن لهم أن يعمروا حيث شاؤوا...» [2] ، ويوافقه في ذلك بن أبي الضياف بقوله:«... فأحسن عثمان داي قراهم، وأكرم مثواهم... وحث أهل الحاضرة على إكرامهم وآخى بينهم وبين أهل المملكة وأقطعهم ما اختاروه من الأرض ... فبنوا بالحاضرة " حومة الأندلس" ...» [3]، وأكثر من ذلك فان عثمان داي الذي كان رجلا غنيا يملك الثروة والعبيد وباخرتان مسلحتان تسليحا جيدا، قد انبرى على تشجيع الموريسكيين على ممارسة القرصنة، ومدهم بكل الوسائل الدفاعية عن أنفسهم أمام أي معتد[4]. فأغدقوا على مدينة تونس غنائم ضخمة فصاروا من أعيان المدينة، حتى أن أهل تونس تخلقوا بأخلاقهم[5]، غير أن هذه الفئة حرمت من المشاركة السياسية في البلاد على غرار نظيرتها في الجزائر مما جعل دورها محصورا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية فقط.

ه- الأسرى:

كانت مدينة تونس خلال القرن 17م تعج بالأسرى باعتبارها مركزا من مراكز الجهاد البحري، ولا يمكن تحديد عدد الأسرى بمدينة تونس على مدى قرنين كاملين خاصة وأن المدينة أصبحت تربطها معاهدات واتفاقيات مع دول أوربية كفرنسا سنة 1605[6] وتتضمن هذه المعاهدات بنودا لافتداء الأسرى والحد من القرصنة البحرية[7]، غير أنه يمكن

1- عبد الجليل التميمي: **دراسات في التاريخ الموريسكي الأندلسي**، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، 1993، ص95 .

2- ابن أبي الدينار، **المصدر السابق**، ص327.

3- **المصدر نفسه**، ص327.

4- عبد الجليل التميمي: **دراسات في التاريخ الموريسكي الأندلسي**، ص29.

5- محمود مقيدش: **المرجع السابق**، ص90.

6- E. Rouad de Card: **op. cit**, p104.

7- **Ibid.**, p105.

القول أن عددهم قد زاد بشكل ملفت في عهدي عثمان داي واسطا مراد، خاصة وأن هذا الأخير قد أدخل إلى مدينة تونس أكثر من 900 أسير دفعة واحدة في إحدى جولاته البحرية[1]، وقد قدّر الأب دان Dan عددهم بمدينة تونس مع أواسط القرن 17م بحوالي سبعة آلاف أسير[2] .

و- فئة العبيد:

يطلق عليهم في مدينة تونس اسم الشواشين[3]، فقد استمرت تجارة العبيد في مدينة تونس إلى أواسط القرن 18م، دخلوا إلى المدينة عن طريق القوافل الصحراوية القادمة من بلاد السودان، ومن هذا المنطلق وجدت بمدينة تونس سوق متخصصة لبيع العبيد تسمى" سوق البركة "[4].

ز- فئة الجرابة:

وهم السكان الوافدون إلى مدينة تونس من جزيرة جربة، حيث يعتبر الجرابة من أنشط التجار بمدينة تونس حيث شيّد لهم الداي يوسف (1610-1637) سوقا في موقع رئيسي وهام للغاية، الأمر الذي بيّن الأهمية الاقتصادية لتجارتهم[5] المتمثلة في الألبسة والأغطية الصوفية والفخار[6]، وقد نسبت هذه السوق إليهم حيث سميت ب" سوق الجرابة" [7]، وأكثر من ذلك فقد امتد النشاط التجاري للجرابة إلى أسواق مدينة الجزائر[8] ومدن أخرى من الساحل الشرقي لأيالة الجزائر.

---

[1] السراج: **المصدر السابق**، ص382.

[2] – Dan:**op.cit**. p 321.

[3] السراج: **المصدر السابق**، ص 548.

[4] ابن أبي الدينار: **المصدر السابق**، ص230.

[5] أندري ريمون: **المرجع السابق**، ص80.

[6] الشويهد: **المصدر السابق**، ص114.

[7] ابن أبي الدينار:**المصدر السابق**، ص229.

[8] الشويهد: **المصدر السابق**، ص114.

ح- اليهود: إن التسامح العثماني اتجاه الأقليات الدينية قد سمح بازدهار الجماعات اليهودية بمدينة تونس، لتنظم إليها جماعات أخرى قادمة من أوربا بحثا عن ملجأ من الاضطهاد الذي عانوا منه في اسبانيا، أو سعيا وراء أنشطة اقتصادية مثمرة كاليهود القادمين من ليفورنه الذين ربطوا علاقات قوية مع الجاليات اليهودية المحلية خلال القرنين(17-18م)[1]، وقد اشتغل معظم اليهود كتجار متجولين أو كسماسرة.

أما الوضع الاجتماعي لهذه الفئة فلم يعرف الاستقرار طيلة القرن 17م وأوائل القرن 18م نظرا للأمراض والأوبئة التي توالت على مدينة تونس طيلة هذه الفترة[2] والتي أودت بحياة الآلاف من السكان.[3]

3- الأوضاع الاجتماعية بمدينة سلا :

تعتبر مدينة سلا من أكبر المدن المغربية من حيث عدد السكان غير أنه لا يمكننا تحديد عددهم بدقة للأسباب التالية:

أولا: لأن كل المصادر لم تشير إلى عدد سكانها خلال هذه الفترة.[4]

ثانيا: لأن الفترة المدروسة طويلة وتقدر بقرنين كاملين وهي فترة كافية لأن تشهد المدينة مراحل مختلفة من النمو الديموغرافي، بسبب ما شهدته من حروب مع الدول الأوربية و المجاعات التي أثرت بشكل مباشر على عدد السكان، وقد وصف المقري الوضع المزري لأهل سلا أوائل القرن 17م بقوله:[5]

أهل سلا صاحت بهم صائحة غادية في دورهم رائحة
يكفيهم من عوز أنهم ريحانهم ليس له رائحة[6]

---

[1]- أندري ريمون: **المرجع السابق**، ص41.

[2]- ابن أبي الدينار: **المصدر السابق**، ص35.

[3]- **المصدر نفسه**، ص231.

[4]- Leila Maziane: **op cit**, p73..

[5]- أخد المقري هذه الأبيات نقلا عن لسان الدين بن الخطيب.

[6]- المقري: **المصدر السابق**، ج6، ص278.

واستمرت هذه الأوضاع طيلة القرن 17م؛ وذلك يعود لطبيعة اقتصاد المدينة المعتمد على مورد غير قار وهو الجهاد البحري، وضعف الإنتاج الزراعي وكذا الأزمات السياسية التي تعاقبت على المدينة في النصف الأول من هذا القرن.

أما عن الفئات الاجتماعية المكونة للمجتمع السلاوي فلا يمكن رصدها بسهولة نظرا لشح المعلومات التي توردها المصادر، إلا أن مدينة سلا قد كانت أندلسية بامتياز خلال الفترة المدروسة، إضافة إلى عناصر سكانية أخرى ذات تأثير محدود على الحياة العامة بالمدينة يمكن حصرها في العناصر الاجتماعية التالية:

أ – الأندلسيون:

تمثل هذه الفئة الأغلبية الساحقة من سكان سلا، حيث استقروا بالمدينة في وقت مبكر من القرن 16م[1]، إلا أن أكبر عدد منهم نزح إلى سلا كان عقب صدور قرار الطرد الجماعي سنة 1609 حيث اعتصموا بقصبة المدينة، وقد تحدث المقري عن النزوح الأندلسي إلى سلا بقوله:«... وسكنوا سلا وكان منهم من الجهاد البحر ما هو مشهور الآن، وحصنوا القلعة وبنو فيها القصور والدور والحمامات وهم الآن بها لهذا الحال ...»[2]، واستقبلت مدينة سلا ما بين (1609 – 1610) أكثر من 3000 موريسكي وحوالي 10000 أندلسي استوطنوا بالمدينة وضواحيها.[3] وينقسم الأندلسيون الذين نزلوا بمدينة سلا إلى مجموعتين هما: الحورناشيروس والموريسكوس ولصعوبة التفريق بينهما ويطلق على كلتا الفئتين اسم الأندلسيين أو الغرناطيين في كل المغارب[4]، منذ نزول هؤلاء الأندلسيين بأرض سلا أعلنوا العداء على اسبانيا وقرروا الهجوم على المصالح الاسبانية حيثما وجدت، وحولوا بذلك مدينة سلا إلى مركز للقرصنة

---

[1]- مارمول، **المصدر السابق**، ج2، ص135.

[2]- المقري: **المصدر السابق**، ج4، ص528.

[3]-Leila Maziane: **op**. **cit**, p65.

[4]- الناصري: **المرجع السابق**، ج3، ص211.

الجهادية وأصبحت شوارعها تعج بالأسرى[1]، فنشطت حركة البيع والشراء حيث اشتغل معظم الأندلسيين في التجارة أو في القرصنة[2]، كما استأثروا بالوظائف الحكومية فلا يرون غيرهم أهلا بها، كما استقدموا معهم صنائع اشتهروا بها كصناعة الشاشية[3].

ب – الأسرى:

لقد كانت مدينة سلا عامرة بآلاف الأسرى المسيحيين الذين يستخدمون في المصانع وأوراش السفن والترسانات البحرية وفي أعمال التجديف، وكان لهؤلاء الأسرى لباس خاص بهم يمتازون به عن غيرهم يمنح لهم كل سنة وهو سروال، قميصان وطاقية حمراء، ويلزمون بحلق رؤوسهم والمشي في الأزقة حفاة، أما طعامهم فهو الخبز اليابس مع الفول والزيت[4].

ج – العلوج:

يوجد بمدينة سلا عدد كبير من العلوج على غرار مدينتي الجزائر وتونس، وقد انضم لهؤلاء لفئة القراصنة بسلا، واستخدموا في الدعم اللوجيستيكي لتنظيم الحملات ضد التجارة الأوربية، حيث قاموا بنقل تقنيات الملاحة الأوربية وتطبيقها على النشاط القرصني، خاصة الهولنديين المتمكنين من هذين النوعين من المراكب في القرصنة، وبذلك فإن العلوج كان لهم دور كبير في اقتصاد المدينة، إذ أن النشاط القرصني قد اعتمد على هذه العناصر النشيطة على غرار ما كان جاريا في مدينتي الجزائر وتونس حيث كان أغلب قراصنتهما علوج من جنسيات مختلفة، برتغاليون والهولنديين[5]، فقد أورد الأب دان أن في مدينة سلا عدد لا بأس به من العلوج مع منتصف القرن17م[6].

---

1 – Leila Maziane: **op، cit**, p 70.

2 – الناصري: **المرجع السابق**، ج3، ص211.

3 – محمد داوود: **المرجع السابق**، م3+4، ص47

4 – **المرجع نفسه**، ج3، ص35.

5 – Leila Maziane: **op, cit**, p65

6 – Dan: **op, cit**, p 210.

د- الأتراك:

يوجد بمدينة سلا العنصر التركي الخالص بعدد معتبر[1]، ويعود استقرارهم بالمدينة إلى السبعينات من القرن 16م،حيث تتحدث بعض التقارير الاسبانية عن وصول حوالي ألف تركي إلى مدينة سلا كدعم للدكالي الأندلسي المرابط بقلعة سلا في جهاده ضد الإسبان[2] وحسب ما تشير إليه المصادر فإن فئة الأتراك كانت تنشط في التجارة والقرصنة وصناعة السفن[3] .

ه- اليهود:

لقد شمل مرسوم الطرد الجماعي أوائل القرن 17م طائفة اليهود، حيث تدفقوا بإعداد كبيرة مع المسلمين وسكنوا مدن عديدة كسلا[4]، واشتغل اليهود أساسا بأعمال التجارة والسمسرة، وأشهر التجار اليهود بسلا يعقوب أتشولا الذي كان يتاجر بالعبيد ويقايضهم بالبضاعة[5]، كما كان يهود سلا يشاركون في تجهيز السفن القرصانية حيث كان لهم اتصال مع يهود البلاد المنخفضة المطرودين من الأندلس، فكانوا يتوسطون لهم في شراء السفن وتجهيزها ومنهم ابن جمان وطوليدانو[6]، كما اشتغل يهود سلا في صناعة الشمع وصناعة التقطير وكذا الحلي[7].

---

1 - **Ibid** , p 210.

2 - عبد الرحيم بن حادة وآخرون: **المرجع السابق**، ص25.

3 - أبو القاسم الزياني: **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برّا وبحرّا**، تحقيق وتعليق: عبد الكريم الفيلالي مطبعة فضالة المحمدية1967، ص17.

4 - حاييم الزعفراني: **يهود الأندلس والمغرب**، ترجمة: أحمد شحلان، ج2، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، 2000 ص326.

5 - غييرمو غوثا لبيس بوستو: **المورسكيون في المغرب**، ترجمة: مروة محمد إبراهيم، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2005، ص 198.

6 - الناصري: **المرجع السابق**، ج5، ص25.

7 - حاييم الزعفراني: **المرجع السابق**، ص 448.

و- الريفيون:

تمثل هذه الفئة السكان الأصليين لمدينة سلا، وهم ينقسمون إلى أهل البادية والجبليون وقد حرموا من أية مشاركة سياسية، حيث استخدمهم أندلسيو سلا في الأعمال الشاقة من مقاتلة وحراسة وفلاحة وغير ذلك مما فيه من الجهد والتعب، مقابل المأكل والملبس والأجر الضئيل[1].

إضافة إلى العبيد السود الذين استقروا بالمدينة منذ عهد المنصور السعدي، وكذلك الأجانب كالتجار والقناصل من جنسيات مختلفة الذين يقيمون بالمدينة بشكل مؤقت.

وبذلك يمكن القول أن المجتمع بالمدن الثلاث كان هرمي التنظيم خلال القرنيين(17–18م) حيث شكل الأتراك العثمانيون، الكراغلة، والأندلسيون قمة الهرم الاجتماعي في مدن الجزائر تونس وسلا، وهي فئات تتفق في توجهاتها السياسية والاقتصادية، خاصة فقد شكلت هذه الفئات الجزء الرئيسي من فئة الرياس بهذه المدن، كما أن التنوع في الأصول الإثنية للرياس لم يمنع من تكوين مجموعة قوية ومتماسكة تدافع عن مصالح القرصنة الجهادية، بل ساهم هؤلاء في خلق شبكة اجتماعية مغاربية نظرا للأهمية الاقتصادية والاجتماعية التي تمثلها القرصنة بالنسبة لسكان هذه المدن.

1- محمد داوود، :**المرجع السابق**، م3+4، ص47.

ثالثا: الأوضاع الاقتصادية بالمدن الثلاث خلال القرنين 17و18م

1- الأوضاع الاقتصادية بمدينة الجزائر :

لقد نتج عن الاستقرار السياسي المبكر بمدينة الجزائر منذ الثلث الأول من القرن 16م ازدهار النشاط الاقتصادي بها في جميع المجالات من زراعة وصناعة وتجارة.

أما في المجال الزراعي فقد أشاد الوزان بالإمكانيات الزراعية للمدينة خلال القرن 16م بشساعة سهل المتيجة[1]، غير أن هذا السهل ترتفع به نسبة الرطوبة[2]، لذا فإن قمحه أقل جودة من غيره، ولا يمكن خزنه لأكثر من سنة[3]، لذلك تستغل أراضيه كـــمراعي للحـــيوانات التي توفر كميات ضخمة من الأصواف والجلود والعسل.

أما فحص المدينة فكان يتوفر على كل الشروط الطبيعية المساعدة على ازدهار الزراعية حيث تمثل مساحته ثلث إقليم مدينة الجزائر، وكذا توفر ماء السقي بنهر الحراش[4]، زاد الإنتاج الزراعي بفحص الجزائر مع استقرار الفلاحين القادمين من مقاطعتي فلانسيا وأرغون الذين نقلوا معهم تقنيات فلاحية عالية[5]، فبالإضافة إلى إنتاج القمح والشعير والخضر والفواكه من أعناب وتفاح وبرتقال، وقد استحدث هؤلاء الأندلسيون زراعات جـــديدة كأشـــجار التوت[6] التين والخوخ والمشـــمش، وأنشـــأوا مزارع واسعة للقطن[7]. وبهذه المنتجات استطاع الفحص أن يسد حاجيات سكان مـــدينة الجزائر. أما سهـــل المتيجة فقد وفر الصـــوف والجلود واللحوم والعسل والتي كانت أغلبها موجّهة للتصدير، الأمر الذي مكن مدينة الجزائر من سد حاجتها من المواد الغذائية.

1- الوزان: **المصدر السابق،** ج2، ص 37 .

2- ناصر الدين ســـعيدوني: « فحص مدينة الجزائر أواخر العهد العـــثماني» **مجلة الدراسات التاريخية،** معهد التاريخ جامعة الجزائر، العدد1، 1986م، ص 94.

3- حمدان بن عثمان خوجة:**المصدر السابق،** ص 49.

4- ناصر الدين سعيدوني: **المقال السابق** «فحص مدينة الجزائر أواخر العهد العثماني»، ص95.

5- A. Devoulx:« La Batterie des Andalous» ,in **R.A**, N.°16 , 1872, Alger , pp 341- 342.

6- ناصر الدين سعيدوني: **دراســـات وأبحاث في تـــاريخ الجزائر،** ص 94.

7- حمدان بن عثمان خوجة: **المصدر السابق،** ص 50.

أما النشاط الصناعي فإن مدينة الجزائر عرفت العديد من الحرف التي وإن لم ترتق إلى مستوى الصناعة الأوربية، إلا أنها كانت تمثل نشاطا تقليديا مهما يعتمد على المهارة اليدوية[1] فقد انتشر عدد كبير من المشاغل لمزاولة مختلف الصناعات[2]؛ فبالإضافة إلى المهن الميكانيكية التي عرفت بها المدينة أواخر القرن16م كالخياطة والسكافة والدباغة[3]، فقد ارتفع عدد المهن خلال أواخر القرن 17 وأوائل القرن 18م إلى أكثر من53 حرفة نظرا للرخاء الاقتصادي الذي عرفته المدينة بسبب تدفق الغنائم وأهم هذه الحرف: الحدادون، البشامقية، النجارون والقزادرية[4].

و انتشرت في مدينة الجزائر صناعة الشواشي، إلا أنها تعتبر أقل جودة مقارنة مع تلك التي تصنع في تونس ويعود السبب في ذلك أن الشاشية الجزائرية تصنع من الصوف المحلي، أما الشاشية التونسية فتصنع من الصوف الاسباني، وهذا ما يفسر أن الشاشية الجزائرية تباع بنصف ثمن الشاشية التونسية، لدى فهي تلقى رواجا لدى الطبقات الفقيرة ولا توجه للتصدير[5] وذلك بالرغم من جهود القائمين عليها لتحسين نوعية الإنـــتاج، وذلك بمنـــع استعمال الصوف المحلي في هـــذه الصناعة ومعاقبة من يستخدمها بمنعه من ممارسة صناعته سنة ـــ1698 قبل دار الإمارة[6].

وبالإضافة إلى صناعة الشاشية استحدث الأندلسيون حرف أخرى كنسيج القطيفة "المخمل" التي اختص بها مهاجرو غرناطة [7]، وقد ضمت مدينة الجزائر مطلع القرن 17م مائتي نساج كلهم من أصـــل أندلسي[8]، كما اشتهرت مدينة الجزائر بصناعة الأحزمة

---

[1]- الشويهد: **المصدر السابق**، ص 26.

[2]- ناصر الدين سعيدوني: **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر**، ص 141.

[3]- Haëdo: **op. cit**, p 93.

[4]- الشويهد: **المصدر السابق**، ص 28.

[5]-Venture de Paradis: **op. cit**، p 17.

[6]- الشويهد: **المصدر السابق**، ص 103-104.

[7]- ناصر الدين سعيدوني: **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر**، ص 140.

[8]- أرزقي شوتيام: **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني(1519- 1830)**، ص323.

الحريرية فهي أحسن بكثير من الأشرطة الليفورنية لذا فهي توجه للتصدير[1]،أما اليهود فقد اشتغلوا في صناعة الحلي والخياطة الفاخرة[2] .

تنتظم كل حـــرفة من هذه الحرف في أزقة خاصة تعرف باسم الحرفة السائدة فيها[3] يراقبها موظفو البايلك من أمثال المحتسب وشيخ البلد، ضابط الانكشارية، ويؤطرها "أمين الأمناء" الذي له الحق في النظر في مجمل النشاط الحرفي إنتاجا ونوعية[4].

أما صناعة السفن فقد وجدت بمدينة الجزائر منذ منتصف القرن 16م نظرا لحاجة المدينة لأسطول قوي لمواجهة الأخطار الخارجية[5]، وقد أكد ذلك التمكروتي الذي مر بالمدينة سنة1595 بقوله: «... ومرساها عامر بالسفن...»، وزاد اهتمام الدولة بصناعة السفن والمراكب خلال القرن17م مع ازدهار الغزو البحري وضخامة عائداته، حيث يوجد بميناء الجزائر حوض كبير لبناء وإصلاح السفن[6]، أما نوعية السفن التي تصنع فهي سفن حربية بالدرجة الأولى كالغلياطة[7]، وقد عرفت هذه الصناعة بمدينة الجزائر تقدما كبيرا ابتداء من سنة 1729، حيث أبرمت الجزائر معاهدة مع هولندا لمدها بكل المعدات لبناء السفن وأخرى لشراء الأخشاب من انجلترا وهولندا وايطاليا[8]، خاصة إذا علمنا أن الخشب الذي كان يجلب الى مدينة الجزائر من بلاد القبائل لم يغط الاحتياجات المحلية لصناعة السفن ابتداء من سنة 1650، ونظرا لأهمية الخشب في صناعة المراكب فإن جل المعاهدات المبرمة بين الجزائر ودول أوروبا الشمالية تنص على أن تكون جزء من إتاواتها من الخشب واللوازم

---

[1]- Venture de Paradis: **op. cit**، p 16.

[2]- عبد القادر حليمي: **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830**، ص 299.

[3]- عبد القادر حليمي: «أثر التضاريس في تخطيط مدينة الجزائر» **مجلة الأصـــالة**، العدد 16، مطبعة البــعث، قسنطينة 1973، ص82.

[4]- الشويهد: **المصدر السابق**، ص 27.

[5]- أرزقي شوتيام: **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني(1519، 1830)** ص48.

[6]- **مذكرات الأسير الأمريكي في المغرب كاثكارث**، ص 76.

[7]- أرزقي شوتيام: **المجتمع الجزائري وفعالياته خلال العهد العثماني(1519-1830)**، ص323.

[8]- عبد القادر حليمي: **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830**، ص 284.

البحرية[1].

وقد أوكلت صناعة السفن للأعلاج خاصة الهولنديين منهم، فقد شكلوا اكبر الصناع ومهندسي السفن تعلموا صناعتهم في الضفة الشمالية، وبذلك فقد أدخلوا تقنيات حديثة في هذه الصناعة كما تميزوا بتحكمهم في الملاحة[2]، إضافة إلى العنصر الأندلسي الذي كان له دور كبير في بناء السفن [3]، كما أصبح في مدينة الجزائر منذ منتصف القرن 17م مصاهر لصب المدافع مما وفر هذا النوع من السلاح الذي تجهز به السفن[4].

ومجمل القول أنه بالرغم من المنافسة التي كانت تعاني منها الصناعة بمدينة الجــزائر من المنتجات التي كانت تأتي بها السفن والقوافــل القادمة من تونس والمغرب الأقصــى وأروبا، فقد كانت تغطي الاحتياجات المحلية .[5]

أما النشاط التجاري للمدينة فقد عرف ازدهارا كبيرا منذ أواخر القرن 16م حتى أن التمكروتي وصفها بإسطنبول الصغرى [6]، فقد كانت مدينة الجزائر مركزا تجاريا هاما وسوقا رئيسيا للإيالة حيث ينتقل إليها فائض إنتاج مقاطعات البياليك الأخرى[7]، فعلاوة على المحاصيل الفلاحية في الساحل ومتيجة تنقل إليها غلال وادي الشلف، البويرة وأصواف المنطقة الصحراوية[8]، إضافة إلى أخشاب بلاد القبائل والتين، والزيتون، والزيت، الشمع والفحم ويحمل إليها من فحص المدينة الخضر والفواكه والزبدة والسمن والعسل والحبوب[9]

---

[1]- أرزقي شوتيام: **المجتمع الجزائري وفعالياته أثناء الحكم العثماني(1519-1830)**، ص48.

[2]- جون وولف:« رياس البــحر» **مجلة الدراسات الــتاريخية**، ترجمة أبو القــاسم سعد الله، بجامعة الجزائر، العدد3 1987، ص 54.

[3]- A .Devoulx: **l'article précédent**،p251.

[4]- جون وولف: **المقال السابق**، ص 55.

[5]- مارسيل اميرت: «الأحياء التجارية بمدينة الجزائر في العهد العثماني»، **قانون أسواق مدينة الجزائر**، ترجمة ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الاسلامي بيروت، 2006، ص 161.

[6]- التمكروتي: **المصدر السابق**، ص 128

[7]- الشويهد: **المصدر السابق**، ص 29.

[8]- عبد الرحمن الجيلالي وآخرون، **تاريخ المدن الثلاث**، ص 187.

[9]- الشويهد: **المصدر السابق**، ص .29

أما مع الجنوب فقد لعبت فئة الميزابيين دورا أساسيا في تنشيط تجارة المدينة مع تامبكتو سواء عن طريق غدامس ليبيا أو تافيلالت بالمغرب الأقصى، حيث أوكلت لهم مهمة تصدير بضائع إفريقيا من تبر وريش النعام والتمور والعبيد إلى مدينة الجزائر[1]، أما قوافل قسنطينة فتحمل إليها المواشي والحبوب وبعض المنتجات التونسية كالشاشية والبرنوس التونسي[2] فقد كانت مدينة الجزائر قبلة للتجار برا وبحرا، ونظرا لموقعها الاستراتيجي الهام فقد شكلت هذه المدينة نقطة انتقال للقوافل القادمة من تونس[3]، حيث يعتبر تجار الجرابة من أكثر التجار نشاطا بها حيث كان لهم سوق تحمل اسمهم بمدينة الجزائر وقد اشتهروا بصناعة الفخار.

ومع بداية القرن 17م كان الغزو البحري قد عـــرف أوجه وأصبـــح جزءا مهما من اقتصاد المدينة[4]، حيث اشتهرت بمداخيل القرصنة التي كان يحصل عليها البحارة من الإغارة على السواحل الاسبانية[5]، وأصبحت مدينة الجزائر قوية تتوفر على كميات وفيرة من الذهب[6]. وما ميز المعاملات التجارية لمدينة الجزائر خلال القرنين17و 18م وخلافا لما كان سائدا في القرن 16م هو وجود اتفاقيات تسير التجارة مع الدول المسيحية وهذا ما جعل المدينة ترتبط بهذه الدول بنمطين من التعامل التجاري هما:

النمط الأول: فيقوم على الحرب البحرية أو القرصنة ضد الدول المعادية للجزائر التي لا تربطها بها أي اتفاقية، وقد ارتقت القرصنة إلى مستوى مؤسسة اجتماعية مدعمة من الدولة لها قوانينها[7]، التي عرفت عصرها الذهبي (1580–1640) ومن المستحيل تقديم

---

[1]- عبد القادر حليمي: **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830م**، ص 241.

[2]-E. Vayssette: **Histoire de Constantine sous la domination turques** ، présentation: Ouarda Siari Tangour, éditions média plus, Constantine, 2011,p32 .

[3]- عائشة غطاس وآخرون:« تجار مغاربيون بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني » **دراسات وشهادات مهداة إلى الدكتور أبو القاسم سعد الله**، جمع إخراج ناصر الدين سعيد وني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 360.

[4]- عبد القادر حليمي: **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبيل 1830**، ص 299.

[5]-Jeronimo Conestaggio: **op . cit**, p10.

[6]- المنور مروش: **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني**، ج2، دار القصبة للنشر الجزائر، 2009، ص41.

[7]- شوفاليه: **المرجع السابق**، ص 40.

أرقام مضبوطة عن الناتج السنوي لهذه القرصنة في عهدها الذهبي ولكن التقدير بأنه قد يتجاوز أحيانا نصف مليون من القروش الأشبيلية [1]، فهذا النمط الاقتصادي قائم على تجارة العبيد المسيحيين وملئ الأسواق بالبضائع والغنائم[2]، ولا يمكن تحديد نوعية الغنائم بدقة فهي تتمثل أساسا في المواد التجارية المتداولة في البحر المتوسط كالخشب والرخام والسكر والعتاد الحربي والقماش، ففي خلال خمس جولات قام بها رايس حميدو ما بين 20 جويلية إلى 13 ديسمبر سنة 1798 غنم ستة مراكب من اليونـــان ونابولي محملة بالتبغ والزجـــاج والألواح القمح والشـــاشية الجـــلود البلاستيك، الورق، الصابون ومواد أخرى قدرت قيمتها بـــ644 384 فرنك.[3]

وكانت كل الأطراف المشاركة في عملية جلب الغنائم تأخذ نصيبها فهي تقسم على مجهزي المراكب، الرياس ،البحارة، الداي وموظفي الميناء[4]، وتوجد بالمرسى مخازن الجمرك تحفظ بها السلع التي تعود للدولة كحصص من الغنائم البحرية التي تقدر بالخمس[5]، أما بقية الغنائم فيشتريها التجار بالجملة ثم توزع على تجار التجزئة بالمدينة بسعر مرتفع وهذا ما حقق للتجار أرباحا طائلة [6]، فقد كانت كل النشاطات الصناعية التجارية المنبثقة عن القرصنة تشغل ربع القوة العاملة بالجزائر؛ إذ توفر القرصنة حوالي4000 وظيفة تشغل من 15إلى 17ألف عامل من سكان المدينة [7]. لذلك أنشأت في مدينة الجزائر من 8 إلى 10

---

[1]- المنور مروش: **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني**، ج1، دار القصبة للنشر الجزائر، 2009، ص 70.

[2]- عبد القادر حليمي، **مدينة الجزائر نشأها و تطورها قبيل 1830**، ص 287.

[3]-A .Devoulx: **Le rais Hamidou (notices biographique célèbre corsaire algérien du XIIIe siécle l'hégire)**, présentation: Abderrahmane Rebahi livres éditions 2007,pp67-68.

[4]-A. Devoulx:«Registre des prises maritimes» ,in **R.A**, N.° 17 , Alger, 1872 p70.

[5]- الشويهد: **المصدر السابق**، ص75.

[6]- كمال بن صحراوي: **المرجع السابق**، ص76.

[7]- المنور مروش: **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني**، ج2، ص203.

مخازن للقمح مخصصة للسفن القرصانية [1]، وهكذا وبفضل الغنائم أصبحت مدينة الجزائر من أغنى المدن، كما أنها أصبحت في ذات الوقت من ألذ أعداء الدول المسيحية[2].

النمط الثاني: يقوم على التبادل التجاري مع الأقطار الإسلامية ومع الدول التي ترابطها بها علاقات سلم وصداقة وإن كانت غير دائمة مرهونة باتفاقيات ومعاهدات.

أما صادرات المدينة فتتمثل في ريش النعام والشمع الأحمر، الجلود، والنحاس الأثــواب الصوفية والتــمور، والأسرى المسيحيين، والأحزمة والمناديل المطرزة والأغطية الصوفية[3]، وترسل إلى مارسيليا الحرير ولوازم الخياطة والخيوط المذهبة والفضية، كمــا تصدر الجزائر لدول أوربية أخرى الجلود والقمح والمرجان[4]. وتنطلق سنويا من اثنين إلى ثلاث سفن من الحجاج قاصدين مكة مرورا بمدينتي تونس والإسكندرية[5]، كما تصدر الجزائر لدول أوربية أخرى الجلود والقمح والمرجان والقمح وتستورد المدينة الفولاذ والقصدير والرصاص وحبال الســفن، القرمزية، الشب والأرز، الصابون القطن، الصمغ والعسل، الفواكه المجــففة[6].

وتحمل مراكب مــارسيليا إلى مدينــة الجزائر السكر والقهوة والحديد والمشط والحرير وتأتي من ليفورنة مراكب محملة بالقماش الألماني الموسلين الهندي، الفولاذ، الأشرطة الملونة، كؤوس الكريستال والمرايا وقليل من السكر والتوابل[7] إضافة إلى أخشاب البرازيل[8]. ويدخل إلى مدينة الجزائر مركب واحد من الباب العالي يأتي القماش القطني والحريري ومن سالونيك يأتي القماش الحريري المدعو" دلوك" يستخدم في صناعة الملابس الداخلية

---

[1]- Anonyme: **Aperçu historique statistique et topographique sur l'état d'Alger a l'usage de l'armée expéditionnaire d'Afrique** rédigé au dépôt général de la guerre، douzième édition, Paris,1830,p207.

[2]- ميشال آبار:« الجزائر في القرن السابع عشر من خلال رحلة اسكتلندي» **مجلة الثقافة**، ترجمة: حنفي بن عيسى العدد3، 1971، ص48.

[3]-De Tassey: **op.cit**. p295 .

[4]-Venture de Paradis:**op.cit**. p30.

[5]-Rozet et Carette: **l'Algérie,** édition firmin didot frère, Paris,1850,p294.

[6]-De Tassey: **op, cit**. p295.

[7]- Venture de Paradis:**op.cit**. p30.

[8]-De Tassey: **op.cit**. p295.

والسراويل، إضافة إلى مخمل بروسيا.[1]

وبناء على ما سبق فكيفما كانت هـذه المعاملات التـجارية سواء عن طريق الاتفاقيات أو عن طريق القرصنة، فقد جعـلت مدينة الجزائر غنية ومزدهرة حيث وفرت لها مداخيل ضخمة تتمثل فيما يلي:

أ - **الدنوش وعوائد القياد**[2]: حيث قدر de Tassey العوائد التي يقدمها ثمانية عشر قائد من ضواحي مدينة الجزائر بـــ 50000 بياستر[3].

ب- **الضرائب المباشرة على الأفراد**[4]: وتتمثل في الجزية على أهل الذمة القاطنين بمدينة الجزائر، وحسب الأب دان فإن الجزية السنوية التي دفعها اليهود قد وصلت 6000 قطعة ذهبية في الربع الثاني من القرن 17[5].

ج- **الرسوم** : تدفع إلى أمين الأمناء الذي يتولى دفعها إلى خزينة الدولة[6]، وفي نهاية القرن 18م انتشرت ظاهرة التهرب من دفع المكوس من طرف التجار والحرفيين[7] .

د- **مردود الأملاك العقارية**: تقدر أملاك البايلك بخمس ألاف بناية بمدينة الجزائر والتي يقدر ثمنها بأربعين مليونا من الفرنكات آنذاك إضافة إلى عائدات التركات، الأحباس وأملاك الوقف[8].

ه- **عائدات الاحتكار التجاري**: وهي الأرباح التي تعود من المواد الأولية المحتكرة من طرف

---

1 - Venture de Paradis:**op.cit**. p29 .

2 - H.L.fey: **Histoire d'Oran avant pendant et après la domination espagnole** ,typographie Adolphe Perrier éditeur , Oran, P275.

3 - D. Tassey: **op.cit**. p292.

4 - ناصر الدين سعيدوني: **النظام المالي للجزائري في العهد العثماني (1800-1830)**، ص 23.

5 - Dan: **op, cit** , p83.

6 - ناصر الدين سعيدوني: **النظام المالي للجزائري في العهد العثماني (1800-1830)**، ص 23.

7 - عبد الرزاق بن حمادوش: **لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال**، تقديم وتعليق وتحقيق: الدكتور أبو القاسم سعد الله، ط خ، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص114.

8 - ناصر الدين سعيدوني: **النظام المالي للجزائري في العهد العثماني (1800-1830)**، ص 104.

الدولة [1] القمح، الماشية، الزيت والصوف[2].

و- الإتاوات الهدايا والترضيات: تساهم الأموال العائدة من الإتاوات والهدايا القوى الأوربية بدخل محترم للخزينة مقابل ضمان حرية الملاحة خلال العصر الذهبي للأسطول الجزائري في القرن 17، وتدفع في شكل أدوات الحرب وتموينات بحرية بضائع كأخشاب أو أموالا نقدية إذا تعلق الأمر بافتداء الأسرى أو تجديد قنصلها بمدينة الجزائر، حيث تدفع انجلترا مثلا 600 جنيه إسترليني كلما جددت قنصلها[3].

ز- المداخيل المترتبة عن المعاملات التجارية الداخلية والخارجية:

ز$_1$- المداخيل المترتبة عن المعاملات التجارية الداخلية: وتتمثل في الرسوم المفروضة على السلع التي تخرج وتدخل من وإلى مدينة التي تدفعها القوافل التجارية من مختلف مناطق الإيالة، وتختلف هذه الرسوم حسب السلع والبضائع المتداولة[4].

ز$_2$- المداخيل المترتبة عن المعاملات التجارية الخارجية: وتتمثل في الرسوم الجمركية المفروضة السلع والبضائع تصدرها أو تستوردها مدينة الجزائر من خارج الإيالة برّا أو بحرا وتشبه رسوم الجمارك في تنوعها واختلاف مقاديرها رسوم المكس على الأسواق، فعلى كل سلعة موظف يراقب دخولها وخروجها لأسواق المدينة [5] عند باب الجزيرة، حيث يختلف ما يأخذه الجمرك عن كل قنطار من المواد المستوردة [6] كما يختلف ما يأخذه الجمرك عن كل قنطار من المواد المصدرة من مدينة الجزائر إلى مختلف الدول [7]، وحسب قانون

1- **المرجع نفسه**، ص111.

2- De fontaine de Resbecq: **Alger et les côtes d'Afrique**, bibliothèque instructive et amusante, Paris , 1832 , p208.

3- يحي بوعزيز: **علاقات الجزائر الخارجية علاقات الجزائر الخارجية مع دول ومماليك أوروبا (1500-1830)** ط خ، دار البصائر للنشر والتوزيع، ، الجزائر، 2009، ص 241.

4- الشويهد: **المصدر السابق**، ص49.

5- ناصر الدين سعيدوني: **النظام المالي للجزائر في العهد العثماني(1800-1830)**، ص 109.

6- الشويهد: **المصدر السابق**، ص47-48.

7- **المصدر نفسه**، ص49.

أسواق مدينة الجزائر الذي يعتمد على سجلات لمدينة الجزائر تعود إلى سنة 1650 فان رسوم التصدير تساوي ثلث رسوم الاستيراد، كما أن الجمرك لا يأخذ سوى 1% من السلع المصدرة، وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما ورد في قانون أسواق مدينة الجزائر فان رسوم الجمركية على الواردات لم تكن تتعدى 3% فقط من منتصف القرن 17م إلى أوائل القرن 18م وهذا مـــا يتناقض مع ما أورده دوتاسي De Tassey من أن الرسوم المترتبة عن إدخـــال السلع وصـــلت إلى12.5% و2.5% علـــى إخراجها ،كما حصل الانجليز والفرنسيون على تخفيضات وصلت إلى 5% على الدخول، و2.5% على الخروج ابتداء من سنة 1715[1]،كما أن الأوروبيين يدفعون نفس القسط مع المسلمين المقدر5 % في حين يدفع اليهود 12.5 %[2]، إذا أخذنا بعين الاعتبار الكميات الضخمة من السلع التي وجدت بمدينة الجزائر خلال القرن 18م، حيث أصبح المدينة تعج بالسلع الأوروبية والتونسية والفاسية، والتي قضت إلى المنتوج المحلي وحولت المدينة إلى مجرد سوق استهلاكية مرتبطة بالقافلة والميناء، نجد أن الرسوم الجمركية كانت أقل بكثير مما أورده دوتاسي وفانتور دو بارادي، وبل تتطابق مع ما أورده الشويهد وبما أن ميناء مدينة الجزائر يتميز عن بقية موانئ الإيالة أنه ذو وظيفتين وظيفة تجارية ووظيفة قرصانية جهادية، فإن الرسوم المفروضة في الميناء تختلف باختلاف الدول وعلاقتها بالجزائر.

أما بالنسبة لحقوق الرسو بميناء الجزائر فيدفع البحارة المسلمون مقابل الرسوم في ميناء الجزائر تصل إلى 20 بياستر، أما البحارة المسيحيون فيدفعون 40 بياستر إذا كانت على علاقة سلم مع الإيالة، أما إذا كانت في حالة حرب تدفع 80 بياستر وقد تحتجز حال وصولها إلى الميناء[3]، بالإضافة إلى الهدية التي تقدم إلى قائد المرسى المسماة بحق البشماق المقدرة ب4 ريالات[4]، يضاف إليها المبالغ التي تدفعها السفن مقابل إرشادها بفنار المرسى

[1] -De Tassey: **Histoire de royaume d'Alger**, A Amsterdam ,p292.

[2] -Venture de Paradis:**op.cit**. , p30.

[3] -De Tassey: **op.cit**., p292.

[4] - Rozet et Carette: **op ,cit**,p299.

وتقدر هذه الضريبة ب12 فرنك عن كل سفينة[1].

ب- الأوضاع الاقتصادية بمدينة تونس:

لقد كان لاستقرار العنصر الأندلسي بمدينة تونس تأثير كبير على الحياة الاقتصادية بالمدينة، حيث أدخلوا زراعات وصنائع جديدة لم تعرف من قبل وقد أشار ابن أبي الدينار إلى ذلك بقوله:«...و مهدوا الطرقات بالكراريط وصاروا يعيدون من أهل البلاد...»[2]، خاصة وقد وفر لهم عثمان داي كل الإمكانيات ليضعوا معارفهم لفائدة تونس التي وفرت مناخا ملائما لكفاءتهم أكثر من أي مكان آخر.[3]

أما في المجال الفلاحي فقد غرسوا الكروم والزيتون والبساتين [4] حيث تحيط بالمدينة على مسافة أربعة أميال إلى ستة أميال بساتين زيتون عديدة، تنتج كمية عظيمة من الزيت [5] غير أن الإنتاج الزراعي بضواحي المدينة كان ضعيفا وذلك لقلة الماء والآبار[6] الذي أثر سلبا على النشاط الزراعي، أما في أوقات الحرب فينقطع الإنتاج تماما الأمر الذي يؤدي إلى ارتفاع الأسعار في أسواق المدينة وأشار الوزير السراج إلى ذلك بقوله: «...وانقطاع تعاطي الفلاحة عن أهلها بجميع أنواعها من البرين والزيت والسمن وجميع الثمار والفواكه، وعلو السعر... [7]» أما في أوقات الأمن فإن الوضع يتغير وقد أشار الورتيلاني إلى ذلك حين مر بها في القرن18م بقوله :«...وبالجملة فإن تونس خيرها عظيم .. واسعة الإنفاق، جالبة الأرزاق كثيرة الفواكه في جميع الأوقات بلا كلفة ولا مشاق... » [8]، ومعظم سكان مدينة تونس يشتغلون في الحرف اليدوية المتوارثة كصناعة العطور والخياطة وصناعة

1- A. Devoulx: **Tachrifat ,** imprimerie du Gouvernement, Alger , 1852 p45.

2- ابن أبي الدينار: **المصدر السابق**، ص228.

3- عبد الجليل التميمي: **دراسات في التاريخ الموريسكي الأندلسي**، ص30.

4- ابن أبي الدينار، **المصدر السابق**، ص228.

5- ج. او .هابنسترايت: **المصدر السابق**، ص115.

6- حسن حسني عبد الوهاب: **خلاصة تاريخ تونس**، الدار التونسية للنشر 1983، ص135.

7- الوزير السراج: **المصدر السابق**، ص542.

8- الورتيلاني:**المصدر السابق**، ج3، ص328.

النسيج التي عرفت ازدهارا كبيرا[1] بتزايد عدد الأندلسيين بحاضرة تونس أوائل القرن 17م أنشئوا أسواقا للحرف التي جلبوها معهم[2] ، وبثوا في المدينة صناعتهم كنسج الحرير ونقش الرخام والجبس والزليج وصناعة الشاشية[3] التي امتازت بها مدينة تونس دون سواها[4]، فقد ازدهرت صناعة الشاشية الشهيرة في النصف الأول من القرن 17م بفضل الأندلسيين الذين طردوا من اسبانيا سنة1609 حيث استقبلت المدينة الآلاف منهم، وأصبحت الشاشية تسوق على نطاق واسع إلى المشرق الإسلامي بأجمعه[5] وقد أشار إلى ذلك ابن أبي الضياف بقوله:«...فبنوا بالحاضرة "حومة الأندلس" ... ومهدوا طرقها لمرور عجلات الكريطة التي هي من صناعتهم، وأعانهم عثمان داي على صناعة الشاشية، التي كان لها سوق نافقة في كثير من البلدان... وحصل للحاضرة من وراء هذه الصناعة ثورة واسعة لأنها صناعتها تدير صناعات عديدة...»[6]، ولعل السر في جودة الشاشية التونسية ورواجها هو اعتمادها على الصوف الاسباني[7]، ونظرا للثروة الطائلة التي جاءت من وراء هذه صناعة أنشأ بمدينة تونس سنة 1691 ثلاثة أسواق للشواشي من أحسن الأسواق وأضخمها[8].

وباعتبار مدينة تونس مركز مهم من مراكز الجهاد البحري في الحوض الغربي للبحر المتوسط، فقد اهتم باياتها بصناعة السفن وتطوير الأسطول لتسخيره في المهام التجارية والجهادية، غير أن هذه الصناعة المهمة لم تقم بمدينة تونس إلى أواسط القرن18م حيث أنشأت أول سفينة بها سنة1764 وقد أشار بن أبي الضياف عن ذلك بقوله:«... وفي سنة 1764-1765 تم إنشاء سفينتي حرب بحلق الوادي جرهما إلى الماء في يوم مشهود حضره

---

[1]- الوزان، **المصدر السابق،** ج2، ص74-75.

[2]- حسن حسني عبد الوهاب: **المرجع السابق،** ص163.

[3]- عمر ركباني: **خلاصة التاريخ التونسي،** ط4، مطبعة التليلي، تونس 1949، ص61.

[4]- الصادق أبو سرور: **المرجع السابق،** ص63.

[5]- محمد الهادي الشريف: **المرجع السابق،** ص75.

[6]- ابن أبي الضياف: **المصدر السابق،** ج2، ص35.

[7]- Venture de Paradis: **op**. **cit**. p . 3.

[8]- بن أبي الدينار: **المصدر السابق،** ص560.

الباي ورجال دولته والسفن الحربية تصنع بحلق الوادي ...»[1] فقد عمل حمودة باشا على تطوير صناعة السفن وتجديد جميع المراكب بالمصنع الجديد بحلق الوادي، وهذا سمح بتطور أسطول تونس عدة وعددا لسببين هما: بناء سفن جديدة في المصنع البحري بحلق الوادي، والسبب الثاني هو اختطاف السفن الأجنبية على قراصنة تونس[2].

كما يوجد بمدينة تونس مصنعين للبارود، إضافة إلى مصنع آخر للقذائف[3]، ويظهر من ذلك أن حمودة باشا قد اهتم كثيرا بتحسين القدرات الدفاعية لتونس وذلك لمواجهة التدخلات الأجنبية خاصة من الجزائر.

أما النشاط التجاري فقد عرفت المدينة حركية تجارية نشيطة منذ أواخر القرن16م وقد تحــدث عن ذلك التمكروتي الذي مر بها سنة 1595 بقوله :«... تونس مدينة عــظيمة دار علم وتجارة وفيها مساجد عامرة بذكر الله، وأسواق عامرة بفضل الله مفيدة... »[4] وازدادت تجارة المدينة ازدهارا خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن 17م،نظرا للاستقرار السياسي الذي عرفته المدينة في عهدي عثمان داي ويوسف داي والمتزامنين مع توافــد الأندلسيين الذين أحيوا عدة أسواق كســوق الخضر[5] وسوق الشواشي وسوق العــزافين، سوق السراجين، سوق البشماقين[6]، سوق البركة (العبيد) سوق الجرابة، وباب البنات وسوق الترك[7] بالإضافة إلى سوق العطارين[8]، غير أن الأسعار بأسواق تونس عرفت مضاربات خطيرة تبعا للأحوال السياسية السائدة، ففي عهد محمد داي بلغ صاع القمح

[1] ابن أبي الضياف: **المصدر السابق**، ج2، ص208.
[2] رشاد الإمام: **المرجع السابق**، ص221.
[3] **المرجع نفسه**، ص216-217.
[4] التمكروتي: **المصدر السابق**، ص41.
[5] أ- جي- بريل: **المرجع السابق**، ص2481.
[6] السراج: **المصدر السابق**، ص427-442-440.
[7] ابن أبي االدينار، **المصدر السابق**، ص230.
[8] محمد بن عثمان الحشائشي: **تاريخ جامع الزيتونة**، تحقيق: الجيلالي بن الحاج يحي، ط3، دار نهى للطباعة والنشر تونس، 2006، ص61.

نصف ريال فكان مبلغ القفيز ستة وتسعين ريالا، وفي نفس العهد انخفض ثمن القفيز إلى أربع ريالات وأقل من ذلك[1].

أما التجارة الخارجية للمـــدينة فقد كانت واسعة ، وتتمثل صادرات مدينة تونس في الشاشية التي تصـــدر إلى المـــشرق والجزائر والمغرب واســـطنبول، كما تصدر القمح، الزيت والحرير وتستورد المدينة الصوف الاسبـــاني المستخدم في صناعة الشاشية والأصبغة القرمزية، البن، السكر البهارات والثياب والكتان [2]، و كانت هذه التجارة تتم مع أقطار مختلفة كمصر، اسطنبول والجزائر واسبانيا.

أما خلال القرن18م فقد حافظت مدينة تونس على طابعها التجاري خاصة وقد ازدهرت بها صناعة النسيج [3]، غير أن أغلب معاملاتها كانت تتم مع ليفورنه حيث تصدر تونس ريش النعام بكثرة، وذلك أن يهود مدينتي الجزائر وتونس عملوا على ربط اقتصاد المدينتين ليفورنه [4] ، أما العلاقات التجارية للمدينة مع بريطانيا وفرنسا قد عرفت ازدهارا كبيرا خلال القرن 18م[5]، حيث حصلت الدولتين إلى تخفيضات هامة في الرسوم الجمركية وأصبحت لا تدفعان سوى 3 مقابل 5% لبقية الدول الأجنبية بما فيها الدول الإسلامية[6].

أما الجهاد البحري فله أهمية كبيرة في اقتصاد المدينة، فقد أصبح موردا مهما منذ استقرار الحكم العثماني بهاسنة 1574، وأصبحت القرصنة الجهادية تدفع إلى سوق مدينة تونس الآلاف من الأسرى المسيحيين، وكميات ضخمة من السلع المغنومة التي تمون تجارة رابحة بها[7] وازدادت أهميتها بعد استقرار العنصر الأندلسي بالمدينة سنة 1609، والمتزامن مع حكم عثمان داي الذي كان شجّع القرصنة نظرا لما كانت تدره من غنائم ضخمة بفضل

---

[1] ابن أبي االدينار، **المصدر السابق**، ص250.

[2] رشاد الإمام: **المرجع السابق**، ص286 -287.

[3] محمد الهادي الشريف: **المرجع السابق**، ص76.

[4] كمال بن صحراوي: **المرجع السابق**، ص84.

[5] محمد الهادي الشريف: **المرجع السابق**، ص83.

[6] رشاد الإمام: **المرجع السابق**، ص296.

[7] محمد الهادي الشريف: **المرجع السابق**، ص73.

البحارة الأتراك والأندلسيين، وقد خص عثمان داي فئة الأندلسيين من البحارة من ضريبة الدخول إلى الميناء والتي تقدر بـــ 100 إيكو لكل سفينة وكذا كل الضرائب الأخرى لمدة 3سنوات[1]. أما تجار تونس فيشترون الغنائم من مرسى حلق الوادي بالجملة، ثم يعيدون بيعها في أسواق المدينة بأسعار مرتفعة فيربحون ربحا عظيما[2]، وقد تحدث بن أبي الضياف عن ذلك بقوله:«...وهو أول من أتخذ الأساطيل والسفن الكبار للغزو في البحر، السعادة في ذلك، وامتلأت أيديهم بالمغانم...»[3] واستمر الرخاء طيلة القرن 17م، ففي عهد يوسف داي(1610-1637) بلغت عدد المراكب الجهادية في البحر خمسة عشرة مركبا من الكبار.[4]

وقد أشار ابن ابي الدينار إلى أهمية الجهاد البحري كمورد أساسي لأهالي مدينة تونس أثناء حديثه عن الفتنة بين أحمد شلبي والأخوين علي باي ومحمد باي 1686 بقوله:«...أهل تونس مع حصرهم وأخذ مراكبهم وحصون البحر التي هي أعظم مستندهم...»[5] وذلك أن أهل المدينة يشاركون في تجهيز المراكب الجهادية بالمال غير أن ذلك لا يطبق إلا أوقات الرخاء[6]

وبناء على ذلك فإن مدينة تونس بالرغم من فتنها السياسة، وأزمتها الاقتصادية فقد كان مركزا جهاديا بامتياز في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

1- عبد الجليل التميمي: **دراسات في التاريخ الموريسكي الأندلسي**، ص30.

2- محمود مقيدش، **المرجع السابق**، ص90.

3- ابن أبي الضياف، **المصدر السابق**، ج2، ص35.

4- محمود مقيدش، **المرجع السابق**، ص90.

5- السراج، **المصدر السابق**، ص 542.

6- **المصدر نفسه**، ص 408.

3- الأوضاع الاقتصادية بمدينة سلا:

إن الإمكانيات الزراعية لمدينة سلا محدودة، فمعظم أراضيها قاحلة لا تصلح للإنتاج الزراعي، وقد تحدث الوزان عن ذلك بقوله: «... وضواحي سلا كلها رملية ...»[1] ويتضح من ذلك أن أراضي سلا يغلب عليها الطابع الرملي، وهذا ما يفسر ضعف إنتاجها الزراعي إذ ينحصر في بعض الخضر والفواكه كالأعناب والقطن[2]، وقد تدهورت الزراعة أكثر بعد وفاة المنصور سنة 1603 نتيجة انعدام الأمن وشيوع الفوضى في المزارع والحقول الأمر الذي أدى إلى قلة الإنـــتاج الزراعي والحيواني، وانتشار الأوبئة والأمراض والمجاعات منذ العقد الأول من القرن17م، وهذا ما يفسر ارتفاع أسعار القمح والسمن واللحوم بمدينة سلا[3].

أما الإنتاج الصناعي فقد عرف ازدهارا كبيرا مع استقرار العنصر الأندلسي بمدينـــة سلا باعتبارها المدينة الأطلسية الوحيدة التي سلمت من الاحـــتلال البرتغالي، وفقد كان تأثير الأندلسيين ايجابيا في الصناعة، حيث اشتهروا بصناعات عديدة كصناعة الشـــاشية والسجاد وحرفة الحدادة، الخزف والأحذية، كما أسهموا إسهاما كبيرا في صناعة الأسلحة في أواخر العهد السعدي[4]، حتى أن أهل الصنائع من الأندلسيين فاقوا أهل البلاد وقطعوا معاشهم وأجملوا أعمالهم وصيروهم أتباعا لهم، ومتصرفين بين أيديهم، ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة وافرغوا فيه من أنواع التجديد ما يميلون به النفوس إليه[5]، ذلك أن أنـــدلسي سلا كانوا قد حملوا معهم فنون الأندلس وجددوها[6]،كما سيطروا على مختلف الصناعات خاصة الصناعة النفيسة[7].

---

[1] الوزان: **المصدر السابق،** ج1، ص208.

[2] المقري: **المصدر السابق،** ج6، ص06.

[3] القشتالي: **المصدر السابق،** ج2، ص 253.

[4] عمار ابن خروف: **المرجع السابق،** ص27.

[5] الناصري: **المرجع السابق،** ج2، ص 214.

[6] عثمان الكعاك: **المرجع السابق،** ص 56.

[7] محمد داوود: **المرجع السابق،** م3+4، ص47.

ونظرا لضخامة إنتاج القطن بمدينة سلا، فإن معظم سكان المدينة حائكون يصنعون ثيابا قطنية، إضافة إلى صناعة المشط .

أما صناعة السفن فقد كانت موجودة بالمدينة حتى أوائل القرن17م، حيث أظهر المنصور السعدي عناية كبيرة بالجهاد البحري، خاصة وقد كان للجزائر والقسطنطينية أساطيل بحرية مجهزة ومسخرة في المصالح التجارية والحربية. لذلك أحيا المنصور الصناعة السلاوية وجدد ما انثر منها، وعكف بناء أسطول قوي استعمله في نقل جيوشه بين الثغور والقيام بالحركة القرصانية والتجارية في البحار[1]، وقد أشار إلى ذلك القشتالي بقوله:«... وأما له أيده الله من المآثر الشريفة في الجهاد ... اتخاذ الأسطول برباط سلا أمنة الله فتعددت مراكبه ... ويقضي به بوظيفته الجهادية دينه بما اتيح لسيوفه المظفرة من الاستيلاء على المماليك السودانية المعنية بخراجها المستبحر، ومعادن الذهب على التوسع في الإنفاق الذي لا يخشى معه عيلة ولا فقر وبالسواد الأعظم المستاق من رقيقها على تسخير المجاديف الثقيلة بالأساطيل.... » [2]، غير أن صناعة السفن قد عرفت تراجعت كثيرا في سلا بعد الاحتلال الاسباني لغابة المعمورة سنة 1614 والتي كانت مصدرا للخشب نظرا لقربها من المدينة[3]، وبالرغم ذلك فإن صناعة السفن قد استمرت بسلا إلى غاية الثلث الثاني من القرن 18م بفضل الدعم الذي تلقته هذه الصناعة من العثمانيين الذين وجهوا عنايتهم لإرسال أساتذة من الجزائر وتونس وطرابس مختصين في بناء السفن وبعثوا برسالة إلى المولى إسماعيل 1696تدعو إلى إقامة مع الجزائر[4]، وقد أشار الزياني إلى ذلك بقوله:«... وكانت صناعة السفن قد جلبت الى المغرب من رجال طرابلس وتونس والجزائر فمن تونس الصبونجي، وابن قاسم ولد رمضان ومحمد المنجي ومحمد التونسي ومن الجزائر محمد المستغانمي وأحمد القسنطيني وأحمد بن قلوعة، وقد تمكن أهل سلا والرباط بعدها من إنشاء سفينتهم الكبرى

[1] **المرجع نفسه**، م3+4، ص260.

[2] القشتالي، **المصدر السابق**، ج2، ص 245.

[3] الوزان، **المصدر السابق**، ج1، ص209.

[4] عبد الجليل التميمي، «العلاقات الثقافية بين استنبول والمغرب الأقصى خلال العصر الحديث»، **المجلة التاريخية المغاربية**، العدد57-56، الشركة التونسية لفنون الرسم، 1990، ص566.

ذات الصواري سنة 1761 التي انفق على إنشائها أربعين قنطارا من الذهب...» .[1]

وهنا نتساءل عن مصدر الخشب الذي تم استخدامه في صناعة السفن طيلة العقود التي تلت الاحتلال الإسباني لغابة المعمورة سنة 1614، خاصة وأن المدينة قد عرفت في هذه الفترة بالذات أوج الازدهار في القرصنة الجهادية وبالتالي الحاجة الماسة إلى أكبر عدد ممكن من السفن لاستعمالها في حركتها التجارية والجهادية، وعلى الأرجح أن يكون مصدر هذه الأخشاب من هولندا التي كانت تربطها علاقات تجارية قوية مع سلا، أو من حمولات الأخشاب المغنومة أو إعادة استعمال ألواح السفن المغنومة في بناء سفن جديدة على غرارها ما كان جاريا من الجزائر[2].

وقد حاول السلطان سيدي محمد بن عبد الله أن يحي دار الصنعة التي كانت تنتج المراكب الجهادية، غير أن أهـــل سلا اشترطوا دارا مكلفة فأعـــرض عن ذلك، وبعث معـــلمي الرمي إلى الرباط أين كان يعلم الطبـــجية من أهل سلا والرباط، وبعث معلمي المراكب إلى سلا[3]، وأمر السلطان بعدها بإنشاء سفينة لأهـــل سلا وأخرى لأهل الرباط وأخرى مشتركة بينهما[4] لتوارث أهل العدوتين لهذه الصناعة قبل أن تندثر من جديد[5] .

أما التجارة السلاوية فقد تأثرت بالوضع العام بالمغرب الأقصى، الذي أصبح يعيش أزمة سياسية واقتصادية عقب وفاة المنصور سنة1603، فبالإضافة إلى الانقسامات السياسية تراجعت تجارة العبيد والذهب مع المماليك السودانية، خاصة وقد كانت سلا مركزا للإنزال فقد سخرها المنصور للوظائف الجهادية سواء مع مماليك السودان أو للإغارة على جـــزر الكناري والسواحل الاسبانية والعـــودة بالغنائم[6]، وقد زادت أهميـــة المدينة كمركز للجهـــاد البحري بعد استـــقرار مسلمي الأندلس بها سنة1609 واحتلال الإسبان لغابة

[1] أبو القاسم الزياني: **المصدر السابق**، ص17.

[2] راجع: ص60.

[3] محمد داوود: **المرجع السابق**، م1+2، ص268.

[4] السلاوي: **المصدر السابق**، ج8، ص12.

[5] محمد داوود: **المرجع السابق**، م1 +2، ص268.

[6] راجع: ص74.

المعمورة بجوار المدينة سنة 1614،واستقرار المجاهد أبي عبد الله العياشي بها، ونظرا لتوتر العلاقات السياسية بين أهل سلا وسلاطين المغرب السعديين بعد عجزهم استرجاع الأندلس وتحرير الثغور المغاربية، فقد لجأ السلاويون إلى توطيد علاقاتهم مع بحارة الجزائر والخروج معهم في حملات مشتركة، وخاصة وأن الأتراك العثمانيون في الجزائر قد تمكنوا من تحرير كل الثغور المغاربية التي دخلت في مدارهم. وبذلك فإن اقتصـــاد مدينة سلا أصبح موجها إلى البحـــر، يعتمد بشكل شبه كلي على مداخيل القرصنة الجهادية، التي عرفت عصـــرها الذهبي خلال الثلثـــين الأولين من القرن 17م.

ومع تأسيس الجـــمهورية السلاوية سنة 1627، سارعت الدول الأوربية للاعتراف بها وتقديم الدعم لها، واستجلاب العدة والعتاد والحربي وما تجهز به السفن القرصانية، وسعت لفداء الأسرى أو مبـــادلاتهم[1]، وفي3 سبتمبر سنة 1630 عقدت سلا أول معاهدة اقتصادية في تاريخها مع الفرنسيين تتضمـــن توقيف أعمال القرصنة، وتحرير الأسرى وكذا إعادة الغنائم[2] ويتضح من ذلك أن الدول الأوربية أصبحت تبحث عن وضع حد للقرصنة السلاوية التي أصبحت تعرقل التجارة الأوربية، فقد سعت فرنسا إلى تطبيق ما جاء في معاهدة سان جرمان مع المولى إسماعيل سنة1727، المتعلقة بفداء الأسرى عن طريق التعويض المالي غير أن السلطان المغربي كان حريصا على افتداء الأسرى المغاربة حتى لا تتعطل سفنه القرصانية[3]، هذه المعاهدات التي كثيرا ما كانت تخترق من طرف القراصنة السلاويين، نظرا لما تشكله الغنائم كمورد أساسي لاقتصاد المدينة، هذا المعقد الوضع أفرز توترا سياسيا غالبا ما كان ينتهي بمبادلة الرسائل وزيارات السفراء بين الطرفين، أو بمظاهرات حربية أمام مرسى سلا باعتبارها مركز للقرصنة وملجأ الأساطيل البحرية[4].

ويبدو أن الدولة الأوربية الوحيدة التي كانت تربطها علاقات تجارية جيدة مع سلا

---

[1] الناصري: **المرجع السابق**، ج3، ص269.

[2] E Rouad de Card: **op, cit**, p104.

[3] الناصري: **المرجع السابق**، ج3، ص70.

[4] **المرجع نفسه**، ج3، ص269.

هي انجلترا التي عقدت معها علاقات تجارية في وقت مبكر، حيث أرست أول رحلة تجارية انجليزية بمرسى سلا في ماي سنة 1626 محملة بالبضائع[1]، كما حصلت على امتيازات تجارية واسعة خلال 18م أهمها الامتيازات التجارية التي منحها السلطان1782ـــ للتجار الانجليز بمرسى سلا ومراسي أخرى من المملكة العلوية و المعروف بسوق الفريشك حيث حصلوا على تخفيضات هامة[2].

أما مداخيل المدينة فهي عديـــدة ومتعددة باعتبارها العاصمة التجارية للمملكة منذ القرن 16[3]، أهمها:

أ- **الضرائب الشرعية**: تتمثل في الزكاة والعشور والخمس والجـــزية المفروضة على أهل الذمة.

ب-الضرائب غير الشرعية: فهي كثيرة كالنائبة وضريبة الإرث والمنا وتتمثل هذه الأخيرة في المؤن التي تدفعها كل القبائل للجيش، فقد كانت مدينة سلا تمثل مركزا لتجميع هذه الضريبة من كل أنحاء المغرب منذ أوائل القرن 17م[4] .

ج- مداخيل الجباية: تتمثل في الرسوم المفروضة على السلع والبضائع المنـــقولة إلى المدينة برا وبحرا، وقد عرفت هذه الرسوم تخفيضا كبيرا في عهد المنصور بحيث أصبحت لا تتجـــاوز 10% على الواردات في المغرب وأقل من ذلك عن الصادرات منه[5]، في جميع المراسي المغربية بما فيها سلا، وقد أشار المقري إلى وجود قائم على جباية الضرائب على السلع المنقولة إلى المدينة في أبواب المدينة قائلا: «... وأمر الشيخ الوزير ... بأن يجدد له ما بيـــده من الأوامر المتضمنة تمـــشية خمسمائة دينار ... لنظره في مجبي مدينة سلا حرسها الله

[1] محمد داوود: **المرجع السابق**، م1 +2، ص216.

[2] **المرجع نفسه**، م 5+6، ص280-281.

[3] الوزان: **المصدر السابق**، ج1، ص208.

[4] محمد مزين: **فارس وباديتها مســـاهمة في تاريخ المغرب الســـعدي(1549-1637)**، ج2، ط1، منشـــورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 1986، ص 490.

[5] عمار بن خروف: **المقال السابق**، ص78.

من كل شـــر، من حيث جرت العـــادة أن يتمشى له ورفع الاعتراض ببابها فيما يجلب من الآدم والأقوات على اختلافها من حيوان وسواه، وفيما يستفيذه خدامه بخارجه وأحوازها من عنب وقطن كتان وفاكهة وغير ذلك...»[1].

وابتداء من سنة 1627 تاريخ تأسيس الجمهورية السلاوية استأثرت حكومتهم الجديدة بمداخيل الجباية، واكتفوا بدفع ضريبة سنوية للسلطان في شكل أموال أو غنائم حتى يغض الطرف عنهم[2].

وابتداء من النصف الثاني من القرن 17م دخلت مدينة سلا في المدار العلوي على يد المولى الرشيد وبالرغم من خضوعها للنظام الجبائي للدولة، فأنها حافظت على مكانتها كمركز تجاري وجهادي تسير منه كل المراسي الأطلسية كآسفي والعرايش والصويرة وأوكلت مهمة إدارته إلى أهل الثقة من أهل سلا، وقد أورد ابن زيدان في هذا الصدد:«... أننا لما أحببناه وليناه أمر المرسى المباركة المحفوظة بحفظ الله مرسى سلا حرسها الله وأسندنا إليه النظر في أحكامها وتصرفاتها وأعمالها في جميع أحوالها مفوضا إليه النظر في أحكام التجارة. وكذلك أسندنا إليه النظر في الفلائك التي يعبر بها إلى العدوتين بجميع منافعها وخارجها توليه تامة،...»[3]، أما عائدات الجباية للمدينة فتبلغ إلى بيت المال مقابل أجر يتقاضاه والي سلا[4].

د- الغنائم: لقد عرفت القرصنة الجهادية نشاطا كبيرا خلال القرن 17م مما أدر على المدينة غنائم ضخمة، فالمصادر لم تحدد قيمة الغنائم بالضبط باعتباره مورد غير قار خاصة تجارة الأسرى التي بلغت أوج ازدهارها في عهد الجمهورية السلاوية التي خاضت حملات واسعة على السواحل الأوربية وعادت بغنائم ضخمة تصب كلها في خزينة حكومتها الجديدة، بينما تقدم سنويا المختارات من الغنائم للسلطان كترضية[5]. لينتكس هذا النشاط

1- المقري: **المصدر السابق**، ج6، ص06.

2- R.Coindreau :**op**. **cit**, p87.

3- ابن زيدان: **المصدر السابق**، ص257-258.

4- **المصدر نفسه**، ص257.

5- R. Coindreau: **op**. **cit**, p42.

من جديد في عهد الدلائيين[1]. أما في العهد العلوي فإن المولى إسماعيل كان حريصا كل الحرص على الغنائم وافتداء الأسرى، وبعث بتوصيات إلى ولاته بسلا في شأن الاحتفاظ بغنائم القرصان[2].

ومجمل القول أن الحياة السياسية بمدن: الجزائر، تونس وسلا خلال القرنيين (17 – 18م) قد تميزت بسيطرة طبقة سياسية معينة وتتفق هذه الفئات الحاكمة في توجهات سياستها الخارجية حيال الدول المسيحية القائمة على الجهاد البحري، كما أن التماثل في التشكيلة الاجتماعية للمدن الثلاث قد ساعد على خلق نسق اجتماعي متكامل ومنسجم أدى إلى نشوء علاقات مثمرة على جميع الأصعدة بينها، كما أن تماثل الأنشطة الاقتصادية بهذه المدن قد ساهم في توجيه اقتصادها إلى النشاط البحري القرصني بهدف سد العجز الحاصل في بعض المنتجات. وبالتالي فقد شكلت هذه المراكز الجهادية ثالوث تجاري عرف حركية نشيطة بين أقطابه، مثّلت مدينة الجزائر مركزها الرئيسي.

1- **Ibid**. p57.

2- ابن زيدان: **المصدر السابق**، ص 258.

الفصل الثاني:

العلاقات التجارية بين مدينتي الجزائر وتونس كمراكز للجهاد البحري خلال القرنين 17 و18م

أولا: العوامل المتحكمة في العلاقات التــجارية بــين المدينتين

ثانيا :طرق التعــامل التــجاري.

ثالثا : العملة المتداولة في المعاملات التجارية.

رابعا: الحالة الأمــنية بالــطرق و المســـالك.

خامسا: الطــرق والمواصــلات ووسائلها.

إن الباحث في العلاقات التجارية بين مدينتي الجزائر وتونس يجدها قائمة منذ انتصاب الحكم العثماني بهما، وتوطدت أكثر بعد ظهورهما كمركزين جهاديين مغاربيين ينشطان ضمن المدار العثماني، وتمكنهما من فرض هيمنتهما على الطرق البحرية بالحوض الغربي من البحر المتوسط طيلة القرن 17 وأوائل القرن 18م.

وبالرغم من أن العلاقات التجارية بين المدينتين قد تأثرت بعوامل داخلية وخارجية أثرت بدورها في قوة وضعف العلاقات التجارية بينهما التي مرت بمراحل للازدهار وأخرى للأفول إلا أنها لم تصل إطلاقا إلى حد الانقطاع .

أولا: العوامل المتحكمة في العلاقات التجارية بين مدينتي الجزائر وتونس كمراكز للجهاد البحري خلال القرنين 17 و18م

1- العوامل الطبيعية:

تعتبر العوامل الطبيعية كالموقع والمناخ والتضاريس من العوامل المؤثرة في العلاقات التجارية بين أية دولتين أو مدينتين، فكل من مدينتي الجزائر وتونس تقعان في شمال إفريقيا تطلان بواجهة بحرية على الساحل الجنوبي للبحر المتوسط، ولا شك أن الموقع البحري لمدينتي الجزائر وتونس قد ساعد إلى حد كبير الأتراك العثمانيين على بناء أسطول قوي تهابه السفن الأوربية سواء التي كانت تقوم بالقرصنة أو بالتجارة[1]، فموقع المدينتين المنفتح على البحر المتوسط، وعلى القارات الثلاث قد عرف حركة تجارية دؤوبة بين ضفافه، وتصب فيه مختلف السلع والبضائع خاصة بعد ازدهار التجارة الأوربية مع المشرق[2].

فالموقع الجغرافي الممتاز لمدينتي الجزائر وتونس قد ساعدهما على التحكم في جزء واسع من الحوض الغربي للبحر المتوسط وأجزاء واسعة من حوضه الشرقي، فمدينة الجزائر تقع على نقطة الوسط للطريق البحري الواصل بين بترت وجبل طارق، وتبعد جزيرة مايورقة

[1] راجع:ص3، 6.

[2] كمال بن صحراوي: **المرجع السابق**، ص 131.

وهي إحدى جزر البليار بحوالي 300 كلم عن ميناء مدينة الجزائر، وأقرب رأس من اليابس الأوروبي إليها هو رأس دولا ناو De la Nao بشبه الجزيرة الإيبيرية، والتي تبدو محتضنة للطرف الغربي من الحوض الغربي للبحر المتوسط، وقد كان لهذا الموقع أثر كبير على الحوادث التاريخية خلال العهد العثماني، والذي كان نقطة انطلاق لأشهر الحملات الإسبانية على مدينتي الجزائر وتونس من السواحل الشرقية لشبه جزيرة أيبيريا[1].

فموقع مدينة الجزائر ساعد على الاشتغال في البحر[2]؛ حيث مكنها من مراقبة الخطوط الملاحية الرئيسية الرابطة بين جبل طارق من الغرب ومضيق تونس صقلية من الشرق [3] كما سبق الذكر، وبذلك فقد أصبحت مدينة الجزائر بمثابة رمز حقيقي لقاعدة الطليعة العثمانية التي أقيمت في مواجهة البلدان المسيحية[4].

أما مدينة تونس فتقع على الطريق الجنوبي من مضيق صقلية [5]، إذ لا يفصلها عن جزيرة صقلية سوى أقل من 140كلم، وعن جزيرة سردينيا أقل من 200كلم، حيث تقع على نفس الخط مع جنوب شبه الجزيرة الأيبيرية وجزيرة البيلوبوناز(جنوب اليونان)، وقد كانت بموقعها هذا على إحدى ضفتي مضيق صقلية قاعدة مهمة للسيطرة حوض البحر المتوسط[6] الأمر الذي مكنها من مراقبة مدخله الغربي وصولا إلى سواحل البحر الأدرياتيكي وجزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط كقبرص، وبالتالي تأمين الطرق البحرية بين اسطنبول ومختلف المراكز العثمانية في شمال إفريقيا، خاصة وأن حلق الوادي شكل قاعدة هامة لمراقبة البحار الضيقة بين نهايات شرق وغرب المتوسط[7].

---

[1]- عبد القادر حليمي: **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبيل 1830**، ص39.

[2]- **المرجع نفسه**، ص40.

[3]- عزيز سامح التر: **المرجع السابق**، ص18.

[4]- وليام سبنسر: **المرجع السابق**، ص17.

[5]- عبد القادر حليمي: **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830**، ص38 .

[6]- محمد الهادي الشريف: **المرجع السابق**،ص8 .

[7]- عبد القادر حليمي: **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830**، ص38 .

فموقع المدينتين فريد تماما بالنسبة للمدن العربية الكبيرة، حيث تطلان على شاطئ البحر المتوسط في مواجهة الدول المسيحية التي تقع على الشاطئ الشمالي لنفس البحر، وقد قامت بينهما وبين هذه الدول علاقات وطيدة على أساس التبادل (التجارة) أو الحرب البحرية (القرصنة)[1].

ومن خلال الموقع الجغرافي لمدينتي الجزائر وتونس يظهر التكامل بين خطوط الاتصال البحري بينهما، وفي تلك الخطوط كما هو واضح تشابه، ترابط، تواصل وتداخل وهذا خلق صلات تجارية نشيطة بين المركزين الجهاديين، وصراعا مستمرا مع أوروبا، وأكسب المراكب الجزائرية والتونسية قوة ومكنتها من الهجوم والانسحاب إلى أقرب مركز جهادي وهي سالمة غانمة[2]، وذلك بالرغم من التذبذب الذي تركته العلاقات السياسية العاصمتين المتنافستين خلال بعض الفترات.

ومن هذا المنطلق فإن الاستراتيجية العثمانية في المنطقة كانت قائمة على تشكيل جيش بحري فعال ليضاهي النجاح المطرد لجيوش البر العثمانية في شرق أوروبا، لذلك أعطت لموانئها بالمغارب كالجزائر وتونس أفضل الإمكانيات لتطوير هذه السياسة بالشكل الذي يضمن للدولة العثمانية التغلب على أعدائها المسيحيين[3] .

و بذلك فقد مكن الموقع الجغرافي الممتاز للمدينتين على الساحل الجنوبي للحوض الغربي للمتوسط من تجسيد السياسة العثمانية القائمة مقارعة المسيحيين في هذه المنطقة الإسلامية المعرضة للخطر الصليبي، سمح بهيمنتها على كل الطرق البحرية بالبحر المتوسط والتحكم في التجارة الأوربية طيلة قرنيين كاملين.

2- العوامل البشرية:

كما فصلنا في الفصل السابق، فإن التركيبة الاجتماعية لمدينتي الجزائر

[1] أندري ريمون: **المرجع السابق**، ص41 .

[2] وليام سبنسر: **المرجع السابق**، ص50.

[3] جون وولف : **المرجع السابق**، ص50-73.

وتونـــس تتميز بالتنوع والتماثل من حيث العناصر السكانية المتمثلة أساسا: في الأندلسيين، العـــنصر التركي الكراغلة، العلوج، الأسرى، اليهود، السكان الأصليين[1]، وكل فئة من هذه الفئات تهتم بالجهاد البحري بالرغم من اختلاف دوافعها من وراء ممارسة هذا النشاط، فخلال القرن 16م كان هذا النشاط يحركه الوازع الديني بالدرجة الأولى، ثم أصبح ابتداء من القرن17م يستند إلى دوافع اقتصادية إذ أصبحت هذه الفئات تسعى من وراءه إلى أنشطة اقتصادية مثمرة[2].

أما الأتراك العثمانيون فقد اعتنقوا الجهاد بعاطفة شديدة [3]، فمنذ استقرارهم في مختلف المدن المغاربية كمدينتي الجزائر وتونس تحملوا مهمة الدفاع عنها، وأصبح الإسبان إزاء ذلك في موقع المدافع عن أرضه اتجاه الهجمات التي شنها الجزائريون والتونسيون، وألحقوا بهم خسائر فادحة، فغدت سواحلهم شبه مهجورة [4].

وعلى ضوء ذلك يمكننا القول أن الأتراك العثمانيين قد مارسوا مهمة جهادية أثناء وجودهم بالمدينتين ، وشاركوا ســكان المنطـــقة في جهادهم طيلة القرنين (17 -18م) فاستحقوا بذلك تقديرهم، وأصبحوا ينظرون للأتراك العثمانيين على أنهم أخوة لهم في الدين الإسلامي[5]. وقد اعتلى كل من الأتراك العثمانيين والكراغلة قمة الهرم في الحياة السياسية بالمدينتين، وقد ساهم هذا الوضع في توحيد التوجه السياسي والاقتصادي بينهما إلى القرصنة الجهادية.

وأكثر ما ميز القرن 17م ، التدفق البشري الهائل الذي عرفته مدينتي الجزائر وتونس من الأندلسيين مقارنة مع بقية مدن الإيالتين، وحسب ما أورده المقري فإن الألوف من هؤلاء الوافدين إلى مختلف المدن المغاربية عقب قرار الطرد الجمـــاعي الذي أصدره الملك

---

[1] جون وولف : **المرجع السابق**، ص50-73.

[2] أندري ريمون: **المرجع السابق**، ص41.

[3] وليام سبنسر : **المرجع السابق**، ص11.

[4] عزيز سامح التر : **المرجع السابق**، ص18.

[5] **المرجع نفسه**، ص18.

الإسباني سنة1609[1]، قد تعرضوا للاضطهاد، السلب والنهب من قبل السكان المحليين ماعدا بنواحي مدينتي الجزائر وتونس أين لقي الأندلسيون ترحيبا كبيرا [2].

وعلى ضوء ذلك يمكن القول أن مدينتي الجزائر وتونس قد استقطبتا أكبر عدد من الأندلسيين النازحين، أين وجدوا أعظم ترحيب بهما، بعدما كانوا في وضع مزري متشبعين بالحقد على الإسبان[3]، لذا استخدمهم الأتراك العثمانيون في أعمال القرصنة الجهادية للمدينتين واستفادوا من خبرات هؤلاء المهاجرين سفنهم، وكسبوا أصدقاء جدد لهم رغبة جامحة في استرجاع الأندلس المفقود، لذلك أبدوا شجاعة وبسالة في الجهاد البحري وساعدهم على ذلك معرفتهم اللغة الإسبانية، وكذلك معرفتهم بمداخل شبه الجزيرة الإيبيرية وسواحلها[4].

أما السكان المحليون بمدينتي الجزائر وتونس سواء كانوا عربا أو بربر فقد عرفوا الجهاد البحري قبل مجيء الأتراك والأندلسيين، ومارسوه لعقود طويلة، ويذكر ابن خلدون في هذا الصدد:«... فمن المشتهر بين أهل المغرب عن كتب الحدثان أنه لا بد للمسلمين من الكرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الإفرنجة، وأن ذلك يكون في الأساطيل، والله ولي المؤمنين...» [5].

وتقدم مدينتا الجزائر وتونس مثلا صارخا للتنوع السكاني بسبب انفتاحهما على الجزء الغربي من البحر المتوسط، مما أضفى عليهما صفة العالمية، الأمر الذي أسهم في تطور المدينتين خلال القرن17م من خلال ازدهار النشاط البحري الذي صاحبه تدفق أعداد كبيرة من الأعلاج على المدينتين حيث ازداد عددهم بشكل كبير خلال القرن 17م وحققوا نجاحا كبيرا في الأعمال البحرية، حيث أصبح أغلب القباطنة بمدينتين من الأعلاج

---

[1]- راجع : ص45-50.

[2]- عزيز سامح التر : **المرجع السابق،** 325.

[3]- محمد عبد الله عنان : **المرجع السابق،** ص111.

[4]- عزيز سامح التر: **المرجع السابق،** ص99.

[5]- ابن خلدون : **المصدر السابق،**ص262 .

حيث لعبوا في الواقع دورا هاما في حروب القرصنة، على غرار وارد ward الإنجليزي المعروف بالريّس يوسف الذي يعود إليه الفضل في إنشاء البحرية التونسية، وعلي بتشينو piccinino الإيطالي الأصل والذي تقلد رئيس طائفة الرؤساء بمدينة الجزائر، ويتضح من ذلك أن العديد من الأعلاج قد حصلوا على وظائف سياسية أوصلتهم إلى أعلى المناصب في الدولة، على غرار مراد كورسو مؤسس الأسرة المرادية (1612-1632)[1]، وبذلك ساهمت فئة العلوج في توحيد التوجه الاقتصادي للمدينتين نحو الجهاد البحري.

وعلى ضوء ما سبق فإن تماثل النسق الاجتماعي بين مدينتي الجزائر وتونس قد أسهم بشكل كبير في استمرار العلاقات التجارية بين الحاضرتين، سواء عن طريق التجارة النظامية أو عن طريق الجهاد البحري بالرغم من المنافسة السياسية بين عاصمتي الإيالتين، فقد اعتبر الجهاد البحري شكلا من أشكال التنافس بينهما لإرضاء الباب العالي، وقد لعبت هذه الفئات الاجتماعية دورا كبيرا في تجسيد هذا التوجه، بل تجاوزت هذه الصراعات السياسية لتوحيد الجهود على المستوى المغاربي لمواجهة القوة المسيحية وضربها في عقر دارها[2]، إذ لم يكن التونسيون يختلفون في شعورهم عن الجزائريين اتجاه العالم المسيحي فبالرغم من تضارب مصالحهم أحيانا، إلا أنهم وحدوا موقفهم في هذه الكوارث التي حلت بالمسلمين في عمومهم فحاولوا الرد عليها بالانتقام من المسيحيين كلما أمكن لهم ذلك[3].

وحسب ما يدّعيه الأب دان فإن سكان هذه المدن لا يشجعون شيئا أكثر من ممارسة القرصنة، وضرب السفن المسيحية وتسخير كل قواتهم وذخيرتهم لهذا الغرض[4]، وذلك بالرغم من أن هذه الفئات الاجتماعية لم تحظ بنفس الامتيازات في كلتا المدينتين إذ سيطر العنصر التركي الخالص أو الكرغلي على معظم الامتيازات بالمدينتين، بينما تم إقصاء بقية الفئات الاجتماعية الأخرى مما خلق صراعات مستمرة على مستوى الهرم الاجتماعي في كل

---

[1]- أندري ريمون: **المرجع السابق**،ص42 .

[2]- زكريا العابد: **المرجع السابق**، ص27 .

[3]- ج.أو .هابنسترايت: **المصدر السابق**، ص 104.

[4]- Dan: **op .cit** ,73.

مدينة[1] .

غير أن هذه الفئات الاجتماعية من قمة الهرم الاجتماعي إلى قاعدته كانت لها نفس التوجهات اتجاه العالم المسيحي[2]، حتى أن الأب دان بقي مندهشا كيف أن البحارة القراصنة من مدينتي الجزائر وتونس ومراكز جهادية أخرى من المغارب، يقفون بشكل مدهش ضد المسيحيين، ويكنون لهم العداء على حد سواء، بالرغم من الفرقة وعدم توازن القوى بينهم[3].

ولعل أكبر دليل على أن التماثل في التركيبة الاجتماعية له دور في خلق نوع من التقارب بين المركزين، أنه أثناء الحرب الحدودية الأولى بين إيالتي الجزائر وتونس 1628 لجأ الفريقين إلى تكوين لجنة دبلوماسية للصلح بينهما تتكون من العرب والترك والأندلسيين.

3- تذبذب العلاقات السياسية بين مدينتي الجزائر وتونس طيلة القرنين 17و18م.

كما تم التفصيل في الفصل الأول، فإن قرار السلطان العثماني سنة 1589 القاضي بفصل كل من تونس وطرابلس عن الجزائر، وفقدان مدينة الجزائر مكانتها كعاصمة قطرية للمغارب في عهد علج علي[4]، لتظهر مدينة تونس مع مطلع القرن 17م كمركز سياسي لإيالة تونس منافس لمدينة الجزائر، الأمر الذي خلق صراعات سياسية بين المدينتين تمثلت أساسا في تدخلات الجزائر المستمرة في الشؤون السياسية لمدينة تونس وتدعيم أحد الأطراف المتنازعة بها فكثيرا ما كان تنصيب وخلع بايات تونس يتم على يد حكام الجزائر[5]، لذلك حرص حكام الجزائر على المحافظة على التفوق العسكري على بايات تونس، وأبقت على صلات التعاون وتبادل المصالح لضمان الدعم العسكري بالشكل الذي يسمح لها بتجديد قوتها وعتادها الحربي، الأمر الذي زاد الفتنة اشتعالا بين أتراك تونس وأتراك الجزائر هو أن

[1] راجع : ص45- 49.

[2] التر : **المرجع السابق**، ص55.

[3] Dan: **op .cit** ,32

[4] راجع : ص39.

[5] السراج : **المصدر السابق**، ص377.

الجزائريين كانوا يدعون أن بايات تونس يجب أن يكونوا تابعين لمركز الجزائر، بينما يدعي التونسيون أن علاقتهم رأسا مع الباب العالي وأنهم متساويين في ذلك مع الجزائريين[1].

وبناء على ذلك فإن العلاقات التجارية بين المركزين المتنافسين قد عرف ازدهار عند تنصيب بايات موالين لباشا الجزائر، وتتميز هذه العلاقات بتبعية تونس لمدينة الجزائر[2] باعتبارها المركز الرئيسي للجهاد البحري في شمال إفريقيا الأكثر قوة وهيبة [3]، أما في حالة تنصيب بايات مناهضين لبشوات الجزائر وتتراجع العلاقات التجارية والجهادية بين المدينتين وربما اقتصرت على تنفيذ الأوامر السلطانية نظرا لسعي كل طرف إلى إرضاء الباب العالي[4].

ولقد أدت الخلافات الناشبة بين أوجاق الغرب خاصة بين الجزائر وتونس إلى لفت انتباه اسطنبول، فأمرتهم بترك هذه المنازعات والالتفات إلى الوفاق والتحاب، ولم تكن أساطيل أوجاق الغرب تعطى نقودا مقابل المشاركة مع الأسطول العثماني في حروبه، غير أن الديوان الهمايوني قرر أن يقدم لهم ترضيات تهدف إلى لم الشمل بينهم، حيث يقدم لهم بعد اشتراكهم وعودتهم إلى بلادهم سبعة آلاف قطعة ذهبية لكل من تونس وطرابلس الغرب، وثلاثون ألف قطعة ذهبية الجزائر، وأرسل خلعا فخرية للرياس.[5]

وقد ترجمت هذه الإجراءات العثمانية مدى تشرب المسؤولين السياسيين العثمانيين خلال القرنين (17 -18م)، ومدى قناعتهم وتشبثهم بعقيدتهم الإسلامية، وعليه فإن الدفاع عن المسلمين أينما وجدوا جغرافيا قد حدد التزامهم السياسي والديني المطلق دون أية خلفية حول أوضاع المسلمين الاجتماعية أو أعراقهم، وهذا ما يبرر أهمية القرارات التاريخية التي تبنتها الدولة العثمانية المركزية لمجابهة الأحداث والصراعات السياسية التي عرفتها الساحة

---

[1] أحمد توفيق المدني : **محمد عثمان باشا داي الجزائر**، ص46.

[2] Paul Masson: **Histoire des établissements et du commerce_française dans l'Afrique barbaresque (1560 – 1793),** (Algérie – Tunisie – Tripolitaine, Maroc), Librairies Hachette, Paris, 1903,p160.

[3] Dan :3, **op .cit** 2.

[4] عزيز سامح إلتر :**المرجع السابق**، ص592.

[5] **المرجع نفسه**، ص432.

المغاربية من الدعاية لإصلاح ذات البين،[1] وإعطاء الأولوية لأمهات قضايا المسلمين والدفاع عنهم وتوحيد الجهود لمواجهة الحملات الصليبية، والعمل على مقارعة العدو جنبا إلى جنب برا وبحرا تحت راية الجهاد، وهذا ما جعل مدينة الجزائر كعاصمة لدولة مستقرة وقوية في شمال إفريقيا قد مثلت إلى جانب مدينتي تونس وطرابلس طرف القوة العثمانية القاطع والمنهمك في مقارعة الصليبية ضد المسيحية كالشفرة الحادة بعمق التراب المسيحي[2] .

ويمكن القول أنه بالرغم من التأثيرات التي تركتها المشاحنات السياسية بين البلدين بسبب المنافسة السياسية بين العاصمتين، إلا أن الروابط الثقافية والاجتماعية كانت أقوى والتي أدت إلى توحيد سياستهما الخارجية في معاملاتها مع الدول المسيحية عن طريق تفعيل الحملات الجهادية المشتركة، ومختلف المعاملات التجارية بين هذين المركزين الجهاديين العثمانيين المهمين في شمال إفريقيا.

4- استمرار الصراع في البحر الأبيض المتوسط:

لقد كان سقوط الأندلس صدمة عظيمة للعالم الإسلامي، والذي جاء كرد فعل انتقامي للدول المسيحية على سقوط القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين؛ فعندما كسب الإسلام مراكز في الشرق فقد مراكز هامة في الغرب، إذ ظهرت المسيحية في غرب البحر المتوسط تنهض بقوة وتدفع بالإســـلام في الاتجاه الآخر، ووجدت في المغارب غنيمة سهلة[3]، ومع وصول المد العثماني إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط ودخول الجزائر في مداره، ظهرت مدينة الجزائر كقوة بحرية تولت مهمة تحرير المدن المغاربية المحتلة على طول الساحل المغاربي الممتد من مدينة الجزائر إلى غاية طرابلس[4]، وبدخول القرن 17م تغيرت الظروف السياسية والاقتصادية ســـواء في الشمال الأوروبي أو في المغارب، ولم يكن قد تم

---

[1] عبد الجليل التميمي: **دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن 16م** ، ص30.

[2] ويليام سبنسر: **المرجع السابق**، ص9.

[3] غييرمو غوثالبيس بوستو: **المرجع السابق**، ص 23-24.

[4] راجع :ص89.

التوصل بعد إلى حل نهائي لمشكل القرصنة في الحوض الغربي للبحر المتوسط[1] .

أما في الشمال الأوروبي، فإن الدول الأوروبية قد تراجع اهتمامها بالقرصنة كنشاط اقتصادي، خصوصا بعد التطور الصناعي الهائل الذي عرفته وازدهار تجارتها مع الشرق، لذلك سعت حكومات الدول الأوروبية البحرية مثل فرنسا، إيطاليا، وإنجلترا وهولندا إلى العمل بعنف وشدة لإنهاء القرصنة في البحر المتوسط بهدف حماية مصالحها التجارية بالمنطقة[2].

أما على الساحل المغاربي، فقد ظهرت مراكز ثانوية للجهاد البحري تعمل إلى جانب مدينة الجزائر كمدينتي تونس وطرابلس، وأصبح الوضع خلال17م، مغايرا تماما فبعدما كانت هذه المراكز في القرن 16م في حالة دفاع عن أرضها ضد الاعتداءات والتحرشات الأوروبية التي اتخذت في المرحلة هذه صبغة الحملات الصليبية، انتقلت هذه المراكز الجهادية أواخر هذا القرن إلى مرحلة الهجوم والتتبع، وأخذت قواتها البحرية تضرب أوكار القراصنة الأوربيين على شواطئ بلدانهم، وأصبحت حكوماتهم تسعى لتأمين طرقها التجارية بالمال المعاهدات وتبادل الأسرى[3]، وقد تجددت الروح الجهادية ضد المسيحيين مع مطلع 17م بعد صدور قرار الطرد النهائي لمسلمي الأندلس وخروج آخر الدفعات خلال سنتي (1609–1610)، واستقر عدد كبير منهم بمدينتي الجزائر وتونس كما أسلفنا الذكر، وزاد الأمر خطورة تعرض مدينتي الجزائر وتونس لهجمات الدول البحرية الأجنبية التي كانت تتنافس في ذلك الوقت على النفوذ في البحر المتوسط خاصة فرنسا وإنجلترا وهولندا وجنوه[4].

وفي هذا الإطار فإن القوى الأوروبية أصبحت أقل اهتماما بالقرصنة؛ إذ مع تطور الأنشطة التجارية البحرية على طريق الشرق المعني أساسا بتجارة التوابل، أصبحت هذه

[1]– عبد الجليل التميمي : **دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن 16م** ، ص167.

[2] – E.Mersier: **op.cit, p244**.

[3]– يحي بوعزيز: **المرجع السابق**،ص26.

[4]– شوقي عطاء الله الجمل: **المرجع السابق**،ص103.

الدول أكثر تركيزا واهتماما لتأمين سلامة وأمن طرقها البحرية، وعليه قام القناصل ووسطاء القوى العظمى كفرنسا وإنجلترا وإيطاليا والدول الإسكندنافية بالإقامة بالعواصم المغاربية كمدينتي الجزائر وتونس، وسعوا إلى إجراء محادثات مع السلطات وعقد صفقات تتجدد تلقائيا للحصول على امتيازات قصد الحد من الهجمات التي يشنها البحارة ضد سفنهم البحرية [1]، خاصة فرنسا التي عملت على تدعيم مركزها في البحر المتوسط وفي الثغور الجزائرية والتونسية بالذات استنادا إلى معاهدتها مع السلطان العثماني المتضمنة احترام مراكبها في البحر [2]، وقد لعب الأتراك العثمانيون دورا كبيرا في إنجاح المساعي السياسية الفرنسية وسعوا لربط علاقات قوية مع الجزائر وتونس ليس لحماية التجارة المتوسطية فحسب، بل تحديدا لحماية التجارة نحو المشرق التي يبدو أنها لم تزد القرصنة إلا اشتعالا [3]، خاصة وأن الجهاد البحري قد ارتقى خلال القرن 17م من نشاط حربي إلى نشاط اقتصادي حرفي وأصبح المورد الأساسي لاقتصاد المدينتين.

ومن هذا المنطلق سعت القوى المسيحية إلى عقد صفقات ومحادثات مع كمدينتي الجزائر وتونس قصد الحد من الهجمات التي يشنها البحارة ضد سفنهم البحرية، مقابل إتاوات وهدايا يتم تقديمها بانتظام.

وكانت العلاقات الخارجية مدينة الجزائر أوسع مدى مقارنة مع مدينة تونس وأكثر تأثيرا في الحرب والسلم، هذا الوضع أكسبها صفة الزعامة واعترفت دول أوروبا لها بذلك، وأخذت تدفع لها الضرائب والهدايا أكثر مما تدفعه لتونس وطرابلس خلال القرنين(17-18م).

وعلى ضوء ما سبق فإنه لا شك أن الغرب يفتش على مصالحه من خلال تأمين طرق مواصلاته البحرية بأي ثمن كان [4] .

---

[1] عبد الجليل التميمي: **دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن 16م** ، ص169.

[2] شوقي عطاء الله الجمل: **المرجع السابق**، ص103.

[3] Paul Masson: **op:cit**,p6.

[4] عبد الجليل التميمي : **دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن 16م** ، ص 168-169.

هذا الوضع الصعب الذي كان يعيشه البحر المتوسط هو الذي دفع بحكام تونس والجزائر إلى الاعتماد الكلي على القوة البحرية[1]، الأمر الذي دفع الدول المسيحية البحرية إلى عقد سلسلة من المعاهدات مع مدينتي الجزائر وتونس خلال القرنين (17 -18م) .

أما القرن 17م فقد كان بداية لانعقاد سلسلة من المعاهدات والاتفاقيات مع فرنسا، إذ لم تسجل أية معاهدات قبل هذه الفترة بين فرنسا ومدينتي الجزائر وتونس ولا حتى في المراحل الأولى من الحكم العثماني، وتطورت أكثر هذه العلاقات بعد ازدهار الجهاد البحري، وتعرض التجارة الأوروبية لخسائر جسيمة خاصة في النصف الثاني من هذا القرن، لذلك سعت القوى المسيحية خاصة فرنسا التي سعت إلى وضع حد للقرصنة الجهادية المغاربية من خلال هذه عقد الاتفاقيات التجارية مع مدينتي الجزائر وتونس نورد بعضها من خلال الجدول التالي[2] :

	1663	1665	1666	1672	1683	1684	1685	1689	1691	1698	1699
مدينة الجزائر			+			+		+		+	
مدينة تونس	+	+		+	+		+		+		+

إن قراءة بسيطة لهذا الجدول، تبرز لنا قلة معاهدات السلم والتجارة الموقعة بين فرنسا ومدينتي الجزائر وتونس خلال النصف الأول من القرن السابع عشر وهذا يدل على أن النشاط البحري القرصني كان في أوج قوته بالبحر المتوسط، وهذا يشير إلى توحيد تام

[1] عمار عمورة : **المرجع السابق**،ص124.

[2] E .Rauad de Card :**op.cit ,** pp.104-105.

للاستراتيجية البحرية للقرصنة بين بحارة تونس والجزائر، وحتى الاتفاقيات والمعاهدات التي عقدتها الدول الأوروبية مع المدينتين خلال هذه الفترة، فقد تميزت بوحدة الموقف السياسي لحكامهما حيال الدول الأوروبية، كما تميزت هذه الفترة باستمرار التعصب الديني في البحر المتوسط[1]، حيث يذكر الأب دان في هذا الصدد أن الاتفاقية المنعقدة بين هولندا ومدينة الجزائر أوائل القرن 17م تسمح للسفن الهولندية بالرسو بميناء مدينة الجزائر بكل حرية وأمان، مقابل استظهار الهولنديين لجوازات سفرهم لحكام الجزائر وتونس على السواء، وتأكيد أن سلعهم غير موجهة لإسبانيا ويتعهدون بالتعاون مع بحارة المدينتين أثناء حربهم ضد إسبانيا وإيطاليا[2].

أما ابتداء من النصف الثاني من القرن 17م فقد ارتفع عدد الاتفاقيات المبرمة بين فرنسا وهذين المركزين الجهاديين، حيث بلغ أربع معاهدات مع مدينة الجزائر[3] في حين بلغ الضعف مع مدينة تونس أي ثمان معاهدات، وهذا يدل على أن هناك تحول أو تغير في السياسة الخارجية للمدينتين[4]، حيث أصبحت تونس تميل إلى عقد علاقات سلمية مع الدول المسيحية خاصة وأنها قد وجدت تجارة مربحة في الشاشية التي راجت مشرقا ومغربا وأصبحت تونس بدورها بحاجة إلى تأمين طرقها التجارية، بينما ظلت الجزائر منهمكة في الحروب ضد الدول الكبرى المسيحية كفرنسا وإسبانيا طوال القرن السابع عشر[5]، خاصة إذا علمنا أن هذه والمعاهدات المبرمة مع المدينتين تتضمن بنودا لها علاقة مباشرة بالجهاد البحري حيث تضمنت مراقبة أعمال القرصنة وتحرير الأسرى، إرجاع الغنائم، التجارة، الملاحة والسلم[6]، بما أن القرصنة كانت تشكل أساس نظمهم الاقتصادية والسياسية، فإن

1- عبد الرحمان الجيلالي : **تاريخ الجزائر العام**، ص301.

2- Dan : **op.cit,**p132.

3-E. Rouad de Card :**op. cit** .pp4-6.

4- **Ibid.** pp. 104-105

5- مولود قاسم نايت بلقاسم :**شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830**، ج1، ط2،دار الأمة، الجزائر 2007، ص83.

6-E. Rauad de Card: **op.cit**, p104-105.

رياس البحر بمدينتي تونس والجزائر لم يكونوا راضين على حكوماتهم لعقد هذه المعاهدات مع الدول الأوروبية، ففي مدينة الجزائر مثلا كانت تجرى في الديوان مرة واحدة على الأقل لمناقشة قضية اختيار الدولة التي يجب إعلان الحرب عليها حتى يمكن ملأ الخزائن الفارغة وفي أواخر القرن 18م أصبح الداي مضطر للسماح للقراصنة بالقيام بعمليات القرصنة بالاستمرار لكي يحتفظ برأسه.

ومن هذا المنطلق فإن سياسة الحكوميين بمدينتي الجزائر وتونس كانت تقوم على أساس قيام علاقات السلم مع بلد ما يكون متزامنا مع إعلان الحرب على بلد آخر، وقد كان رياس البحر من المدينتين يوجهون سفنهم إلى مختلف المناطق في البحر المتوسط للبحث عن السفن العدوة [1] .

وعلى ضوء الجدول السابق، يتضح جليا أنه في أغلب الفترات كان حكام المدينتين يعقدون معاهدات واتفاقيات الهدنة مع الدول الأوروبية في فترات مختلفة، ففي السنة التي تكون الجزائر في حالة حرب مع فرنسا تعقد تونس الهدنة معها، الأمر الذي دفع بالبحارة التونسيين إلى حمل الراية الجزائرية وجوازات سفر جزائرية أثناء الإغارة على السفن الفرنسية [2] خلال مشاركة السفن التونسية مع الأسطول الجزائري في حملاته الجهادية، مقابل الاستفادة بقسط من الغنائم [3]، ويحدث العكس عندما تكون فرنسا في حالة حرب مع تونس وهدنة مع الجزائر.

وبذلك فإن هذه المعاهدات التي عقدتها الدول الأوروبية مع مدينتي الجزائر وتونس ترمي إلى تأمين تجارتها، فقد استمر بحارة كل من تونس والجزائر بالتحكم في دواليب التجارة المتوسطية لعدة عقود نظرا لعدم احترامهم لهذه المعاهدات المبرمة بينهم وبين الدول الأوروبية[4].

[1] - إسماعيل العربي : **العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة الأمريكية(1776-1816)** المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1984،ص29.

[2] - E. Rouad de Card :**op.cit**. p117.

[3] - زكريا العابد: **المرجع السابق**،ص27.

[4] - Dan :**op.cit**.p124.

أما خلال القرن 18م فقد تضاعف عدد المعاهدات بين المدينتين وفرنسا، حيث تم عقد حوالي ثمان معاهدات مع مدينة الجزائر وإحدى عشرة معاهدة مع تونس، لم تتطرق هذه المعاهدات إلى القرصنة ما عدا معاهدة 16 جانفي 1764 بين فرنسا وتونس[1]، ويرجع ذلك أساسا إلى أن المدينتين قد وجدتا مداخيل جيدة من الرسوم الجمركية التي تدفعها الدول الأوروبية المتعاقدة معها، والتي سدت جزءا كبيرا من مصاريف الإيالتين، ووجدت فيها تعويضا ملائما لنشاط القرصنة[2]، خاصة بعد ازدهار التجارة بين مدينتي الجزائر وتونس مع الدول الأوروبية التي كانت تمر بفترة الثورة الصناعية، واتخذت من المغارب مجالا وسوقا لتفريغ منتجاتها، وبالتالي فإن الجهاد البحري كنشاط اقتصادي قد تراجع كثيرا وتفككت دواليب تجارته بين مراكزه ، التي تحولت إلى مجرد أسواق استهلاكية للسلع الأوروبية.

إلا أنه من جهة أخرى نؤكد على أن السلطة السياسية في مدينتي الجزائر وتونس لم تموقع المتغيرات السريعة الجيوسياسية والاقتصادية على الصعيد المتوسطي، وإنه انطلاقا من النصف الثاني من القرن 18م أخذت الأنشطة الاقتصادية للإيالتين تدخل في الأفول التدريجي والحتمي، أما أوروبا بعد انفتاحها على العالم سوف تصبح من خلال عقد الاتفاقيات والعقود سيدة تجارة المتوسط دون حروب أو عنف، ، فبعدما كان النشاط البحري أوائل القرن 17م في أيدي رياس البحر للإيالات الثلاث، فإنه قد تحول تلقائيا وبشكل هادئ إلى أيدي التجار الأوربيين بعد مرور قرن من الزمن[3].

5- العلاقات الاقتصادية بين مدينتي الجزائر وتونس :

إن العلاقات التجارية بين مدينتي الجزائر وتونس خلال القرنين (17-18م) قد تميزت بضعف المبادلات، ويعود ذلك أساسا لتشابه الإنتاج الزراعي والحيواني وتماثله بين المدينتين باعتبارهما مركز الإيالتين، فقد كانت كل مدينة مركز لتجمع مختلف منتجات الإيالة

1- Rauad de Card:**op.cit**.p104.

2- رشاد الإمام: **المرجع السابق**، ص280 .

3- عبد الجليل التميمي: **دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن 16م** ، ص170.

والمتمثلة أساسا في الجلود، القمح، الزيت، الأغنام، الأبقار والإبل[1]، وهذا يعود أساسا لتشابه المناخ والتربة والتضاريس، إضافة إلى تماثل النشاط الحرفي الذي استحدثه الأندلسيون الوافدون على المدينتين طيلة القرن16 وأوائل القرن17م، ونستثني من ذلك الشاشية التونسية التي وجدت لها سوقا نافقة في مدينة الجزائر نظرا لجودتها[2] كما سبق الذكر وصحيح أن المبادلات التجارية بين المدينتين لم ترق إلى درجة توقيع معاهدات واتفاقيات ولكنها ظلت قائمة على الرغم من المشاحنات السياسية بينهما وتسلط حكام الجزائر على تونس[3].

وبناء على ذلك فقد مرت العلاقات السياسية والاقتصادية بين المدينتين خلال الفترة المدروسة أي القرنين (17-18م) بمراحل مد وجزر، خاصة وأن مدينة تونس ظهرت كمركز مهم في المغارب نافس مدينة الجزائر من حيث المكانة السياسية والاقتصادية بالنسبة للأتراك العثمانيين. وبالرغم من ذلك فإن ما ميز القرن17م هو أن الجهاد البحري قد ارتقى في مدينة الجزائر من نشاط حربي إلى نشاط اقتصادي وأصبح مؤسسة حرفية[4]، اتخذت فيه مدينة الجزائر مركز الريادة بين المراكز الجهادية الأخرى على الساحل المغاربي، ويظهر ذلك من الإتاوات التي كانت تدفعها الدول الأوربية للجزائر تفوق بكثير ما كانت تدفعه لتونس ومراكز أخرى [5] ، في حين ظلت تونس مركزا ثانويا لسببين:

1- أنها تخلصت متأخرة من الاحتلال الإسباني، حيث حررها الأتراك العثمانيون سنة 1574 انطلاقا من مدينة الجزائر[6]، وبالتالي تأخر بروزها كقطب جهادي.

2- أنها حققت مداخيل ضخمة من تجارة الشاشية التي عرفت رواجا في كل أنحاء

1- راجع : 61-70.

2- Venture de Paradis ;**op.cit.** .p17.

3- رشاد الإمام: **المرجع السابق**، ص300.

4- شوفا ليه: **المرجع السابق**، ص55.

5- يحي بوعزيز : **المرجع السابق** ،ص241.

6- M . De Lesseps : **Un pacha d’Alger** : présenté par D. de Grammont, Adolphe Jourdan libraire Éditeur, Alger ،1886 p5.

المشرق فقد كانت مدينـــة تونس أكثر المدن المغاربية استقطـــابا للتجار المسلمين والمسيحيين على حد سواء وهذا لما عرف عن حكامها من علاقـــات جيدة مع الأتراك والمسيحيين[1]، وبالتالي لم يكن الجهاد البحري موردا اقتصاديا أساسيا في اقتصاد المدينة عكس ما كان جاريا في مدينة الجزائر.

ومن هذا المنطلق فقد عمل الأتراك العثمانيون على تفعيل العلاقات التجارية بين المدينتين من خلال الجهاد البحري، وعملوا على كسب ولاء وخدمات القباطنة المسلمين من جميع أطراف البحر المتوسط، وذلك من خلال إذكاء روح الجهاد[2]، وقد نجح الأتراك العثمانيون إلى حد كبير في تثبيت هذا التوجه انطلاقا من مدينة الجزائر، حتى أن الأب دان اعتبر قراصنة الجزائر الأكثر قوة وهيبة في بلاد البربر، كما أنهم يتفقون بشكل جيد مع قراصنة تونس[3] بالرغم من وجود بعض الخلافات التي كانت تحدث بين رياس المدينتين بين الحين والآخر بسبب تضارب المصالح التجارية[4].

ويمكن القول أن الجهاد البحري في تونس قد عرف حالة من التبعية للنشاط البحري الجهادي بمدينة الجزائر سواء من حيث العدة والعتاد والتنظيم ويذكر الزهّار في هذا الصدد:

«... وقد كان ملوك تونس يبعثون مركبا محملا بالزيت، وبعض الهدايا الرفيعة كل سنة فقطعوها في قيامه، فكتب لهم على ذلك فامتنعوا عن الإذعان، ووقع الكلام بينه وبين ملكها حمودة باشا إلى أن اشتعلت نار الفتنة، فبعث أحمد باشا المراكب الجهادية ليـــأخذوا ما وجدوه من مراكب تونس إلى أن يدفعوا ما عليهم من العادة التي التزم بها ملوكهم لملوك

---

[1] Dan :**op.cit**.p169.

[2] سبنسر: **المرجع السابق**،ص11.

[3] Dan :**op.cit**. p32.

[4] عثر بالقنصلية الفرنسية بتونس على وثائق تشير إلى نزاع تجاري حدث سنة 1624 بين أحد رياس البحر الجزائريين ومراد جينوقيزي من رياس تونس راجع : لمنور مروش، **دراسات عن تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ج2،ص286.

الأتـــراك بالجزائر، فأخـــذوا منهم مركبين أو ثلاثة مراكب»[1]، وبالرغم مما أورده الزهّار فإنه لا يمكننا الجزم أن كل المراكب الجهادية التونسية هي ملك للجزائر لدى سارعت لأخذها، ولكن على الأرجح أن يكون عدد كبير من مراكب الأسطول التونسي هي ملك لبحارة جزائريين، وهذا ما دفع بحكام تونس إلى الاهتمام بهذه الصناعة لمواجهة حكام الجزائر[2].

ومجمل القول أن الجهاد البحري في مدينة تونس لم يكن يعرف تبعية لأسطول الجزائر من حيث العدة والعتاد فحسب، بل تعدى إلى التنظيم الإداري والاستحكامات العسكرية.

5- الأوبئة والأمراض:

لقد تعرضت كل من مدينتي الجزائر وتونس طيلة القرنين17و18م إلى عدة أمراض وأوبئة انتقلت أغلبها عن طريق القوافل والسفن، أثرت بشكل مباشر على الحياة الاقتصادية بالمدينتين، حيث تسببت في هلاك أعداد كبيرة من السكان وأضرار فادحة بالحياة الاقتصادية نتيجة تراجع النشاط التجاري وركوده. ومن الأوبئة والأمراض التي اجتاحت المدينتين عدة مرات مرض الطاعون الذي ضرب مدينة الجزائر عدة مرات [3]، وكذلك مدينة تونس[4]، وكثيرا ما كانت هذه الأمراض تنتقل عن طريق التجار والبحارة المتنقلين بين المدينتين، ففي سنتي (1620-1623) ظهر الوباء في مدينة تونس وانتشر منها إلى مدينة الجزائر وأهلك نحو خمسين ألف من السكان[5]، حيث أورد صاحب الحلل السندسية في هذا الصدد:«... وكان الطاعون منتشرا في البلاد كلها عم تونس والجزائر....»[6]، وفي ظل هذه الأوضاع تبقى السفن القرصانية في مرسى المدينتين دون القيام بأي حملات خارجية طيلة أشهر وربما

[1] **مذكرات أحمد الشريف الزهار** ،ص96.

[2] رشاد الإمام : **المرجع السابق**،ص221.

[3] الشويهد: **المرجع السابق**، ص142.

[4] ابن أبي الدينار : **المصدر السابق**،ص230، راجع :أيضا ابن أبي الضياف: **المصدر السابق**،ج2،ص35.

[5] أحمد توفيق المدني: **محمد عثمان باشا**، ص36.

[6] السرّاج: **المصدر السابق**، ص 236.

سنوات خوفا من انتقال العدوى[1]، الأمر الذي أثر سلبا على النشاط البحري القرصني للمدينتين من خلال الشلل المؤقت الذي ضرب الحركة التجارية بين هذين المركزين الجهاديين.

[1] عزيز سامح إلتر :**المرجع السابق**، ص150.

ثانيا :أشكال التعامل التجاري بين بحارة مدينتي الجزائر وتونس:

1- الغزو البحري المشترك واقتسام الغنائم:

يعتبر القرن 17م العصر الذهبي للجهاد البحري بمدينتي الجزائر وتونس، فخلال هذا القرن كانت الدول الأوروبية منشغلة بحروبها الداخلية، وهذا ما أعطى للبحارة الأتراك من المدينتين ومن مـــدن أخرى من المغارب فرصة أكبر لممارسة أعمالهم البـــحرية بحرية تامة[1] وذلك بالرغم من أن الصراع كان على أشده بين الجزائر وتونس بسبب المنافسة السياسية بين الحاضرتين، ولذلك فقد دأب الباب العالي على إرسال الفرمانات الهمايونية إلى تونس والجزائر الداعية إلى إنهاء الخلافات القائمة بينهما ، والآمرة بإنزال سفنها إلى البحر للعمل سوية متحدين من أجل أسر وإغراق سفن العدو[2]. ومن هذا المنطلق فإنه طيلة القرن 17م دأب كل مركز جهادي سواء الجزائر أو تونس على إرضاء الباب العالي من خلال توجيه حملات مشتركة على السواحل المسيحية، فحسب الأب دان فإن بحارة الجزائر يتفقون بشكل جيد مع بحارة تونس ويوحدون قواهم عندما يتعلق الأمر باقتناص المسيحيين، وذلك حتى لا يتجرأ أحد على المساس بهم باعتبارهم يمارسون نفس الحرفة، وأن نفورهم الطبيعي من المسيحيين جعلهم يسخرون كل إمكانياتهم من أجل إلحاق الضرر بهم عن طريق اتحادهم المتبادل ويفضلون أن يتخلوا عن مصالحهم الخاصة على الفرقة والانكسار[3].

ومن هذا المنطلق ظهرت الحملات الجهادية المشتركة بين الجزائر وتونس والتي استهدفت المياه المارسيلية ،سواحل نابولي ،كورسيكا واسبانيا[4] .

ففي خلال الفترة (1611-1613) استولى الجزائريون بالاشتراك مع قراصنة تونس على سفينتين كبيرتين من سفن البندقية قيمتها 700 ألف قرش، وتذهب بعض المصادر

1- **المرجع نفسه**، ص374.

2- جون أولف :**المرجع السابق** ،ص592.

3- Dan :**op.cit** ,pp.31-32.

4- عزيز سامح إلتر : **المرجع السابق**، ص374.

أن قيمة الغنائم في هذه السنوات اكبر من ذلك بكثير، إذ تصل إلى 36 سفينة وحوالي 694 أسير[1].

وفي نهاية جوان 1624حملة تونسية جزائرية مشتركة مكونة من ست سفن حربية جزائرية(بقيادة مامي)، وسبعة تونسية (بقيادة اسطا مراد) على سواحل بعض الجزر التابعة للبندقية، بالرغم من العلاقات الحسنة التي تربط البندقية بالدولة العثمانية، ولهذا الغرض أرسل مجلس شيوخ البندقية بمهمة في شمال إفريقيا جون باتيست سلفاغو Jean Batis Salvago كممثل للتفاوض مع ديواني الجزائر وتونس من أجل إعادة الأملاك والأشخاص الذين أسروا إثر الغزوة الجزائرية التونسية [2]، المقدر عددهم ب450 شخص وقدرت الغنائم بأكثر من100إيكو،كما استولت سفن الجزائر وتونس على قادسين من بارشلونة محملين بقطع نقدية موجهة إلى السوق الفصلي الكبير المنعقد في صقلية وقد قدرت قيمة الغنائم ب860ألف كوروزدو[3]، وكذلك أسر أكثر من 1500شخص عند اكتساح مدينة سيرلونجا التابعة للبابا. [4]

وفي سنة 1638 قام قراصنة من الجزائر وتونس بجمع ست عشرة غليوطة ومركبين شراعيين ووحدوا قواهم للإغارة على السواحل المسيحية [5] بأسطول يتكون من ثمانية غلائط للجزائر وثمانية أخرى لتونس[6]، حيث قاموا بالإغارة على سواحل نابولي ونهبوا العديد من القرى الساحلية، كما نهبوا كل السفن التجارية المسيحية التي صادفوها متوجهة إلى المشرق، وأخذوا عدد لا يحصى من الغنائم والأسرى نساء ورجالا من مختلف الأعمار، وأرسوا بفالونا التابع للأراضي العثمانية للاستراحة ثم مواصلة عملية النهب، إلا أنهم هوجموا من

[1]- المنور مرّوش: **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (القرصنة)**،ج2، ص314.

[2]- زكريا العابد: **المرجع السابق**،ص27.

[3]- كوروزادو قطعة ذهبية برتغالية عالية القيمة راجع المنور مرّوش: **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (القرصنة)**،ج2، ص318.

[4]- **المرجع نفسه**، ص317.

[5]-Dan :**op.cit**.p321.

[6]- ابن أبي الدينار : **المصدر السابق**،ص233 . راجع أيضا : السراج: **المصدر السابق**،ص197.

طرف عشرين غلياطة من البندقية[1]، وبعد أن فقدوا كل سفنهم[2]، توجهوا برا إلى اسطنبول [3] ومعهم جميع الأسرى النصارى[4]، وهذا يتخالف مع ما أورده الأب دان من أن البنادقة قد تمكنوا من تحرير جميع الأسرى المسيحيين[5]، وبغض النظر عن هذا التضارب بين المؤرخين فإن هزيمة الأسطول الجزائري التونسي في موقعة فالونا سنة ـــ1638 قد صورت لنا بوضوح الغنائم الضخمة من السلع والأسرى التي كانت تأتي من وراء هذه الحملات المشتركة، حيث قدر الأب دان عدد الأسرى المسيحيين الذين تم تحريرهم في فالونا بحوالي 3634 أسير مسيحي [6].

أما في 1646 فإن عشرين قادسا من الجزائر وتونس قد أحدثت أضرارا جسيمة في كل الجزر التبعة للبندقية[7].

والواقع أن معظم هذه الحملات قد اشترك فيها قراصنة من انجلترا وهولندا حيث عملوا سويا مع قراصنة الجزائر وتونس، وهذا ما دفع حاكم البندقية لتقدم شكوى ضدهم[8]. ويتضح من خلال هاتين الحملات الجهادية المشتركة بين مدينتي الجزائر وتونس أنه في نهاية كل غزوة يتم اقتسام الغنائم بين الطرفين، غير أن معظم المصادر لم تشر إلى الكيفية التي يتم بها اقتسام الغنائم بين المراكز الجهادية ماعدا ما أشار إليه الأب دان من أن 12 % من مجموع الغنائم من سلع وأسرى تدفع لباشا مدينة الجزائر، بينما لا تدفع لباي تونس وحكام المراكز الجهادية الأخرى كسلا وطرابلس سوى 10% فقط، بينما تدفع 1% من مجموع الغنائم ككرامات لمرابط مدينة الجزائر، بالإضافة إلى1% تدفع لمصانع السفن بالمرسى، وهما

1- Dan :**op.cit**.p130.

2- جون أولف: **المرجع السابق**، ص 203.

3- السراج : **المصدر السابق**، ص197.

4- ابن أبي الدينار : **المصدر السابق**، ص223.

5- Dan :**op.cit**.p131.

6- **Ibid**. p131.

7- المنور مرّوش: **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (القرصنة)**، ج 2، ص327.

8- إلتر : **المرجع السابق**،ص375.

الأمران اللذان تختصان بهما مدينة الجزائر، أما النسبة المتبقية فتقسم مناصفة بين ريس المركب ومحاربيه لما بذلوه من حقوق التسلح وتجهيز السفن وهنا تستفيد كل مدينة حسب عدد السفن المساهمة بها ونوعها وعدد محاربيها، أما النصف المتبقي فتوزع على الانكشارية والجند كما سبق الذكر، ويعود ذلك إلى أسباب عديدة أهمها:

1- أن مدينة الجزائر هي المركز الجهادي الأول والأقوى في المغارب، أما بقية المراكز فهي ثانوية وتابعة لها، وتظهر التبعية الاقتصادية لمدينة تونس من الضرائب السنوية التي كانت تدفعها لمدينة الجزائر [1] .

2- صغر الأسطول التونسي[2]، خاصة إذا علمنا أن مدينة تونس لم تنتج السفن إلا في نهاية القرن 18[3] .

ويتضح ذلك من خلال الفارق الكبير في عدد الأسرى بين المدينتين في النصف الأول من القرن17م حيث بلغ عدد الأسرى بمدينة تونس بــ7000 أسير من مختلف الجنسيات، بينما بلغ عددهم بمدينة الجزائر 25 ألف أسير أغلبهم من اليونان، إيطاليا واسبانيا[4] .

غير أنه ابتداء من سنة 1651 تلقى الأسطول العثماني عدة هزائم بسبب الصراعات الداخلية التي عرفتها استانبول بين الانكشارية والسباهية، وفي هذه الفترة بدأ الرياس في الجزائر وتونس يسلكون سلوكا ضعيفا ومفككا، حتى أن قبطان باشا هدد بإبادتهم، ولكن هؤلاء انفصلوا عن الأسطول العثماني وانطلقوا في حملات انفرادية[5] ، وأصبحوا لا ينفذون أوامر الباب العالي ولا المعاهدات التي يعقدها حكام الجزائر وتونس مع الدول المسيحية[6]، غير أن هذه التصرفات التي دأب عليها البحارة بمدينتي الجزائر وتونس قد عدها الباب العالي

1- ابن أبي الضياف : **المصدر السابق**، ج3،ص98.

2- ج.أو. هابنسترايت: **المصدر السابق**، ص119.

3- ابن أبي الضياف : **المصدر السابق**، ج2، ص208.

4- Dan: **op.cit**.p321.

5- عزيز سامح إلتر: **المرجع السابق**،ص376.

6- **المرجع نفسه**، ص300.

سلوكا ضعيفا ومفككا يهدد بتشتيت الصف الجزائري التونسي في الجهاد. وبالرغم من ذلك فإن هؤلاء البحارة المجاهدين قد أعطونا صورة رائعة عن التماسك والتضامن بين قراصنة الجزائر وتونس، بالرغم من كل العراقيل السياسية والعسكرية[1] التي فرضتها سواء حكوماتهم أو الدول الأوروبية، ويظهر ذلك من خلال أن البحارة التونسيين يحملون الراية الجزائرية للهجوم على السفن وسواحل الدول التي هي على سلم مع تونس وفي حالة حرب مع الجزائر ويبيعون غنائمهم بمدينة الجزائر، أما البحارة الجزائريون فيحملون الراية التونسية للهجوم على سفن وسواحل الدول المسيحية التي هي على سلم مع الجزائر وفي حالة حرب مع تونس ويبيعون غنائمهم في مدينة تونس [2].

مما سبق ذكره يمكن القول أن الغزو البحري الجزائري التونسي المشترك كان مكثفا خلال النصف الأول من القرن 17م، حيث استمرت الخرجات المشتركة للأسطولين قد إلى غاية نهاية القرن 18م، وذلك بالرغم من حالة التذبذب التي عرفتها هذه الحملات نظرا لتأثرها بالعلاقات السياسية بين هذين المركزيين الجهاديين من جهة، وبصلاتهما السياسية مع الدول الأوربية من جهة أخرى، حيث تحدث الشريف الزهّار عن حملة مشتركة للأسطولين الجزائري والتونسي سنة 1759 شارك كل واحد بخمسة مراكب، وأخرى سنة 1773 بدعوة من الباب العالي، تمكنوا خلالها من احتجاز مراكب يونانية وأخذها إلى البوغاز وأهدوا الأسرى إلى قبطان باشا، وتقاسموا الغنيمة، ثم أحسن إليهم السلطان عبد الحميد وأعطاهم فرقاطة وكرفيط ومركب[3].

ومجمل القول أن الحملات المشتركة للأسطولين الجزائري والتونسي سواء كانت حملات ناجحة أو فاشلة، فقد ظلت مظهرا من مظاهر التبادل التجاري ليس فقط من حيث اقتسام الغنائم، بل إن هذه الحملات المشتركة مثلت في بعدها التجاري ما يعرف في اقتصاد اليوم بالشركات المساهمة.

---

[1] Dan : **op. cit**. 32.

[2] E .Rauad de Card: op.cit,p117.

[3] **مذكرات أحمد الشريف الزهار**، ص31.

2-الإمدادات:

لقد ساهمت كل من مدينتي تونس والجزائر بشكل أو بآخر في تحكم المغارب في دواليب التجارة المتوسطية، فقد كانت القرصنة نشاط اقتصادي هام ويدر مداخيل ضخمة على المركزين الجهاديين[1]، ومن هذا المنطلق عملت حكام المدينتين على تبادل الدعم المادي والمعنوي لمواجهة القوى المسيحية في البحر المتوسط.

وخلال العقد الرابع من القرن 17م كان أسطول البحارة الجزائريين قد وصل إلى أقصى تطوره، فقد كان الجزائريون عندئذ يجوبون البحر المتوسط من البحر الأدرياتيكي إلى مضيق جبل طارق، بل اجتازوه إلى المحيط الأطلسي[2]، وكان البحارة الجزائريون يأخذون الاستراحة في سلا، عندما يأخذون الطريق باتجاه المحيط، أما إذا اتجهوا نحو الشرق فيتزودون بالمؤن من مدينة تونس[3]، خاصة وأن هذه المدينة تقع على مقربة من مضيق صقلية الذي يربط الحوض الغربي للبحر المتوسط بحوضه الشرقي كما أسلفنا الذكر، وبالتالي على الطريق البحري الرابط بين مدينتي الجزائر واسطنبول، وهذا ما جعل مدينة تونس زيادة على كونها ثاني أهم مركز جهادي عثماني في شمال إفريقيا بعد مدينة الجزائر، فإنها قد شكلت مركزا للدعم اللوجيستيكي للبحارة المسلمين من سائر البحر المتوسط، خاصة بحارة مدينة الجزائر بمختلف المواد المطلوبة وقد ذكر ابن أبي الدينار أن في عهد الباي أحمد شلبي سنة1093هـ كانت المراكب الجهادية الجزائرية تتمون من مدينة تونس سواء أرست بمرسى غار الملح أو بمرسى حلق الوادي حيث أورد في هذا الصدد:«...وفي أيامه قدم مركبان من الجزائر بقصد الجهاد، فنزل بعض جندها إلى تونس ونزل بفندق العطارين..»[4]، حيث يقيم الرياس والجند الجزائريين بوكالة العطارين بمدينة تونس للاستراحة، حتى يتزودوا بمختلف ما يحتاجونه من المؤن والذخائر استعدادا لحملات جهادية جديدة على السواحل الإيطالية

[1] عبد الجليل التميمي : **دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن 16م** ،ص168.

[2] جون أولف: **المرجع السابق** ،ص186.

[3] Dan:**op.cit**.p32.

[4] ابن أبي الدينار : **المصدر السابق**، ص503.

البحر الأدرياتيكي وبحر ايجة، وهذا ما أعطى لرياس البحر بالمغارب مرونة وفعالية[1]، وحسب الأب دان فإن هذا التكافل المتبادل يجري عندما يكون أحد الطرفين بحاجة إلى ذخيرة فيزودون بعضهم لبعض معتبرين ذلك واجبا مقدسا، وقد مكنوا بفضل هذا التكافل من أن يحافظوا مع بعضهم على يقظتهم الجيدة، ولهذه الأسباب بقوا أقوياء وعددهم معتبر[2] .

إن المصادر المحلية الموجودة بين أيدينا تقدم لنا معلومات مقتضبة عن هذا النمط من المعاملات التجارية بين المركزين الجهاديين، إلا أنها على الرغم من قلتها فإنها تطرح معطيات جد مهمة عن المؤن التي أخذتها المراكب الجهادية الجزائرية من ميناء مدينة تونس إلا أنها تغطي النصف الثاني18 م فقط، خاصة ما تشير إليه الوثائق الجزائرية بالأرشيف التونسي التي عرضها الدكتور خليفة حماش في كشاف وثائق تاريخ الجزائر في العهد العثماني في الأرشيف الوطني التونسي[3]، وبالرغم من إنني لم أحصل على معلومات وافية حول ما إذا كانت السفن الجهادية التونسية قد تزودت أيضا من ميناء مدينة الجزائر، خاصة وأن الأسطول التونسي قام بعدة حملات على السواحل الإسبانية، إلا أنني سأكتفي بما هو متوفر خاصة إذا علمنا أن نشاط الأسطول التونسي كان محدودا مقارنة مع نظيره الجزائري، إضافة إلى أن مدينة تونس كان نشاطها الاقتصادي الأساسي هو التجارة وليس الجهـــاد البحري على غرار ما كان حاصلا بمدينة الجزائر[4].

و بالرغم من أن المعلومات التي تشير إليها هذه الوثائق الأرشيفية لا تغطي إلا النصف الثاني من القرن 18م، إلا أنها تعطينا صورة واضحة عن مظاهر التكافل والتبادل التجاري بين المركزين الجهاديين، وعن طبيعة المؤن التي كان يتزود بها البحارة الجزائريون من مدينة تونس وهذا الجدول يبين لنا جزءا مما سبق ذكره:

[1] محمود مقيدش : **المرجع السابق**، ص 119.

[2] Dan:**op.cit**,p32

[3] مطبوعة تتضمن فهرسة للوثائق الجزائرية بالأرشيف التونسي في العهد العثماني وأحمد باي والأمير عبد القادر، من انجاز الدكتور خليفة حماش أستاذ التاريخ العثماني بجامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة .

[4] Dan:**op.cit**.p 169.

طبيعة المؤن	السنة	
30 قنطارا بشماط، 5 أمطار زيت، 5 أمطار خل، قنطارين زيتون، قلتين سمن 10كباش، رأسان بقر، 1000 عترة حملين رمان، حملين خضرة10 أحمال حطب، 5 أحمال بياض.	21 ربيع الثاني 1178ــ/1764	شباك قرصان تابع للجزائر
30 قنطار بشماط، 5 أمطار زيت، 5 أمطار خل، قلتين سمن، قنطار زيتون.	29 جمادى الأولى 1178ــ/1764	سفينة قرصان تابعة للجزائر
كبش واحد، 50خبزة، قنطار زيتون، مطر واحد خل، حمل خضرة، مطر زيت، 6 قناطير بشماط 3 حصائر.	09 ذي الحجة 1178ــ/1765	رايس مرسى الجزائر
30 قنطارا بشماط، 5 أمطار زيت، 5 أمطار خل، قنطار زيتون، قلتين سمن، 6 كباش هدية، حملين ليم هدية، حملين خضر هدية، 10 أحمال حطب، 5 أحمال بياض.	ذي القعدة 1179ــ/1766	شباك قرصان تابع للجزائر
30 قنطار بشماط، 5 أمطار زيت، 5 أمطار خل، قنطارين زيتون، قلتين سمن 6 كباش، رأسان بقر، 1000 فرد خبز حملين ليم (ليمون)، حملين خضرة، عشرة أحمال حطب خمسة أحمال بياض.	22 شعبان 1180ــ/1767	مركب قرصان تابع للجزائر
سلمت المؤونة على يد وكيل الجزائر بتونس الحاج علي الجزيري وتتضمن: - نصف قفيز برغل - 8 قناطير بشماط أبيض - 4 كباش	11 صفر 1210ــ/1795	شقف قرصان جزائرية

- 200 فرد خبز عمل ناصريين[1] - مطرين زيت - قلتين سمن - قنطارين زيتون - مطر واحد خل، 4 أحمال حطب حملين بياض حمل واحد عنب، حمل دلاع، حمل واحد إجاص قنطار بصل نصف قنطار أرز، نصف قنطار فلفل أوقية واحدة قهوة، 15 شمعة، 40 حصيرة حلفاء ونصف قنطار صابون.		

إن قراءة بسيطة لهذا الجدول [2] تعطينا صورة واضحة عن طبيعة المؤن التي كان يتزود بها البحارة الجزائريون من مدينة تونس ويمكن تقسيمها إلى ما يلي:

1- مواد غذائية مختلفة حيث يفضل البحارة التزود بالمواد الغذائية القابلة للحفظ مدة طويلة كالبشماط [3] زيت الزيتون، الخل، السمن، الزيتون [4]، الأرز، القمح، الشحم، قهوة [5] البرغل الفلفل، البيض، خضر مختلفة كالبصل، الفواكه الموسمية وهي في معظمها صيفية أو خريفية متزامنة مع الحملات الجهادية البحرية كالرمان، الدلاع، العنب،

[1]- الناصري : عملة فضية كانت متداولة في تونس خلال العهد العثماني تراجع استعمالها نسبيا خلال القرنين (17-18) بعد شيوع استعمال الريال الاسباني . راجع : ناصر الدين سعيد وني : **النظام المالي للجزائر(1800-1830)**، ص205 .

[2] - خليفة حماش : **كشاف وثائق تاريخ الجزائر في العهد العثماني وأحمد باي والأمير عبد القادر في الأرشيف الوطني التونسي** (مطبوعة)، ص 110. 111. 115.

[3]- وهو نوع من الخبز المحمص يمكن الاحتفاظ به لمدة طويلة .

[4]- يقصد به الزيتون المتبل.

[5]- تستورد تونس القهوة من الحجاز وتعيد تصديرها إلى الجزائر وهذا ما حقق أرباحا طائلة راجع : رشاد الإمام: **المرجع السابق**، ص 298.

الليمون والأجاص إضافة إلى عدد قليل من رؤوس الأغنام والأبقار هذه الأخيرة التي لا تتجاوز في الغالب رأسين فهي موجهة للاستهلاك الفوري (اللحوم)، بالإضافة إلى الخبز.

2- أفرشة وتتمثل أساس في الحصائر المصنوعة من الحلفاء والتي تستعمل في فرش المراكب، أو توضع عليها المواد الغذائية.

3-أدوات أخرى تستعمل أثناء السفر كالصابون، الشموع، الحطب بعض العتاد الحربي كالبارود[1] الذي اشتهرت مدينة تونس بصناعته[2].

وكانت السفن الجهادية الجزائرية تحصل على هذه المؤن من مدينة تونس على يد وكيل التجارة الذي يمثل الجزائر بمدينة تونس[3]، غير أن هذه الوثائق لا تشير إلى ما إذا كانت هذه المؤن تدفع مجانا لقرصان الجزائر أم أن تكاليفها تدفعها الجزائر لتونس عن طريق وكلاءها، غير أن هذه الوثائق تبين أن شبابيك القرصان التابعة للجزائر كانت تتلقى حمولات إضافية من المواد الغذائية والعتاد كالخضر، والماشية وغيره كهدايا من مرسى حلق الوادي[4]، وهذا يعكس بالطبع عمق العلاقات بين المركزين الجهاديين العثمانيين.

3- التجارة البحرية بين المركزين الجهاديين:

كما سبق وأن ذكرنا، فإن الأسطول القرصني لمدينة الجزائر كان يضم عدد كبير من سفن الخواص الذين استثمروا أموالهم في الجهاد البحري[5]، فإذا كان رياس البحر والبحارة النظاميين التابعين لمدينة الجزائر يحصلون على المؤن والذخيرة مجانا من مرسى حلق الوادي وكذا على تخفيضات وهدايا اعتبارا للوحدة السياسية للمركزين الجهاديين وعملهما تحت

[1] خليفة حماش : **المرجع السابق**، ص108.

[2] رشاد الإمام :**المرجع السابق**. ص 214.

[3] خليفة حماش : **كشاف وثائق تاريخ الجزائر في العهد العثماني وأحمد باي والأمير عبد القادر في الأرشيف الوطني التونسي** ، ص115.

[4] **المرجع نفسه**: ص 110.

[5] راجع :ص71.

راية الدولة العثمانية[1]، فإن الرياس البحر من الخواص كانوا يرتادون أيضا على مدينة تونس الحصول على المؤن مقابل دفع التكاليف؛ أي أن التعامل معهم كان يتم في إطار تجاري، وفي هذا الصدد نورد في الجدول التالي بعض المواد التجارية التي اقتناها بحارة جزائريين من مرسى حلق الوادي في النصف الثاني من القرن18م:

الجهة	السنة	القيمة المالية	المقتنيات
شبابيك قرصان جزائرية	1757ـــ/1758	123 ر يا ل	9 رؤوس بقر
		القيمة الإجمالية 171 ريال ناصريين للخبزة الواحدة	4404 خبزة
		15 ريال	22 رطل جبن، أوقية قهوة
		146 ريال	30 حمل خضار، 9 قناطير و75رطلا من الزيتون، 12 مطر من الخل، 900 رمانة 600 سفرجل، 25 رطل عسل
		340 ريالا	- أجرة عشر نجارين عملوا في إصلاح الشباك المذكور - ثمن كراء 4 بغال لنقل القلفاط من تونس لحلق الوادي المستخدم في إصلاح الشباك المذكور
		54 ريال	- ثمن كراء 36 صندلا نقلت المؤونة التي اشتراها الشباك المذكور من تونس إلى مرسى حلق الوادي

[1]- خليفة حماش: **كشاف وثائق تاريخ الجزائر في العهد العثماني وأحمد باي والأمير عبد القادر في الأرشيف الوطني التونسي**، ص 96 .98 . 108.

إضافة إلى ثلاث شبابيك قرصان جزائرية أخرى دخلت إلى مرسى حلق الوادي بنفس الفترة تقريبا اقتنت مواد مختلفة غير مذكورة القيمة: تتمثل هذه المواد عموما في 74 شاة1600 خبزة، ربع قنطار زيتون، أوقية قهوة، قفاف، 500 حملا من الحطب، حصائر من الحلفاء لفرش المراكب[1].

قراءة بسيطة للجدول السابق يتبين لنا أن المعاملات التجارية على مستوى ميناء المدينتين لا تقتصر فقط على مواد تموينية فقط، وإنما تعدت إلى خدمات أخرى كتكاليف إصلاح السفن القرصانية المعطلة كأجور العمال والنجارين وغيرها من المصاريف، خاصة في عهد حمودة باشا عندما أصبح لمدينة تونس دار لصناعة السفن وإصلاح السفن التي تتعطل في البحار القريبة، وتكاليف الإصلاح وما يتبعها من نفقات خدمة الخبراء والعاملين جميعها تدفعها الحكومات المالكة لتلك السفن[2]، غير إن السفن الحربية والقرصانية الجزائرية كانت تحصل على امتيازات عديدة من مرسى حلق الوادي، فبالإضافة إلى المؤن والإحسانات التي كانت تتحصل عليها المراكب الجهادية الجزائرية، تتحصل شبابيك القرصان الخاصة التابعة للجزائر على عدة امتيازات وتسهيلات، حيث إصلاح بعض السفن كان يتم على نفقة مرسى حلق الوادي أو يتكفل بجزء من نفقات الإصلاح، فقد أشارت الدفاتر الإدارية والجبائية بالأرشيف التونسي أنه في سنة 1757 تم دفع 17 ريـال ثمن 37 رطلا من المسمار لإصلاح أحد شبابيك القرصان الجزائرية على نفقة مرسى حلق الوادي[3] بالإضافة إلى أن هذه شبابيك كانت تلجأ إلى كراء بعض البغال أو القوارب صغيرة والتي تسمى الصندل[4]، والتي تستخدم في نقل مختلف السلع من مدينة تونس إلى حلق الوادي أو

[1] **المرجع نفسه**، ص 101- 104.

[2] رشاد الإمام: **المرجع السابق**،ص223.

[3] خليفة حماش : **كشاف وثائق تاريخ الجزائر في العهد العثماني وأحمد باي والأمير عبد القادر في الأرشيف الوطني التونسي** ، ص 101.

[4] الصندل: قارب صغير يشبه الصندوق استعمله التونسيون لنقل مختلف السلع من مرسى حلق الوادي إلى مدينة تونس راجع : رشاد الإمام : **المرجع السابق**، ص 225.

العكس[1].

وحسب ما ورد في الجدول فإنه شباك القرصان الجزائري قد اكترى سنة 1757 ستة وثلاثين صندلا لنقل مؤنه من مدينة تونس إلى مرسى حلق الوادي بقيمة 54 ريال[2]، ولم تشر المصادر ما إذا كان هناك دار لصناعة السفن بمدينة تونس قبل منتصف القرن 18م، فبالرغم من وجود مصنع للسفن بغار الملح إلا أن إنتاجه ظل متواضعا عددا ونوعية[3]، ومن هذا المنطلق فقد بقي الأسطول التونسي سواء الحربي أو لقرصني متواضعا يعتمد على السفن التي تتلقاها تونس كهدايا من استانبول[4]، أو السفن الأجنبية التي يختطفها قراصنة تونس[5] وذلك طيلة القرن17 والنصف الأول من القرن 18م، وهذا ما جعل مدينة تونس في حالة تبعية لمدينة الجزائر في هذا المجال نظرا لأسبقية مدينة الجزائر في هذه الصناعة والتي مارستها منذ أوائل القرن 16م، وبذلك فقد ظلت مدينة تونس سوقا نافقة للسفن الجزائرية سواء الجديدة أو المستعملة واستمر ذلك حتى في عهد حمودة باشا الذي استحدث هذه الصناعة بمدينة تونس حيث تشير الوثائق الأرشيفية إلا أنه في سنة 1795 قام عشرة أنفار من الجزائر منهم ثلاثة رياس وسبعة أنفار بحرية يترأسهم علي رايس ببيع سفينة بحلق الوادي[6]، ولا ندري ما إذا كانت هذه السفن تعود للأسطول الجزائري، أم أنها سفن التي يتم احتجازها في عرض البحار، خاصة إذا علمنا أن الجزائريين كانوا يبيعون غنائمهم بمدينة تونس، وكذلك قراصنة تونس يبيعون غنائمهم في مدينة الجزائر[7] إذا كانت هذه

---

[1] كانت مدينة تونس مفصولة عن البحر بسبخة ضحلة المياه تمتد على خمسة كيلومترات تمنع أي نوع من السفن الصغيرة أو الكبيرة من العبور من المدينة إلى حلق الوادي أو العكس راجع: **المرجع نفسه**، ص 225.

[2] خليفة حماش : **المرجع السابق**، ص 101.

[3] رشاد الإمام : **المرجع السابق**، 223.

[4] ابن أبي الدينار : **المصدر السابق**، 233.

[5] رشاد الإمام : **المرجع السابق**، 221.

[6] خليفة حماش: **كشاف وثائق تاريخ الجزائر في العهد العثماني وأحمد باي والأمير عبد القادر في الأرشيف الوطني التونسي**،ص115 .

[7] **المرجع نفسه**، 122 .

الغنائم تخص دول على سلم مع حكوماتهم فيلجأ على إثر ذلك كل طرف إلى البيع في المدينة الأخرى، وتـأتي في مقـدمة هذه الغنـائم: الأسلحة، السفن الأسرى، ومختلف المواد كالزيت، وهذا ما دفع بالدول الأوروبية المتعاقدة مع المدينتين إلى محاولة وضع حد لهذه الإشكالية، حيث فرضت على حكومة تونس شراء الأسرى الفرنسيين من القراصنة الجزائريين أو بيعها القنصل الفرنسي بمدينة تونس، والعكس أي شراء الأسرى الفرنسيين من القراصنة التونسيين في مدينة الجزائر بأدنى الأسعار، و بيعها للقنصل الفرنسي تمهيدا لترحيلهم لفرنسا [1] .

4-فداء الأسرى:

لقد كان الإسـلام أول من نادى بعـدم استغلال الإنسـان للإنسان، ووعد خيرا لمن حرر رقبة [2]، وبالرغم من أن الأرقاء المسيحيون في كل من مدينتي الجزائر وتونس يتمتعون بمعاملة حسنة حتى أنهم وصلوا إلى مناصب سياسية هامة، على غرار كاثكارت الذي كان مقربا من باشا الجزائر[3]، وكذلك تيدنا بالنسبة لباي الغرب سيدي محمد الكبير [4]، فإن الدول المسيحية عكفت على إنشاء جمعية لفداء الأسرى بالمغارب أسسها القساوسة بفرنسا لجمع الأموال والتبرعات لفداء الأسرى في شمال افريقيا[5]، في حين لم يكن للمغارب منظمة إسلامية لفداء الأسرى المسلمين بأروبا، كما لم يكن لمدينتي الجزائر وتونس قناصل في

[1]- E. Rouad de Card : **op. cit** .p 174.

[2]- عبد القادر حليمي: **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830**، ص 229.

[3]- جيمس ليندر كاثكارث أسير أمريكي الجنسية، أسر من قبل الجزائريين 1785 وأطلق سراحه 1786، اشتغل خلال هذه الفترة في قصر الداي واعتبر من كبار موظفي القصر من المسيحيين له دور كبير في اجراء محادثات بين داي الجزائر والولايات المتحدة الأمريكية حول الأسرى الأمريكيين في شمال إفريقيا حول كاثكارث راجع: اسماعيل العربي: **المرجع السابق** ص31.

[4]- أحميده اعميراوي : **الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذج)**، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، 2003،ص59.

[5]- جون اولف: **المرجع السابق**، ص215 .

اسبانيا، إيطاليا وفرنسا كما لا توجد آليات واضحة لتسهيل عملية الفداء أو المبادلة [1]، ومن هذا المنطلق فإن عملية فداء الأسرى الأتراك كانت تتم بمبادرة من حكام المدينتين، دون الأخذ بعين الاعتبار ما إذا كانوا من الجزائر أم من تونس، وذلك اعتبارا للرابطة الدينية والسياسية والجيرة. وهذا ما يتضح من خلال ما تورده المصادر والكتابات الحديثة استعمال مصطلح الأسرى المسلمين دون ذكر الانتماء السياسي أو العرقي، كما تؤكد المصادر أن العلاقات التجارية بين مدينتي الجزائر وتونس خلال القرن 18م قد وصلت إلى حد فداء أسرى الطرفين، حيث اشتهر حمودة باشا الذي حكم تونس أواسط القرن17م بتحرير المراكب والأسرى التابعين للجزائر[2]، وقد أورد الوزير السراج في هذا الصدد:«... ومنها فك المراكب التي أخذتها النصارى من الجزائريين المرة بعد المرة بمال جزيل، وأنعم الله على المأسورين وكساهم، وأحسن إليهم وصرفهم إلى بلادهم وخلص أسارى سواهم لوجه الله تعالى...»[3]، وكذلك في عهد محمد باي سنة1662 الذي عرف بعلاقته الجيدة مع حكام الجزائر[4] ، حيث ذكر ابن أبي الدينار في هذا الصدد:«...ومن محبته في الفعل الجميل ما سارت به الركبان، افتكاكه المراكب التي أخذت للجزائريين من أيدي النصارى المرة بعد المرة بمال جزيل، وأنعم الله على المأسورين وكساهم، وأحسن إليهم وصرفهم إلى بلادهم، وعدة أسارى من سواهم بعث بطالبهم من بلاد الكفر وخلصهم..»[5].

وقد استمر فداء الأسرى المسلمين من مدينتي تونس والجزائر طيلة القرنين(17-18م) حتى من أعيان المدينتين حيث تشير بعض الوثائق أنه في (1765-1766) أن أحمد كرغلي[6] قام بدفع تذكرة بقيمة 54 ريال ثمن كسوة لستة أسرى جزائريين أحضرهم من مالطا إلى مدينة تونس، وتتمثل هذه الألبسة في الجوارب قطنية، سراويل صوفية، شماني،

---

[1]- **المرجع نفسه**، ص237.

[2]- محمود مقيدش : **المرجع السابق**، ص103.

[3]- السراج : **المصدر السابق**، ص 261.

[4]- ابن ابي الدينار: **المصدر السابق**،ص295.

[5]- **المصدر نفسه**، ص294.

[6]- يرجح أنه من أعيان مدينة تونس.

أحذية كبابط وأشياء أخرى[1] .

5- الإحسانات (الهدايا):

معارفنا عن الحركة التجارية بين مدينتي الجزائر وتونس كمراكز جهادية خلال القرنين(17-18م) كانت متواضعة نظرا لقلة المصادر التي تشير إلى مثل هذا النوع من المعاملات، التي ظلت قائمة و لم تنقطع إطلاقا في أي فترة من الفترات، فبالرغم من النزاعات السياسية المستمرة بين الإيالتين [2]، فإن هذه تعدت المعاملات قد تعدت إلى الجانب الإنساني وطبعت به، كالإحسانات (الهدايا) التي كـــان يتلقاها رياس البحـــر والأسرى من الجـــانبين عند دخول المدينتين، ففي سنة 1757 تلقى إسماعيل التركي الجز يري ريس المرسى بمدينة الجزائر إحسانا [3]، إضافة إلى إحسانات عديدة تحصل عليها العسكر المتوجه من استانبول إلى مدينة الجزائر عبر مدينة تونس[4] أما فئة الأسرى الجزائريين فقد استأثروا بحصة معتبرة من الإحسانات بمدينة تونس، وتشير الوثائق إلى معلومات مهمة عن مثل هذا النمط من المعاملات بين المدينتين خلال النصف الثاني من القرن 18م نورد بعضها في الجدول التالي[5]:

1- خليفة حماش: **كشاف وثائق تاريخ الجزائر في العهد العثماني وأحمد باي والأمير عبد القادر في الأرشيف الوطني التونسي** ، ص 107.

2- ابن أبي الدينار : **المصدر السابق،** ص 231 - 232.

3- خليفة حماش: **كشاف وثائق تاريخ الجزائر في العهد العثماني وأحمد باي والأمير عبد القادر في الأرشيف الوطني التونسي**،ص110.

4- E . Rouad de Card : **op .cit** . p 104 . 105.

5- خليفة حماش: **كشاف وثائق تاريخ الجزائر في العهد العثماني وأحمد باي والأمير عبد القادر في الأرشيف الوطني التونسي**، ص96- 125-126.

السنة	قيمة الإحسان	مكان الأسر	أسماء الأسرى
1172 ه	10 ريالات	مالطا	محمد بوشناق ومحمد الجزيري
1170 هـ	10 ريالات	/	أسير جزائري (دون ذكر الاسم)
1170 هـ	مبلغ مالي غير محدد	مالطا	الحاج إبراهيم الجزيري، وهو في حضر مدينة الجزائر
1170 هـ	غير محدد	اسبانيا	محمد بن أحمد التركي الجز يري
1175ه	مبلغ مالي غير محدد القيمة	مالطا	13 نفر من أسرى جزائريين
1175 هـ	مبالغ مالية غير محددة القيمة	سردينيا	خليل الجز يري

وقراءة بسيطة لهذا الجدول تبرز لنا أن معظم هؤلاء الأسرى الجزائريين الذين يقيمون بمدينة تونس، كانوا يتلقون إحسانات في شكل أموال، كما لا يذكر أحيانا قيمة المبلغ وهنا من المحتمل أن يكون الإحسان عبارة عن كسوة وألبسة.

ثالثا: العملات المستعملة في المعاملات التجارية

إن العملات المتداولة في المعاملات التجارية بين مدينتي الجزائر وتونس خلال القرنين (17-18م)عديدة، فقد ذكر الشويهد الذي عاش أواخر القرن17م وأوائل18م أكثر من ثمانية عملات كان يجري التعامل بها بأسواق مدينة الجزائر خلال هذه الفترة وأهمها: الزياني الضبلون، الدرهم، الصارمة، الدينار، السلطاني والريال وغيرها[1]، غير أن ما يهمّنا في هذا الصدد هو محاولة رصد أهم العملات المستعملة في المعاملات التجارية بين مدينتي الجزائر وتونس خلال هذه الفترة[2].

وقد أشار الأب دان إلى شيوع استعمال الريال والبياسترPiastre بالمغارب ، سواء في معاملاتهم التجارية أو فداء الأسرى مع أواسط القرن17م[3] ، وعلى الأرجح أن تكون العملتين قد استعملتا في المعاملات التجارية القرصنية بين مدينتي الجزائر وتونس، خاصة وأن الجهاد البحري قد ساهم في تنشيط الاقتصاد النقدي للمدينتين، فقد صار الريّال الإسباني عملة التداول الأساسية[4]، وربما يعود ذلك إلى كونها عملة قابلة للتصريف في مناطق واسعة من البحر المتوسط، فقد كان للمهاجرين الأندلسيين إلى المدينتين أوائل القرن 17م دور جد كبير في ترويجه والتصريف به، سيما أنهم أحضروا منه كمية كبيرة لدى هجرتهم[5]، وقد استمر استخدام هذه العملة في المبادلات التجارية بين المدينتين طيلة القرن18م[6]، إضافة إلى عملات أخرى كالمحبوب[7]، السلطاني والناصري[8].

---

1 - راجع الشويهد : **قانون أسواق مدينة الجزائر** .

2 - البياستر piastere:عملة مستعملة في بلاد المغرب خلال العهد العثماني انظر : ناصر الدين سعيدوني : **النظام المالي في الجزائر خلال العهد العثماني(1500 – 1830)**، ص205.

3 - Dan: **op.cit**,p136-149.

4 - محمد الهادي الشريف :**المرجع السابق**،ص73.

5 - عمار بن خروف: **المرجع السابق**،ص63.

6 - Dan :**op.cit** .135-136.

7 - 1 محبوب = 4 ريال عملة عثمانية ذهبية متداولة في أقطار المشرق العربي تسمى أيضا السلطاني انظر : ناصر الدين سعيدوني، **النظام المالي للجزائر في العهد العثماني(1800- 1830)**، ص 204.

8 - خليفة حماش : **المرجع السابق**، ص 105-106.

ومن الملاحظ أن أغلب العملات المتداولة في المعاملات التجارية بين مدينتي الجزائر وتونس هي عملات فضية، ويعود ذلك إلى التحول النقدي الذي عرفه المغارب طيلة القرنين17و18م ، حيث بلغت الغزوات البحرية أوجّها سنة 1630 مما بتحويل كميات معتبرة من مدخرات الفضة الإسبانية نحو مدينتي الجزائر وتونس[1]، وتدفق كميات هائلة منها على الحوض الغربي للبحر المتوسط قادمة من أمريكا، كما أن دايات الجزائر وبايات تونس حرصوا على استرادها بأسعار منخفضة وتصديرها الى البلاد الشرقية بأسعار باهضة، وكان هذا يدر عليهم أموالا طائلة[2] ، الأمر الذي سمح بسيادة الريال الاسباني في كل المعاملات التجارية سواء عن طريق افتداء الأسرى، أو مع غنائم القرصنة كما سبقت الإشارة.

---

[1] محمد الهادي الشريف: **المرجع السابق**،ص73.

[2] المنور مروش : **المرجع السابق**، ج1،ص41.

رابعا: حالة الأمن في الطرق والمسالك:

إن أكثر ما يفقد الطرق التجارية وظيفتها هو اضطراب الأمن بها، لذلك فإن انعدام الأمن في كل الطرق الاتصال بين مدينتي الجزائر وتونس قد أثر سلبا على الحـــركية التجارية بينهما وعلى نشاطهما البحري المشترك، فبالرغم من أن بحارة المدينتين قد سيطروا سيطرة مطلقة على معظم الطرق التجارية بالحوض الغربي للبحر المتوسط، ومع حلول منتصف القرن 17م أصبح هذا الحوض جنة القراصنة المغاربة[1]. وأمام هذا الوضع قررت الحكومات الأوروبية والدول البحرية فرنسا، ايطاليا، انجلترا وهولندا أن تعمل بعنف ضد هؤلاء[2]، ليس لحماية التجارة المتوسطية فحسب، بل تحديدا لحماية التجارة الأوروبية نحو الشرق التي لم تزد القرصنة إلا تطورا وازدهارا[3]، خاصة وأن المعاهدات المتعددة التي عقدتها فرنسا وقوى مسيحية أخرى مع حكام تونس والجزائر لم تجد نفعا[4]، وذلك أن قراصنة المدينتين لم يلتزموا إطلاقا بالأوامر الصادرة إليهم من الباب العالي بشأن عدم التعرض لسفن الدول المرتبطة بعهود واتفاقيات مع الدولة العثمانية، بل على العكس من ذلك فقد ازدادوا نشاطا، فبدأوا بضرب سفن تلك الدول والاستيلاء عليها[5]. وبذلك فإن القوى الأوروبية قد وجدت دوافع مقنعة للإغارة على المدينتين ومحاولة احتلالهما على غرار ما قامت به فرنسا من الإغارة على مدينتي الجزائر وتونس عقب فشل حملتها على جيجل بدعوى تأديب القراصنة [6]. كما خطط الملوك الإسبان للاستيلاء على المدينتين بغرض ضرب النفوذ العثماني في شمال إفريقيا[7]، إضافة إلى حملات وهجمات عديدة شنتها الدول الأوروبية على المدينتين طيلة القرنين 17و18م والتي تحدثت عنها المصادر بإسهاب أما مدينة الجزائر فقد تعرضت

1- E. mercier : **op . cit** . p244.

2- **Ibid**. p200.

3- P. Masson : **op.cit** .p6.

4- **Ibid**.p7.

5- عزيز سامح الترّ : **المرجع السابق**،ص300.

6- يحي بوعزيز: **المرجع السابق** ، ص81.

7- P. Masson :**op.cit**.p13.

لهجمات عنيفة الحملات الفرنسية سنوات 1682 1683، 1686[1]، وكذا الحملة الاسبانية على المدينة سنة 1775[2].

كما تعرضت مدينة تونس لحملات أوروبية عديدة تهدف إلى احتلالها أو تحطيم قواتها البحرية بعد مباغتتها بحلق الوادي حيث يذكر صاحب المؤنس في هذا الصدد: «... وفي أول ولايته (الداي أحمد خوجة) جاءت أغربة مالطا لمرسى حلق الوادي، وأخذت منه مراكب أحدهما مركب بوشاشية، وأحرقوا مركب آخر وفعلوا فعلا عظيما...» [3]، في حين يذكر صاحب الحلل السندسية أن الحرق المذكور إنما كان في مراكب الإنجليز، أحرقوا إحدى عشر مركبا منها واحدة سلاوية[4].

إن تعرض كل من مدينتي الجزائر وتونس لهجمات الدول البحرية الأوربية التي كانت تتنافس في ذلك الوقت على توسيع نفوذها في البحر المتوسط[5]، وتأمين طرقها التجارية نحو الشرق، حيث أن هذه التجارة لم القرصنة إلا اشتعالا، حيث أصبحت تشكل هدفا جديدا ومريحا في الجهاد البحري[6]. وبسبب الخسائر الفادحة التي تكبدها التجارة الأوروبية بسبب غارات البحارة المسلمين، ولم التزامهما بالمعاهدات المبرمجة مع هذه الدول[7]، وهذا ما يفسر شنت الدول الأوروبية البحرية لعدة هجمات انتقامية ضد التجار المدينتين، ومن ذلك أن الداي محمد عثمان وعلى إثر الانتصار الكبير الذي حققته الجزائر ضد حملة أوريلي الإسبانية سنة1775 استأجر مركبا فرنسيا ووجه عليه هدية معتبرة إلى السلطان العثماني باستانبول حملها إليه وكيل الحرج الحسن سنة 1775، ففرح بها وشحن المركب خلال عودته بهدايا

---

[1] الشويهد : **المصدر السابق**، ص 145.

[2] أبو محمد بن محمد أبو رأس الناصري : **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**، تقديم وتحقيق: محمد غالم، ج1، منشورات قاسكو، الجزائر، 2005، ص144.

[3] ابن أبي الدينار : **المصدر السابق**، 234.

[4] السراج : **المصدر السابق**، ص223.

[5] شوقي عطا الله الجمل : **المرجع السابق**، ص109.

[6] P. Masson :**op.cit**.p8.

[7] Dan :**op.cit**.p124.

مماثلة تتمثل في خمسة آلاف قنطار من القضبان الحديدية، 28 صاريا، 500 قنطارا من خيوط الحبال، 4200 قطعة قماش من قلوع السفن وهي كلها تجهيزات للأسطول الجزائري، ولما وصل المركب إلى مدينة تونس أحس وكيل الحرج بخطورة مواصلة السفر بحرا، وعزم على مواصلة الطريق برا إلى مدينة الجزائر، ولكن القنصل الفرنسي بتونس دوسيزيو De Saizieu اقترح عليه سلوك الطريق البحري، وعندما وصلوا إلى جزيرة لافاليت اعترضهم مركبان اسبانيان وقادوهم إلى قرطاج واعتبروهم رقيقا بعدما صادروا مركبهم، و لم يطلق سراحهم إلا بعد وساطة فرنسية في أفريل سنة 1776[1] .

وأمام هذا الوضع المعقد في البحر المتوسط، وبالاتفاق بين حكام المدينتين تم عقد معاهدات هدنة وعدم الاعتداء مع الدول الأوروبية في أوقات مختلفة، حتى يتمكن البحارة التونسيون من حمل الراية الجزائرية والهجوم على الدول المعادية للجزائر، وعلى سلم مع تونس. كما يقوم البحارة الجزائريون بحمل الراية التونسية للهجوم على السفن المعادية لتونس، وعلى سلم مع الجزائر كوسيلة لتسهيل استمرار نشاطاتهم البحرية في المنطقة[2]، وقد أكد ذلك صاحب الترجمانة الكبرى الذي فقد بضاعته وهو في طريقه من استانبول إلى تونس على يد قراصنة نابولي، واضطر الى التنقل برّا إلى مدينة الجزائر والاستقرار بها مؤقتا في انتظار استرجاع بضاعته على يد تاجر تونسي حيث أورد في هذا الصدد:«... ثم بقيت مقيما بالجزائر سبعة أشهر إلى أن فتح الله علينا فيرد بضاعتنا، وسبب الرد أن الرجل الجزيري الذي أتى بالعسكر من أزمير أصله تونسي، ولما أسرهم الكفار من جنس النبطلان[3] دخلوا بهم لبلادهم، ادعى الرجل أنه تونسي، وأنه اكترى المركب من أزمير وساق فيه أرزاق تجار تونس، واكترى للعسكر الجزائر وتحاكم معهم بهذه الحجة فغلبهم، لأن أهل تونس مع هذا الجنس بينهم مهادنة فدفعوا للرجل بضائع الناس واكترى عليها مركبا آخر لتونس في الظاهر وفي الباطن يبلغ البضائع للجزائر، وخرج قاصدا مرسى تونس إلى أن دخلها وأقام بها

[1] يحي بوعزيز: **المرجع السابق**، ص27.

[2] E . Rauad de Card : **op.cit**.p117.

[3] النبطلان :يقصد بهم سكان نابولي

يومـــين، ورجع للجزائر فلـــما بلغ المركب لمرسى الجزائر قبضـــت ما كان لنا من الحرير والأثاث...»[1].

هذه المخاطر العديدة التي كانت تحيط بالطريق البحري الرابط بين مدينتي الجزائر وتونس هي التي دفعت بعض التجار، ورجال الدولة وحتى الرحالة الأجانب إلى أخذ الطريق البري بين المدينتين، والذي لم يكن أحسن حالا ولا أكثر أمنا من الطريق البحري وذلك بسبب انتشار قطاع الطرق والحروب المستمرة بين الإيالتين طيلة القرنيين (17-18م). فقد كانت المنطقة الممتدة من مقاطعة قسنطينة إلى الكاف مسرحا لأغلب معاركها[2]، وبالرغم من أن الرحالة الاسكتلندي ليثجو الذي سلك هذا الطريق سنة 1615 قد أكد أن الأمن يسود البلاد، حيث لم يرغمه أحد على دفع إتاوة، غير أنه أورد في ذات الوقت أنه لم يباشر السفر إلا بعد حصوله على جواز سفر من داي تونس[3]، ونجد أن كل ما أورده ليثجو منطقيا خاصة إذا علمنا أن أول مواجهة بين الإيالتين كانت حول الحدود سنة 1628 والتي تعرف بموقعة السطارة[4] لتتوالى بعدها المواجهات بين الطرفين، خاصة وأن الجزائر قد دأبت على إرسال محالها لتونس في محاولات مستمرة لفرض نفوذها على المنطقة، وقد استمر الوضع طيلة القرنين(17- 18م).

وفي 1705 تجدد الصراع بين الإيالتين بشكل عنيف كانت منطقة الكاف مسرحا له[5]، وكثيرا ما كانت القبائل الحدودية تستغل هذه الصراعات لتعلن التمرد والعصيان، مستغلين هذه الأوضاع لاعتراض الركب بالسوء، وقد ذكر ابن أبي الدينار ذلك بقوله: «... وعاثت الأعراب في الوطن...»[6]، وذكر في مكان آخر:«.. وفي أيام الدولة العثمانية

[1] أبو القاسم الزياني : **المصدر السابق**، ص 379.

[2] محمد الصالح العنتري :**فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلاءهم على أوطانها**، مراجعة وتعليق: يحي بوعزيز، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص64.

[3] ميشال آبار : **المقال السابق**، ص 47.

[4] ابن أبي الدينار : **المصدر السابق**، ص231.

[5] السرّاج : **المصدر السابق**، ص 704.

[6] ابن أبي الدينار :**المصدر السابق**، ص232.

تقسمت البلاد بين القواد وكانت الأعراب في قوة واستحوذوا على جل البلاد كعرب إفريقية... وأولاد شنوف بوطن الكاف وأولاد سعيد وأولاد مدافع وأهل الجبال وغالبهم عصاة...»[1] .

ونظرا للاضطراب الأمن في الطرق في معظم فترات القرنين (17-18م)، وعجز الباب العالي عن وضع حد للصراعات السياسية بين الإيالتين، فإن السالكين لهذا الطريق كثيرا ما كانوا يأخذون طريق عنابة مدججين بالأسلحة ومختلف الوسائل الدفاعية[2] .

وبالرغم من اضطراب الأمن في الطرق البرية والبحرية الرابطة بين أهم مركزين جهاديين عثمانيين في شمال إفريقيا، فإن العلاقات التجارية بينهما بقية مستمرة و لم تصل إطلاقا إلى حد الانقطاع رغم الصراعات السياسية المستمرة بين الإيالتين، واستمرار الضغوط التي مارستها الدول الأوروبية البحرية على المدينتين.

---

[1] **المصدر نفسه**: ص 352.

[2] ج .أو .هابنسترايت: **المصدر السابق**،ص104.

خامسا: طرق التجارة والمواصلات ووسائلها:

إن طرق المواصلات وتوافر وسائلها هي في الواقع عصب المبادلات التجارية بين أي مدينتين أو بلدين، وإذا تحدثنا عن طرق المواصلات بين مدينتي الجزائر وتونس كمراكز للجهاد البحري يتبادر إلى الذهن في الوهلة الأولى أن هذه المبادلات كانت تتم عن طريق البحر، لكن ونظرا لانعدام الأمن بالبحر المتوسط، فقد كانت السفن الجزائرية والتونسية مستهدفة من القراصنة الأوربيين، الأمر الذي دفع ببحارة المدينتين إلى سلوك الطريق البري في كثير من الأحيان لنقل الغنائم من سلع وأسرى وبذلك فإنه يتبين وجود طريقين رئيسيين يربطان بين هذين المركزين الجهاديين العثمانيين، طريق بري وآخر بحري.

أ-الطريق البحري: يعتبر هذا الطـــريق الأكثر نشاطا بـــاعتبارها الطريق البحري الذي تسلكه السفن الذاهبة والآيبة بين مدينتي الجزائر واستانبول، وهو الطريق الذي وصف محطاته العديد من الرحالة مثل أبو الحسن علي التمكروتي صاحب النفحة المسكية في السفارة التركية الذي سلكه أواخر القرن 16م وأهم المحطات مدينة الجزائر دلس فبجاية، فالقل، فعنابة، بترزت تونس[1] .

وتعتبر هذه المراسي الواقعة بين المدينتين محطات مهمة للاستراحة وأخذ المؤن، وهي نفسها المحطات التي توقف عندها الرحالة الألماني ج.أو.هابستر ايت أثناء رحلته من مدينة الجزائر إلى مدينة تونس خلال النصف الأول من القرن 18م[2]، وقد ساعد على ازدهار هذا الطريق البحري وجود مراكز فرنسية لصيد المرجان من عنابة إلى الرأس الأسود والتي لطالما استهدفت من البحارة القراصنة [3] .

1- التمكروتي : **المصدر السابق**، ص38-42.

2- ج .أو. هابنسترايت : **المصدر السابق**، ص80 -105.

3- E . Rauad de Card : **op.cit** .p 113.

ب- الطريق البري: ينطلق من مدينة الجزائر، ومنها إلى بجاية، فقسنطينة، فقد كانت قسنطينة تقوم بدور الوسيط في ربط مدينة الجزائر بتونس لوقوعها على الطريق البري الرابط بين مدينتي الجزائر وتونس وهو نفسه الطريق الذي يسلكه التجار المغاربة[1]، وقد وصف لنا الرحالة الاسكتلندي ليثجـــو هذا الطريق بين مدينتي تـــونس والجزائر حين قام برحلة برية مع تجار مغاربة 1615 في عـــهد يوسف داي مـــرورا بمقاطعة قسنطينة، فبجاية، فمدينة الجزائر[2] وهو نفس الطريق الذي سلكه أبو القاسم الزياني أثناء عودته من رحلته إلى استنبول 1200هـــ على رأس سفارة بعثها مولاي محمد بن عبد الله إلى السلطان عبد الحميد[3] بعد تعرض مركبهم للنهب من طرف قراصنة أوروبيين وقد أورد في هذا الصدد:«... وانحدرت إلى الجزائر (آتيا من قسنطينة)... بقصد المقام بها إلى أن يظهر لنا ما يؤول إليه أمر المركب الذي أخذه العدو الكافر دمره الله... وفيه العسكر الجزيري وبضائع التجار...»[4]، وحسب ليثجو فإن قافلته قد استغرقت اثنا عشر يوما من المسير، وقد امتدت هذه الرحلة على مئة وعشرين ميل، وأنه طيلة هذه المسافة قد توافر ما يكفي ويزيد عن المأكل والمشرب[5].

أما نوعية السفن الحربية المستخدمة في المعاملات التجارية بين المركزين الجهاديين فتختلف من حيث الشكل والحجم بين مدينتي الجزائر وتونس على اعتبار الأولى لها الأسبقية في صناعة السفن لأزيد من قرنين من الزمن، كما تختلف أيضا من القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر.

فمنذ القرن 17م استعمل الجزائريون السفن المستديرة ذات السطح العالي كونها

[1] - صرهودة يوسفي : **معاملات ومبادلات اقتصادية في قسنطينة أواخر العهد العثماني**، إشراف فاطمة الزهراء قشي مذكرة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،(2004-2005) ص85 .

[2] - ميشال آبار : **المقال السابق**، ص 46-47.

[3] - أبو عمران الشيخ وآخرون : **معجم مشاهير المغاربة**، منشورات دحلب، الجزائر 2007، ص 215.

[4] - أبو القاسم الزياني : **المصدر السا بق**، ص371.

[5] - ميشال آبار : **المقال السابق**، ص 47.

خفيفة وسريعة ولا يمكن اكتشافها في البحر بسهولة، وهذا ما جعلها تنتصر في معظم الأوقات[1]، وكان أسطول البحارة القرصان خلال القرن 17م يتكون من الشطيات، البطاشات [2] والغليوطات المدفوعة بالمجاديف، سفن إبريقيه، فرقاطات والشبيكات[3] وهذا ما أكده الأب دان من أن الأسطول الجزائري والتونسي قد استعملا سفن من نوع الغلائط ومراكب شراعية عند فالونا [4] حيث بلغ عدد وحدات الأسطول الجزائري 1620م إلى 75 سفينة [5] ، وقد استمر استعمال هذا النوع من السفن التي تقودها المجاديف طيلة القرن 18م في كل من مدينتي الجزائر وتونس ولكن عـــددها وحجمها أخذ في التناقص[6] غير أنه شاع استعمال مراكب من الشباك [7] من طرف البحارة القرصان نهاية القرن18م في كل من مدينتي الجزائر وتونس، كما أنه تم استخدام نوع من السفن الصغيرة بمدينة تونس لنقل المؤن للبحارة القراصنة من مدينة الجزائر ومن مراكز أخرى من داخل مدينة تونس إلى مرسى حلق الوادي تسمى الصندل [8].

أما وسيلة النقل الرئيسية في الطريق البري الرابط بين مدينتي الجزائر وتونس فهي الحيوانات القادرة على تحمل مشاق السفر وحملة البضائع الثقيلة، فقد أشار الرحالة الاسكتلندي ليثجو إلى أن قافلة المغاربة التي رافقها في رحلة من مدينة تونس إلى مدينة الجزائر 1615 تتكون من مئة من الجمال المحملة بالأقمشة الحريرية والقطنية، وهذا يشير إلى شيوع استعمال الإبل بالدرجة الأولى في مثل هذه الرحلات الشاقة[9] ويسلك هذا الطريق

[1] عمار عمورة : **المرجع السابق**، ص125.

[2] ابن أبي الدينار : **المصدر السابق**، ص227.

[3] جون اولف : **المرجع السابق** ، ص 185.

[4] Dan: **op.cit**.p198.

[5] عمار عمورة : **المرجع السابق**، ص124.

[6] جون أولف : **المرجع السابق** ،ص 185.

[7] الشباك chebec : نوع من السفن الحربية تحمل من 18- 32 مدفع شاع استعمالها نهاية القرن 18م.

[8] خليفة حماش : **كشاف وثائق تاريخ الجزائر في العهد العثماني وأحمد باي والأمير عبد القادر في الأرشيف الوطني التونسي** ، ص101.

[9] ميشال آبار : **المقال السابق**، ص 47.

التجار والبحارة والأسرى ورجال الدولة لنقل الغنائم، والأسلحة ومختلف السلع والبضائع والهدايا التي تبادلها سواء بين حكام مدينتي الجزائر وتونس أو بين مـــدينتي الجزائر واسطنبول عبر مدينة تونس، كما يتم كراء الخيول والبغال في نقل هذه الحمولات من المدينتين، حيث تشير بعض الوثائق التي عرضها الدكتور خليفة حماش إلى أنه في 1759 تم دفع 420 ريال في كراء 21 من البغال لنقل أغراض سي الحاج محمد وكيل الحرج من تونس إلى الجزائر وحساب كل بغلة 20 ريالا. وفي نفس السنة تم دفع 210 ريالا ثمن كراء 14 بغلة لنقل أغراض الحاج يوسف شقيق دولاتي الجزائر من مدينة تونس إلى الجزائر وورد حساب كل بغل 15 ريالا[1].

ومجمل القول أنه قد توافرت عوامل عديدة ساهمت في توطيد العلاقات التجارية بين مدينتي الجزائر وتونس، أبرزها ظهور الحاضـــرتين كمركزين للجهاد البحري ينشطان في المدار العثماني الذي أصبح القوة الإسلامية النـــافذة والحامية المسلمين في الحوض الغربي للبحر المتوسط، نظرا لوقوعهما على الضفة الجنوبية للمتوسط المقابلة للضفة الأخرى المسيحية وكذا التكامل في خطوطهما البحرية لذلك وضع الأتراك العثمانيين هاتين المدينتين ضمن أولويات سياستهم في المنطقة، خاصة وأن الجهاد البحري قد جاء في المراحل الأولى كرد فعل عنيف للتهديدات الأوربية المسيحية للأراضي المغاربية ليتحوّل لاحقا إلى مؤسسة اقتصادية، لدى ساهمت في تنشيطه فئات اجتماعية من جنسيات مختلفة لها مصالح مشتركة تعطيها نوعا من التماسك والتضامن، وذلك بالرغم من التباين في أصولها الاجتماعية والإثنية وكذا صراعاتها السياسية، فقد تمكن الجهاد البحري كنشاط اقتصادي ذو أبعاد إنسانية من خلق نسق اجتماعي متماثل ومتكامل بين المدينتين وكذا احتواء التنافس والصراع السياسي بين هذين المركزين العثمانيين.

ومن هذا المنطلق فإن العلاقات التجارية بين هذين المركزين الجهاديين ظلت قائمة في كل الظروف و لم تصل إطلاقا إلى حد الانقطاع فبالإضافة إلى المعاملات التجارية بين رياس

---

[1]- P. Masson **: op.cit.**p**13**.

البحر من المدينتين وكذا عمليات الغزو البحري المشترك، فإن هذه العلاقات قد تعدّت إلى المعاملات الإنسانية بينهما كفداء أسرى الطرفين وتقديم مختلف الإمدادات عند الحاجة،وهو الأمر الذي يدعو إلى تدقيق ومضاعفة المقاربات لإدراك ما في هذا النشاط من أبعاد إنسانية.

الفصل الثالث

العلاقات التجارية بين مدينتي الجزائر وسلا كمراكز للجهاد البحري خلال القرنين 17و18م

أولا :العــوامل المتحكمة في العلاقات التجارية بين المدينتين.

ثانيا :طرق التعامل التجاري.

ثالثا : الطرق والمواصلات ووسائلها.

رابعا: الحالة الأمنية بالطرق و المسالك

إن العوامل المؤثرة في العلاقات التجارية بين مدينتي الجزائر وسلا تكاد تكون نفسها العوامل المؤثرة في العلاقات بين مدينتي الجزائر وتونس، وتتلخص أساسا الامتداد الجغرافي الواحد، تماثل النسق الاجتماعي وتشابه نمط الاقتصادي والتقلبات السياسية التي عرفتها المدينتين، وكذا تذبذب علاقاتهما الخارجية مع القوى الأوربية بسبب الصراع الحضاري بين ضفتي الحوض الغربي للبحر المتوسط بين الإسلام والمسيحية عقب سقوط غرناطة سنة 1492م، وقد استفحل هذا الصراع أكثر مع مطلع القرن 17م بسبب التحولات الكبرى التي عرفتها أوربا خلال هذه الفترة. إضافة إلى عوامل أخرى اختصت طبيعة العلاقات بين أتراك الجزائر وأشراف المغرب، وخصوصية الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بمدينة سلا .

أولا : العوامل المؤثرة في العلاقات التجارية بين مدينتي الجزائر وسلا كمراكز للجهاد البحري خلال القرنيين 17 و18م:

1- العوامل الطبيعية:

يمتد المغارب من أقصى الحدود الشرقية مع مصر إلى غاية جبل طارق بساحل متوسطي طويل الذي شكل نقطة تماس بين الشمال الإفريقي وأوروبا، بالإضافة إلى الساحل المراكشي المطل على المحيط الأطلسي أين توجد جزر الكناري[1]، هذا الموقع الممتاز أعطى للمنطقة مكانة هامة في كل العصور التاريخية، أما الجزائر والمغرب الأقصى فهما بلدان متجاوران ولا تفصل بينهما حدود طبيعية، ومن المعروف أنهما يقعان في شمال إفريقيا، ويطلان من الشمال على البحر المتوسط، إلا أن للمغرب الأقصى واجهة بحرية أخرى من الغرب يطل بها على المحيط الأطلسي ولا تملك الجزائر نظيرا لها[2].

وكان الموقع الممتاز الذي تتمتع به مدينة الجزائر على الطريق الشمالي للمغرب الكبير

---

[1] Dan:**op.cit**, P06.

[2] عمار ابن خروف: **المرجع السابق**، ص 07.

بموقع وسطي بين شرقه وغربه[1]، وكذا إطلالها على البحر المتوسط وقربها من مضيق جبل طارق قد يسر لهذه المدينة ربط خطوط الاتصال مع مختلف المدن المغربية، سواء كانت متوسطة كتطوان أو أطلسية كالعرايش وسلا [2] .

أما المغرب الأقصى فبالرغم من أهمية موقعه الجغرافي على مقربة من أوروبا، وكذا إشرافه على البحر المتوسط شمالا والمحيط الأطلسي غربا، فإن هذه السواحل ذات جروف ومنحدرات شكلت عائقا في وجه الملاحة البحرية[3]؛ فهي غير قابلة لإيواء السفن والإرساء به بسهولة واطمئنان خاصة السواحل الأطلسية نظرا لعدم وجود موانئ طبيعية فيها، وهذا ما يفسر تأسيس الملاحين لمراكزهم التجارية عند مصب الأودية والأنهار من هذا البحر[4]، ومن هنا جاءت أهمية مدينة سلا الواقعة على المحيط [5]. فالوضع الجغرافي لمصب نهر بورقراق قد أكسبها أهمية كبرى ليس لكونه الحد الفاصل بين شمال المغرب وجنوبه فحسب، بل أيضا لمدخله الصعب أين تتجمع رمال المحيط، فإذا تجاوزته السفن وجدت به عمقا جيدا ومرسى آمنا تأوي إليه المراكب القرصانية [6] من مختلف المراكز الجهادية بالشمال الإفريقي خاصة من الجزائر وتونس.

وباعتبار سلا هي المدينة الأطلسية الوحيدة التي نجت من الاحتلالين الاسباني والبرتغالي[7]، ونظرا لقربها من جزر الكناري[8] واتصال خطوطها البحرية بإسبانيا والبرتغال وأوروبا الغربية والشمالية من ناحية وبأمريكا من ناحية أخرى[9]، فقد أصبحت هذه المدينة

---

[1]- A. Berbrugger:« L’Afrique septentrionale» , in **R .A**. N.°1. 1856, Alger p84.

[2]- محمد داوود: **المرجع السابق**، م1+2، ص 87-102.

[3]- إسماعيل العربي: **المرجع السابق**، ص19.

[4]- ا لناصري: **المرجع السابق**، ج1، ص 19.

[5]- G-Lempriere **: Voyage dans l’empire de Maroc et le royaume de Fez (1790 – 1791),** traduite de l’Anglais par : M. De Sainte – Suzanne, Paris 1801,p50.

[6]- الناصري: **المرجع السابق**، ج1، ص 20.

[7]- عمار بن خروف: **المقال السابق**، ص 68.

[8]- Dan :**op.cit**.p5.

[9]- عثمان الكعاك: **المرجع السابق**، ص 40.

المركز الجهادي الأول بالمملكة المغربية.

ومن المتعارف عليه أن أكبر أعداء البحارة المسلمين في المغرب الكبير خلال القرنين 16و17م هم الإسبان لأسباب معلومة، وبما أن شبه الجزيرة الإيبيرية لها واجهتين بحريتين واحدة متوسطية وأخرى أطلسية، فإن البحارة القراصانة من تونس والجزائر قد استهدفوا جـــزرها وسواحلها المتوسطية، أما السلاويين فقد أجهزوا على سواحلها الأطلسية بالاشتراك مع الجزائريين الذين كانوا يجوبون من البحر الأدرياتيكي إلى ما وراء جبل طارق والذين كانوا قد اجتازوه مبكرا إلى المحيط الأطلسي[1] وتمكنوا من مراقبة حركة السفن المارة به[2].

ومن هنا يبرز التقاطع والتكامل في الخطوط البحرية التي يسلكها قراصنة المدينتين، الأمر الذي ساهم في ظهور علاقات تجارية بين هذين المركزين الجهاديين طيلة القرنين17 و18م وذلك بالرغم من وجود استحكامات عسكرية اسبانية بمضيق جبل طارق[3].

فقد سمح هذا التكامل الجغرافي بين المدينتين في انفتاح البحرية الجزائرية على المحيط الأطلسي، وتوسيع نشاطها القرصني الذي وصل انجلترا واسلاندا بمساعدة قراصنة سلا[4]، كما أنه أسهم في فك العزلة عن قراصنة سلا ودمج نشاطهم القرصني مع بقية المراكز الجهادية المتوسطية الأخرى على غرار الجزائر، تطوان، تونس وطرابلس، وكذا التحكم في التجارة الأوروبية على كل خطوطها البحرية المتوسطية والأطلسية، وحتى التجارة الأمريكية أواخر القرن 18م[5].

---

[1] جون أولف: **المقال السابق**، ص 49.

[2] عمار بن خروف: **المرجع السابق**، ص 22.

[3] ربما هذا ما دفع السلاويين والجزائريين إلى تبادل الرايات لتظليل العدو، راجع التر: **المرجع السابق**، ص 445 .

[4] Dan:**op.cit**, P219.

[5] مولود قاسم نايت بلقاسم: **المرجع السابق**، ج1، ص 228.

2- العوامل البشرية:

كما سبق وتحدثنا في الفصل الأول عن الحيـــــاة الاجــتماعية بمدينتي الجزائر وسلا خلال القرنين 17 و18م، فقد تبين لنا أن هناك تماثل في التركيبة السكانية بالمدينتين، فقد شكل الأندلسيون النازحون من شبه الجزيرة الإيبيرية سنة 1609الفئة التي أعطت دفعا جديدا للجهاد البحري ضد الإسبان[1] وقد أشار المقري إلى ذلك وهو معاصر المأساة بقوله : «... إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب... فخرجت ألوف بفاس...وكذلك بتطاوين وسلا ومتيجة الجزائر، ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرا جرارا وسكنوا سلا وكان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن، وحصنوا سلا وبنوا بها القصور والحمامات والدور وهم الآن بهذا الحال...»[2]، وحسب ما أورده المقري فإن سلا، تطوان والجزائر كانت من أكثر المدن التي استقطابا للمهاجرين الأندلسيين أين لقوا بها ترحيبا كبيرا[3]، خاصة وأنهم قد عانوا الاضطهاد في مدن أخرى كتلمسان، وهران وفاس أين تعرضوا لنهب ممتلكاتهم[4]، وقد أشار إلى المقري بقوله : «...فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم وانتهى بهم الأمر إلى قتلهم ..»[5].

ومن هذا المنطق تجمع الأندلسيون بالمدن التي وجدوا بها الأمان كالجزائر وسلا وتطوان لكن لا يمكننا الجزم بأن الأندلسيين قد لقووا ترحيبا من طرف المغاربة[6]، لذا ظلت هذه الفئة شبه منعزلة عن بقية العناصر الأخرى بمدينة الجزائر[7]، أما في المغرب الأقصى فقد

---

[1] محمد عبد الله عنان: **المرجع السابق**، ص111.

[2] المقري: **المصدر السابق**، ج4، ص 528.

[3] محمد عبد الله عنان: **المرجع السابق**، ص112.

[4] ناصر الدين سعيدوني :**دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ص134.

[5] المقري: **المصدر السابق**، ج4، ص 528.

[6] غييرمو موغاثاليبس: **المرجع السابق**، ص 170.

[7] ظلت فئة الأندلسيين بمدينة الجزائر لا تميل للاختلاط مع بقية الفئات عن طريق الزواج خاصة أوائل العهد العثماني.

تجمعت هذه الفئة بمدينة سلا من كل أنحاء المملكة [1]، ومن هذا المنطلق حاول الأندلسيون خلق نسق اجتماعي موريسكي على مستوى بلاد المغرب، وربطوا علاقات سياسية واقتصادية واجتماعية بين المدن التي تجمعوا بها كالجزائر وسلا وتونس، محاولين توحيد الجهود لاسترجاع الفردوس المفقود بعدما أعدوا السفن وبدأوا بممارسة أعمال القرصنة، وكان اهتمامهم الأول موجها إلى الإسبان للانتقام منهم واستـــرجاع الأندلس [2] ؛ وقد وصف المقري عن رغبة هؤلاء الأندلسيون في العودة إلى بلادهم بقوله:«.. ونازحون لو سئلوا في إتاحة القرب بما في أرمقاهم لبذلوه.. »[3] وذلك امتثالا لقوله تعالى: «... **ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه...»** [4] لذلك ربط أندلسيو سلا علاقات جيدة مع أتراك الجزائر خاصة خلال القرن 17م لما أبدوه من بسالة في إنقاذ الآلاف من المورسكيين ومقارعة المسيحيين حيثما كانوا، الأمر الذي ساعد على خلق تقارب بين المركزين الجهاديين نظرا لتطابق توجهاتهما السياسية حيال الدول المسيحية، وهذا يفنّد ادعاء الأب دان بأن التوافق بين سكان مدينتي الجزائر وسلا يعود لأنهم يمارسون نفس الحرفة وهي القرصنة ويسخّرون لعمليات النهب كل ما يملكونه من ذخيرة وعتاد لأنهم أشخاص كسالى يعتمدون على النهب لتأمين احتياجاتهم الضرورية [5]، وأن نفورهم الطبيعي من المسيحيين جعلهم يوفرون كل الإمكانيات من أجل إلحاق الضرر بهم عن طريق اتحادهم الدائم [6] ولاشك أن ادعاء الأب دان يشوبه الكثير من التعصب الديني باعتباره رجل دين أولا ونظرا لكون العلاقات بين ضفتي الحوض الغربي للمتوسط قد طبعها الصراع الديني منذ سقوط غرناطة سنة 1492، ثم إن وحدة الخطاب الفكري بين مدينتي الجزائر وسلا يعود أساسا إلى تشبع سكان المدينتين بالفكر الصوفي الذي لقي تدعيما كبيرا

---

[1] - السلاوي: **المصدر السابق**، ج2، ص51.

[2] - إلتر: **المرجع السابق**، ص 347.

[3] - المقري: **المرجع السابق**، ج2، ص 353.

[4] - **سورة النساء**، الآية 66.

[5] - Dan :**op.cit**,P123.

[6] - **Ibid**,32.

من قبل الأتراك العثمانيين، حيث ساهم الاتجاه الصوفي في تنشيط حركة الجهاد البحري بالمدينتين ودعم العلاقات بينهما[1].

3- تقلب الأوضاع في مدينتي الجزائر وسلا وتذبذب العلاقات بينهما:

كما بيّنا في الفصل الأول من أن المدينتين قد عرفتا طيلة القرنين 17و18م تقلبات مستمرة في الحياة الاقتصادية، الاجتماعية والسياسية كان لها أثر كبير على العلاقات التجارية بين المركزين الجهاديين، ويبدو أن بعض التقلبات السياسية والاقتصادية بالمدينتين قد ساعدت على ازدهار العلاقة بينهما عكس ما هو مفترض أن يكون بين بلدين متشاحنين في معظم الأوقات؛ وذلك أن الأزمة السياسية والاقتصادية التي كان يعيشها المغرب الأقصى عقب وفاة المنصور السعدي سنة 1603 وانقسامه إلى وحدات سياسية صغيرة متناحرة[2] قد ساعد أتراك الجزائر على توطيد نفوذهم مع أندلسي سلا الحاقدين على الإسبان والناقمين على أبناء المنصور المتنافسين على السلطة، والعاجزين على التصدي للأخطار الخارجية التي تواجه المغرب الأقصى[3].

وقد تمكن السلاويون من تأسيس حكم منفصل عن السـعديين خلال النصف الأول من القـرن 17م، وتشكيل ديوان خاص مقلدين بذلك أتراك الجزائر[4]. وقد عرفت القرصنة السلاوية في هذه الفترة أوج قوتها وازدهارها نظرا للدعم الكبير الذي لقيته من قراصنة الجزائر الذين تعودوا على الخروج معا في حملات مشتركة منذ العقد الأخير من القرن 16م[5]، فقد وجد السلاويون في هذا الدعم فرصة للانتقام من الإسبان، وفرصة لممارسة

1- محفوظ رموم: **المرجع السابق**،ص62، راجع أيضا الناصري : **المرجع السابق**،ج2،ص285.

2- عمار بن خروف: **المقال السابق** ، ص 67.

3- عزيز سامح التر: **المرجع السابق**، ص 384.

4- راجع: ص28.

5- R.Coindreau, **op.cit.** P74.

القرصنة دون قيود[1]. ومما ساعد الجزائر أكثر على التدخل في الشؤون السياسية لفاس لصالح سلا هو مرور قافلة الحج السلاوية سنويا بمدينة الجزائر مصحوبة بأعداد معتبرة من الحجاج، طلاب العلم والمرابطين الذين ساهموا بشكل فعال في إذكاء روح الجهاد[2]، خاصة وأن أتراك الجزائر كانت تربطهم علاقة جيدة بمرابطي سلا من المختارية والدلائية وبقراصنتها لأنهم يرتبطون بمصالح مشتركة، وقد ازدادت هذه العلاقات تقاربا بعد تعاونهم بحرا لمهاجمة الدول الأوروبية، وقد التزم قراصنة سلا بالمحافظة على الاتفاقيات الجزائرية وعملوا تحت الراية الجزائرية [3]، وهذا يدل على عمق العلاقات السياسية بين مدينتي الجزائر وسلا كمراكز جهادية إلى درجة أنه بعد مبايعة بعض الزوايا للعيّاشي ومنحه لقب سلطان المغرب الاقصى، لم يعارضه الأتراك في اتخاذ هذا اللقب خاصة وأن حكام المملكة لم يلتزموا بوعودهم وعهودهم مع الأتراك [4] على عكس العيّاشي الذي أظهر ولاء لهم، وقدم مصلحة المسلمين على أي شيء آخر خاصة وأن علماء الوقت كالإمام بن عبد الواحد بن عاشر وأبي إسحاق الكيلالي وغيرهم قد أفتوا بأن مقاتلة العدو الكافر لا تتوقف على وجود السلطان وإنما يمكن لجماعة المسلمين أن تقوم مقامه، وأن يجاهد في الدين كل من برّ وفاجر امتثالا لقول رسول الله (ص) :« **إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[5].

غير أن السلطان زيدان لم يتقبل الوضع فأرسل جيشا بقيادة عجيبا وكلفه بالقضاء على العياشي، غير أن هذا الأخير هزم عجيبا وأسره رفقة عدد كبير من أتباعه وأرسلهم إلى باشا الجزائر، معلنا تبعيته وولاءه للأتراك العثمانيين، وحتى بعد وفاة العياشي ودخول سلا تحت حكم مرابطي الزاوية الدلائية استمر ولاء السلاويين لأتراك الجزائر بعدما عينوا غيلان قائدا عليهم، وبعد الهجمات التي شنها المولى الرشيد على مرابطي الدلائية، ولم يتلق غيلان

---

[1] عزيز سامح التر: **المرجع السابق**، ص 348.

[2] كان معظم الأتراك العثمانيون متصوّفون حيث جلبوا معهم عدة طرق صوفية كالبكتاشية والملوية وغيرها.

[3] عزيز سامح التر: **المرجع السابق**، ص349.

[4] السلاوي: **المصدر السابق**، ج6، ص74.

[5] **المصدر نفسه**، ج6، ص74.

أي دعم تركي وانسحب إلى الجزائر وباشر العمل بالقرصنة [1]، لتدخل مدينة سلا بعدها تحت الحكم العلوي ولكن هذا لا يعني إطلاقا انقطاع علاقاتها السياسية والتجارية مع مدينة الجزائر، فالأسرة العلوية الشريفة أظهرت عناية بالجهاد البحري[2] خصوصا في عهد المولى إسماعيل حسب ما أشارت إليه المصادر التراثية؛ ومنها رسالته لصاحب تونس 1077هـ يحثه على قطع الامتياز على الأجنبي ويوصيه خيرا بأهل الجزائر قائلا: «.. والمسألة الثانية: هي مسألة جيرانك أهل الجزائر نوصيك أن تتوافق أنت وإياهم على المسالمة وجميل المعاشرة فإنكم كلكم في قطر واحد وجيران في البلاد وإيالتكم واحدة ورعيتكم واحدة ليس بينكم حاجز ولا سترة...» [3]،أما السلطان العثماني فيوافقه الطرح القاضي بتقديم مصالح المسلمين، والجهاد في سبيل الله، ويتضح ذلك من الرسالة التي بعثها السلطان العثماني أحمد خان الثالث[4]ردا على رسالة للسلطان مولاي إسماعيل يشكو فيها من أهل الجزائر ومن جملة ما تضمنته: «.. وإذا احتجت إليهم لغزو وأردت أخذ بلد من بلاد النصارى وأرسلت إليهم يكونون منقادين للخدمة بين يديك كما تحب وترضى إلى أن تقضي غرضك وتتم حاجتك في الجهاد ومرادك، فإن ساعدوك على ذلك فتبارك الله، وإن لم يساعدونك فاكتب لنا وترى ما نفعل بهم، وأنا كما تعلم ما غفلت عنهم إلا لأجل الجهاد.. ولكن إذا أنت تحركت إليهم وقصدت مضرتهم فإنك تعطلهم عن الجهاد ولا ينبغي لك تعطيلهم عن الجهاد شرعا، وإذا هم فعلوا ما يغيظك... فينبغي بحكم وجودك أن تتجاوز عنهم.. ولا تحافيهم بسوء فعلهم لأجل الجهاد..» [5].

---

[1] عزيز سامح التر: **المرجع السابق**، ص285.

[2] وذلك لأن الأشراف العلويين لم يعترفوا بالسلطان العثماني كخليفة على المسلمين واعتبروا أنفسهم أحق بالخلافة الإسلامية استنادا إلى نسبهم الشريف، ومن هذا المنطلق اظهروا عناية بشؤون المسلمين بالجهاد البحري وفداء الأسرى في إطار منافستهم السياسية مع الأتراك.

[3] ابن زيدان: **المصدر السابق**، ص 208و209.

[4] أحمد خان الثالث: خليفة عثماني ولد سنة 1673، وصل إلى الحكم 1703 ثارت عليه الانكشارية ومات بالسجن 1736 راجع: محمد الصغير اليفريني: **روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف** تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، ط2 ،المطبعة الملكية، الرباط، 1995، ص 136.

[5] **المصدر نفسه**، ص 137-138.

وبالرغم من أن المولى إسماعيل قد اهتم بالجهاد البحري وجعل من مدينة سلا مركزا رئيسيا تسير منه كل الثغور، فإن علاقاته مع الجزائر قد مرت بفترات فتور نتيجة المشاحنات السياسية بينهما من جهة، و بسبب السياسة الخارجية التي سلكها المولى إسماعيل القائمة على التسامح الديني من جهة أخرى[1]، وقد أسفرت هذه السياسة عن عقد معاهدات سلم مع الدول الأوروبية تهدف إلى تنظيم العلاقات التجارية كالحد من القرصنة، قضية إرجاع الغنائم وفداء الأسرى[2]، الأمر الذي عرقل بشكل واضح العلاقات التجارية بين الجزائر وسلا، وقيد حركة بيع الغنائم بعدما كان الجزائريون يبيعون غنائمهم في سلا، كما أن قراصنة سلا كانوا يبيعون ما لديهم من غنائم في أسواق الجزائر إذا حاول سلطان فاس ممانعتهم من بيعها في أسواق سلا [3]، وبالرغم من أن هذه العراقيل قد قيدت العلاقات التجارية بين المدينتين إلا أنها لم تصل إطلاقا إلى حد الانقطاع.

ومن هنا يتضح لنا أن العلاقات التجارية الجزائرية السلاوية لم تتأثر بالمشاحنات السياسية بين الجزائر والمغرب الأقصى[4]، ففي 1767 تلقى داي الجزائر محمد عثمان باشا إشعارا من سلطان المغرب الاقصى بأن الأسطول المسيحي يستعد لمهاجمة الجزائر[5]، حيث أن حكام البلدين قد عرفوا كيف يصرفون شعوبهم عن هذا الصراع ويوجهونه نحو الجهاد البحري ضد المسيحيين[6]، وبما أن سلا قد عرفت الاستقلالية في أواخر العهد السعدي فقد ربطتها علاقة وطيدة مع أتراك الجزائر، وتبوأت الصدارة كمركز جهادي مهم يولونه أهمية

---

[1] نجيب زبيب: **الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس**، تقديم: أحمد بن سودة، ج4، ط1، دار الأمير، بيروت 1995 ص 105.

[2] ابن زيدان: **المصدر السابق**، ص 180.

[3] عزيز سامح الترا: **المرجع السابق**، ص 341.

[4] حسين بن رجب شاوش ابن المفتي: **تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها**، تحقيق: فارس كعوان، ط1، بيت الحكمة، الجزائر، 2009، ص 71.

[5] أحمد توفيق المدني: **حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر واسبانيا(1492-1792)**،ط1، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص474.

[6] E. Carette : **Les origines et migrations des principales tribus de l’Algérie**, imprimerie impériale, Paris , p425.

عظمى، حيث أصبحت مركزا لتسيير كل المراسي الأطلسية للملكة ومهبط للسفراء والقناصل الأوروبيين[1]، وفي كل هذه المراحل كان لهذه المدينة علاقات تجارية وطيدة مع مدينة الجزائر حيث أن قراصنة سلا قد عقدوا شراكة مع أقوى وأشجع البحارة الجزائريين.

4- انتقال الصراع إلى السواحل الأطلسية:

إذا كان مطلع القرن 17م هو مرحلة استقرار اقتصادي وازدهار سياسي بالنسبة لمدينتي الجزائر وتونس نتيجة الدعم العثماني المتواصل لهذين المركزين الجهاديين، خاصة مدينة الجزائر التي شكلت المركز الرئيسي للجهاد البحري والتي تسير من خلاله بقية المراكز الجهادية في المغارب، فإن هذا القرن كان بداية للفوضى السياسية والأزمة الاقتصادية بالمغرب الأقصى عقب وفاة المنصور السعدي سنة 1603[2] ؛ حيث أصبح المغرب الأقصى مقسما إلى وحدات سياسية صغيرة متناحرة عاجزة عن توحيد كل أجزائه تحت سلطة واحدة، وسعى كل واحد من أبناء المنصور إلى تعزيز سلطته وتوسيع نفوذه على حساب الآخر[3]، الأمر الذي أفرز عجز هؤلاء السلاطين المتصارعين عن مقاومة الغزو الخارجي (البرتغالي والإسباني) الذي استهدف عدة ثغور من المغرب الأقصى مستغلا التجزؤ والانقسام الذي آلت إليه البلاد.

ومع مطلع القرن 17م كان البرتغاليون قد احتلوا معظم المدن الواقعة على الساحل الأطلسي وعلى مضيق جبل طارق، بينما احتل الإسبان مليلية وحجر بادس ومدن أخرى على الساحل المتوسطي، بحيث لم يبق بيد المغاربة من المنافذ البحرية المفتوحة على الخارج سوى تطوان على البحر المتوسط سلا على المحيط الأطلسي[4]، الأمر الذي سهل على البرتغاليين والإسبان التوغل نحو الداخل دون أن يحرك سلاطين المغرب ساكنا، غير أن

1- ابن زيدان، **المصدر السابق**، ص 255.

2- عمار بن خروف: **المقال السابق**، ص 67.

3- محمد داوود: **المرجع السابق**،م1+2، ص 123.

4- Leila Maziane : **op.cit.** p29.

احتلال الإسبان للمعمورة سنة 1614[1] شكل عاملا مهما ساهم في استفحال الجهاد بمدينة سلا، حيث شعر أهلها بالخطر فلجئوا إلى التعاون مع أتراك الجزائر، ووحدوا جهودهم وبذلوا ما في وسعهم لإضعاف قوة الإسبان وإخراجهم من المراكز التي كانوا قد احتلوها بالمغرب الأقصى، حيث كان أندلسيو سلا يعرضون خدماتهم إذا كانت هناك أي حرب ضد إسبانيا[2].

وقد تزامنت هذه الأوضاع مع التحولات التي شهدتها البحرية الجزائرية، حيث عرفت السفن تطورا كبيرا من حيث القوة النارية والسرعة وقابليتها للملاحة في مياه المحيط[3]، الأمر الذي سمح بشن هجمات مشـــتركة على السواحل الإنجليزية ومهاجمة آيسلاندا إيرلاندا وبلتيمور والوصول إلى شمال كندا إلى جزيرة نيوفوند لاند [4]، الأمر الذي سمح للقرصنة الجهادية المغاربية بالتحكم بالطرق البحرية من البحر الأدرياتيكي إلى ما وراء مضيق جبل طارق إلى الخطوط البحرية بالمحيط الأطـــلسي، من جزر الكناري إلى أوروبا الشمالية، وبالتالي تحكمها في دواليب التجارة الأوروبية انطلاقا من مدينة الجزائر والمراكز الجهادية العاملة تحت رايتها كمدينتي سلا وتونس وغيرهما.

وبعد فرض البحرية الجزائرية السلاوية لسيطرتها على البحار (المتوسط، والأطلسي) أضحت السفن الأوروبية غير قادرة على مغادرة موانئها والقيام بنشاطها التجاري، وأصبحت تشتري أمن تجارتها ورعاياها بالمال وذلك بدفع إتاوات سنوية لتأمين اجتيازها للمتوسط والمحيط الأطلسي بأمان، وسعت للتقرب من حكومة الجزائر لطلب الهدنة [5] أو لطلب وساطتها لعقد الصلح مع المغرب الأقصى لاتقاء هجمات القراصنة السلاويين[6] والثغور المغربية الأخرى العاملة تحت إمرتها كطنجة والعرايش، المهدية (المعمورة)، المحمدية،

---

[1] يقع هذا الثغر شمال سلا على مصب نهر سباو ويطلق عليه أيضا اسم المهدية.

[2] محمد داوود: **المرجع السابق**، م1+2، ص 227.

[3] وليام سبنسر: **المرجع السابق**، ص 169.

[4] محمد داوود: **المرجع السابق**، م1+2، ص 242.

[5] عمار عمورة: **المرجع السابق**، ص 126.

[6] **مذكرات أسير الداي كاثكارث** ص 182.

الدار البيضاء، أزمور، آسفي والصويرة أكادير التي أوكل بالإشراف على نشاطها إلى عامل سلا في عهد المولى اسماعيل[1].

وقد فضلت الدول الأوروبية موقف الخضوع خوفا من هؤلاء القراصنة الذين وصفوهم بالقسوة ولكن هذا يبدو رأيا ضعيفا، فعلى الأرجح أن تكون هذه الحكومات الأوروبية، عملت على انفراد للحصول على فوائد سياسية ضد منافسيها في التجارة[2].

ويبدو أن الانجليز كانوا أكثر الأوروبيين ميولا لهذه السياسة، فبالرغم من أنه في عام 1628 قام مجموعة من أتراك الجزائر ببيع أسرى انجليز في سلا، إلا أن ملك انجلترا شارل الأول قد أصدر أمرا للمراكب الانجليزية بمنع أعمال العدوان على أشخاص أو سفن وبضاعة تتعلق بالجزائر أو سلا أو تطوان ولا على موانئها [3]، وفي المقابل فقد سعى الإنجليز لاحقا علاقتهم الجيدة مع العياشي يطلبوا منه التوسط لهم لدى الجزائر لشراء أسراهم[4].

أما فرنسا فقد عملت مبكرا على كسر أي اتصال كان بين هذين المركزين الجهاديين وذلك بعقد اتفاقيات هدنة وسلم معهما، فقد حاولت من خلال هذه المعاهدات إلزام الجزائريين بعدم السماح لسفن سلا البقاء في مرسى المدينة أكثر من 24ساعة، وفرض جوازات سفر على كل مركز جهادي موقعة من قنصل فرنسا وغيرها من الإجراءات الردعية[5].

ومن هذا المنطلق أصبحت سياسة حكومتي الجزائر وسلا تقوم على أساس قيام علاقات السلم مع بلد ما يكاد يكون مساويا لإعلان الحرب على بلد آخر، فكان البحارة الجزائريون يوجهون سفنهم إلى مختلف المناطق في البحر المتوسط ويتوغلون في المحيط

[1] أبو القاسم الزياني: **المصدر السابق**، ص 18.

[2] إسماعيل العربي: **المرجع السابق**، ص 42.

[3] محمد داوود: **المرجع السابق**، م1+2، ص 223.

[4] أرزقي شويتام: **دراسات ووثائق في التاريخ السياسي والعسكري1519-1830م**،ص 60.

[5] Rauad de Card : **op,cit**,p 304.

الأطلسي بحثا عن السفن التي هي في حالة حرب مع المغرب الأقصى[1]، وكان يؤسر خلالها المئات من الرجـــال والنساء والأطفال والغنائم الضخمة [2]، التي وفــرت للمدينتين عائدات ضخمة من بيع الغنائم وفداء الأسرى وكانت حـــكومتي المدينتين قد اتبعت سياسة تقضي بإقامة علاقات الســـلام مع عدد صغير من الدول المسيحية، وذلك لاستـــخدامها لسفن الشحن الأجنبية فقط [3] لتأمين الطريق البحري بين المراكز الجهادية كتطوان والجزائر وسلا.

مع أوائل القرن 18م أصبحت السفن القرصانية تتعرض للتفتيش من قبل الدول الأوروبية بحجة البحث عن البحارة الأعلاج الذين كانوا يشكلون العنصر المحرك للقرصنة الجزائرية السلاوية، خاصة الهولنديين والانجليز والذين كانوا على خبرة بتقنيات الملاحة في المحيط وشكلوا قوتها المحركة. ومن هذا المنطلق استعملت الغرفة التجارية بمارسيليا كل الحيل والعراقيل لإبعاد هؤلاء عن البحرية الجزائرية السلاوية ، وقد تزامن هذا مع ضعف الدولة العثمانية وتوقف دعمها لهؤلاء البحارة. وهو الامر الذي سمح بانتقال الريادة التجارية في البحر المتوسط بشكل تلقائي من مدينة الجزائر إلى مدينة مرسيليا [4] وهذا ما شجع حكومات أوروبا الشمالية والدول الأوروبية البحرية مثل: فرنسا، هولندا وإنجلترا على شن هجومات عنيفة ضد هذه المدن[5].

5- الأوبئة والأمراض والكوارث الطبيعية:

إن الكوارث الطبيعية والأمراض كـــانت كثيرة الحدوث بالمغارب عامة والمدن التجارية خاصة، إذ تنتقل بعض الأوبئة والأمراض عن طريق التجار الذين ينتقلون بين المدن عن طريق القوافل وعبر المراسي، فقد كان البحارة القراصنة أكثر العناصر السكانية نقلا لهذه

[1]- إسماعيل العربي، **المرجع السابق**، ص 32.

[2]- Dan, **op.cit**, p219.

[3]- إسماعيل العربي، **المرجع السابق**، ص 42.

[4]- اسمماعيل العربي: **المرجع نفسه**، ص 60.

[5]- Ernest Mercier: op,cit,p244.

الأمراض باعتبارهم يجوبون البحار ويتنقلون بين مختلف المدن والمراسي[1].

وكان الطاعون من أكثر الأمراض انتشارا[2]، فقد كان يضرب المدينتين بين الفترة والأخرى، كما أشارت المصادر إلى ظهور أمراض أخرى كالجذري بالمدينتين على غرار ما أورده كل من أبو القاسم الزياني والسلاوي وكذلك الشويهد الذي أورد أن مرض الجذري قد ضرب مدينة الجزائر أكثر من ثمانية مرات خلال القرن 17م، أي بمعدل مرة كل اثنتي عشرة سنة[3].

وفي مثل هذه الظروف تقل الحركة التجارية بالموانئ، ويقلع القراصنة عن الإبحار لأشهر طويلة خوفا من العدوى[4]، وهذا ما أثر بطبيعة الحال على الحركة التجارية والقرصنية بالميناءين.

كما أشارت بعض المصادر إلى حدوث الغلاء والمجاعة في بعض الأوقات خاصة في مدينة سلا، والتي حصدت أرواحا لا تقل عن عدد ضحايا الطاعون، ويذكر السلاوي في هذا الصدد: «...وفي سنة ستين وألف كان بالمغرب...غلاء مفرط، وبلغ صاع البر بمدينة سلا مثقالا وكاد ينعدم بالكلية، وهو غلاء ثم يعهد مثله، وانتشر الفساد وحل بالمغرب وباء كبير حتى كان الناس يموتون في كل طريق رجالا ونساء...»[5] وربما يعود ذلك لكونها منطقة شبه صحراوية يقل بها الزرع[6]، وتشير بعض المصادر إلى أن المجاعات التي كانت تعيشها سلا في كثير من الأوقات كانت سببا في ركوب قراصنتها البحار ومهاجمتهم للسفن والسواحل الأوروبية بحثا عن حاجاتهم[7]، وفي المقابل كانت مدينة الجزائر من أكثر المدن

---

[1] ابن حمادوش: **المصدر السابق**، ص 30.

[2] أرزقي شويتام: **دراسات ووثائق في التاريخ السياسي والعسكري للجزائر(1519-1830م)**، ص 38.

[3] الشويهد: **المصدر السابق**، ص 44.

[4] عزيز سامح إلتر: **المرجع السابق**، ص 219-220.

[5] السلاوي: **المصدر السابق**، ج6، ص 112.

[6] الوزان: **المصدر السابق**، ج1، ص 208.

[7] Léon Godard : «Les évêques du Maroc» ,in **R.A**, N.° 2, Alger, 1857,p339.

المغاربية تعرضا للأوبئة نظرا لكونها مدينة تجارية ومرساها قبلة لمختلف السفن التجارية ومحط لقوافل الحج والتجار [1] وقد ذكر أبو القاسم الزياني ذلك أثناء مروره بمدينة الجزائر أواخر القرن 18م بقوله:

«... ولما بلغنا مدينة الجزائر الوباء بها خفيفا فترلت خارجها وبنيت مضاربي ووجهت من حاشيتي من يأتيني باللوازم...فما رجعت إلا وأنا مصاب بالحمى...» [2]، إضافة إلى الزلازل التي تعرضت لها المدينة طيلة القرنين 17و18م، كلها عوامل أحدثت شللا كبيرا في النشاط التجاري والقرصني بمدينة الجزائر [3].

وفي مطلق الأحوال فإن هذه الكوارث التي كانت تضرب المدينتين من وقت إلى آخر قد أثرت بطريقة أو بأخرى على المعاملات التجارية بين المركزين الجهاديين.

---

1 ‾ G. Lempriere **:op.cit**,p280.

2‾ أبو القاسم الزياني: **المصدر السابق**، ص 192.

3‾ جون أولف: **المرجع السابق**، ص320.

ثانيا: طرق التعامل التجاري بين مدينتي الجزائر وسلا كمراكز للجهاد البحري خلال 17و18م:

إن أهم ما ميز المبادلات التجارية بين مدينتي الجزائر وسلا كمراكز جهادية مهمة في المغارب، هو تقديم كل طرف لتسهيلات وامتيازات تجارية للآخر حتى يتمكن البحارة القراصنة من المدينتين من ممارسة نشاطهم الجهادي بشكل جيد، نظرا للضغوط التي كانت يواجهها هؤلاء سواء من طرف الدول الأوروبية[1] أو بسبب المشاحنات السياسية بين الجزائر والمغرب الأقصى، وبناء على ذلك فإن هذه المبادلات كانت تتم بطرق وتقنيات عديدة تبعا لما تمليه الظروف والأحداث يمكن أن نورد منها ما يلي:

1- الغزو البحري المشترك واقتسام الغنائم:

تشير المصادر التاريخية المتوفرة بين أيدينا إلى أن أول الحملات المشتركة بين البحارة القراصنة من مدينتي الجزائر وسلا كانت قد بدأت أواخر القرن السادس عشر على يد مراد رايس [2]، حتى أنه لا يمكن لأي مؤرخ أو باحث الحديث عن القرصنة السلاوية دون أن يشير إلى هذا البحار الجزائري المشهور[3]، ومن غزواته المشهورة حملته على جزر الكناري بالاشتراك مع قراصنة سلا، حيث خرج من مدينة الجزائر بثلاث سفن حربية في ماي عام 1582 وأرسى في إحدى أهم موانئ مملكة فاس وهو ميناء سلا[4]، والذي أصبح مرسى الأساطيل القرصانية منذ ذلك العهد[5]، حيث اتخذه مراد رايس كقاعدة لتنظيم وتدعيم

---

[1]- محمد بن عبد الوهاب الغساني: **رحلة الوزير في افتكاك الأسير**، تحقيق: عبد الرحيم بنحادة: منشورات معهد الأبحاث في لغات وثقافات آسيا وإفريقيا، طوكيو، 2005، ص 17.

[2]- مراد رايس: أميرال الأسطول الجزائري أواخر القرن 16م، اشتهر بأمير البحر وصاحب المغازي التي وصلت إلى جزر الكناري بالمحيط الأطلسي انظر: محمد المحبي: **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، ج4، ص 255.

[3]- R.Coindreau, **op.cit.**, p74.

[4]- Haëdo : **Histoire des rois d'Alger,** traduite et annotée par: H.D Grammont, Adolphe Jourdan libraire éditeur, Alger, 1881, p197.

[5]- الناصري، **المرجع السابق**، ج3، ص 73.

قواته بمدينـــة سلا استعدادا للهـــجوم على جزر الكـــناري بالمحيط[1] وشواطئ اسبانيا التي تعرضت لهجومات متتالية 1588،1598،1600 انطلاقا من سلا حيث تشير بعض المصادر إلى أن مراد رايس كان يملك أربعة قوادس في سلا، وله أسطول أكثر عددا وأهمية في الجزائر[2]، حيث أضاف لسفنه الحربية ثلاثة صواري أخرى بأربعة عشر مدفع، وأوكل إلى ربان من سلا قيادتها في المحيط وأخذوا الطريق إلى جزر الكناري وهاجموا مدينة لانزاروت lanzarote بـــ250 تركي[3]، وتمكن من أسر 300 شخص من بينهم أم وزوجة وابنة الحاكم وأخذهم كعبيد.

ولكن الحكومة الإسبانية لم تسكت على هذا الوضع وجهزت حملة بخمس عشرة غليوطة تحت قيادة مارتان باديلا [4] الذي حاول أن يكمن لهم في مضيق جبل طارق، الذي اجتازه مراد رايس بسهولة قاصدا مدينة الجزائر محملا بالغنائم والتي ترك جزءا منها لأهل سلا[5]. وأكثر ما يهمنا من حملة مراد رايس على جزر الكناري هو أنه أخرج الأسطول الجزائري القرصني من دائرة النشاط في البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي، واستعان في ذلك ببحارة سلاويين أكفاء على دراية كبيرة بالملاحة في المحيط، حيث اتخذ من هذه المدينة المجاهدة مكانا للاستراحة ومركزا للدعم اللوجيستيكي وحذى حذوه كل البحارة الجزائريين من بعده. وفي المقابل استفاد السلاويون من الغنائم الضخمة من وراء هذه الغزوات الجريئة [6]، وبذلك فقد وضع مراد رايس الخطوة الأولى نحو اتحاد قراصنة الجزائر مع قراصنة سلا، وأخذوا يشنون سوية هجمات عديدة على السواحل البريطانية [7] واتخذوا من جزر الكناري منطلقا في الصيد في اتجاه شواطئ الصيد لنيوفاوند New

[1] R.Coindreau, **op.cit.**, p74.

[2] المنور مروش :**دراسات عن الجزائر في العهد العثماني**، ج2،ص256.

[3] Haëdo , **Histoire des rois d'Alger** , P196.

[4] R.Coindreau, **op.cit.**, p75.

[5] جون أولف: **المقال السابق**، ص 60.

[6] Haëdo : **Histoire des rois d'Alger**, p80.

[7] إلتر: **المرجع السابق**، ص 349.

Found land، كما نزلوا في إيرلاندا، انجلترا الدنمارك، البرتغال وإسبانيا وأخذوا منها الأسرى والغنائم[1].

وبعد وفاة مراد رايس أوائل القرن 17م خلفه أحد أكبر البحارة الجزائريين يدعى سليمان رايس[2]، وقد تمكن هذا الأخير بعد أن أصبحت جمهورية القراصنة الفتية تحت إمرته من إدخال القرصنة الجهادية السلاوية إلى البحر المتوسط بالاشتراك مع الأسطول الجزائري[3]، وفي المقابل فقد استفاد الأسطول الجزائري من التقدم التقني للملاحة في المحيط الأطلسي من خبرة القراصنة الهولنديين والسلاويين[4]، وبذلك فقد أصبح البحارة الجزائريون يشاركون القراصنة السلاويين في الحملات الجهادية بالسواحل الأطلسية، وكذا يشارك هؤلاء البحارة الجزائريين وحتى التونسيون في البحر المتوسط[5].

وهناك رايس جزائري آخر اصطاد في خليج بسكاي بالتعاون مع قراصنة سلا الذين كانوا يجهزونهم بالإرساء والمؤن حين يطلبون ذلك، وكان ذلك حتى خلال حروب مولاي إسماعيل مع إيالة الجزائر ففي سنتي 1624/1623 حيث تمكن البحارة الجزائريون بالتعاون مع السلاويين من نهب ميناء اسكندرون[6].

كما تمكن سليمان رايس سنة 1627 على رأس ثلاثة مراكب من أن يغنم أكثر من

---

[1] - L. Godard : **L'article précédent**. p334.

[2] - سليمان رايس: من اكبر وأشهر البحارة الجزائريين ازدهرت في عهده العلاقات الجزائرية السلاوية، خاصة بعد أن تزوج من موريسكية بسلا وأصبح له أولاد، حتى أن مولاي زيدان قد عينه 1624 أميرالا على البحرية السلاوية بعدما قرر الاستقرار بهذه المدينة.حول سليمان رايس انظر: Coindreau :**op.cit.** , p76

[3] - **Ibid.**, p76.

[4] - المنوّر مرّوش :**دراسات في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**،**ج2**، ص283.

[5] - أثناء حملة مالطة على ميناء مرسى حلق الوادي في عهد الداي أحمد خوجة تم حرق سفن تعود لسلا. راجع أيضا: السرّاج: **المصدر السابق**، ص 223.

[6] - سبنسر: **المرجع السابق**، ص 170.

400 اسلاندي من رجال ونساء وأطفال [1]، وقد تمكن نائبه مراد يانسز(هولندي الأصل) بعد انتقاله الى سلا من الحفاظ على علاقات وطيدة مع الجزائر، هذه الأخيرة التي كان يمتلك بها مجموعة من السفن، وعلى العموم فقد كانت الحملات المهمة تنظم بالتعاون بين الميناءين.

وفي هذه الفترة كان التنقل بين الموانئ المغربية يجعل بعض الرياس ينتمون لعدة موانئ في آن واحد، ففي عهده (مراد يانسز)كان قراصنة الجزائر وسلا يغزون سويا الجزر الشمالية البعيدة مثل جزيرة نيوفولاند قرب كندا، وكذا الهجوم على اسلاندا سنة1627 بثلاثة سفن جزائرية وسفينة سلاوية أين تم أسر أكثر من 110شخص،إضافة إلى المواشي والبضائع الثمينة[2] .

وفي سنة 1631م تم تنفيذ عملية مشتركة جزائرية سلاوية في إيلاندا، تمكنوا من خلالها من اعتقال حوالي 200 جندي لما نزلوا بأرض تابعة للإنجليز. [3] .

وفي سنة 1641م قاد شعبان رايس مركب قرصان جزائري يضم ست عشرة مدفعا وطاقم يتكون من 150 رجل محارب، أعيد تسليح المركب بسلا وبعد الإبحار تمكن من اصطياد مركب انجليزي محمل بالملح وقارب صيد صغير[4] . لتتوالى بعدها الحملات المشتركة الجزائرية السلاوية طيلة القرن 17م وحتى القرن الثامن عشر سواء بالمحيط الأطلسي أو في البحر ا المتوسط.

فخلال سنة 1687م تمكنوا من اصطياد أكثر من خمس سفن معظمها فرنسية أو إنجليزية الجنسية محملة بمواد مختلفة: كالأسلحة، القمح، الأرز، الفستق والخمر وتم استبعاد

---

[1]- Berbrugger (A) :« La piraterie musulmane», in **R.A**. N.° 2 , Alger, 1857, p345.

انظر أيضا: R.Coindreau : . **op.cit**p76.

[2]- المنور مروش : **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، ج2**، ص284.

[3]- R .Coindreau, **op.cit.**, p76.

[4]- Leila Maziane : **op.cit.**, p90.

طواقمها مما أدى إلى احتجاج الدول المتضررة [1].

وحسب ما أورده الأب دان حول سلم تقسيم الغنائم بعد كل حملة مشتركة خلال النصف الأول من القرن 17م من أن باشا الجزائر يأخذ 12%، باي تونس 10%، وكذلك حاكم سلا 10% ويقسم الباقي حيث يذهب نصفه لملاك السفن.

وبما أن مدينة سلا لم تصنع السفن إلا في النصف الثاني من القرن 18م فإن عدد قطع الأسطول السلاوي محدودة جدا أغلبها من غنائم القرصنة، ومن هذا المنطلق فإن عدد السفن السلاوية المساهمة في الغزو المشترك مع الجزائريين محدودة، وبالتالي فنصيبها من النصف الأول من الغنائم محدود يكون حسب عدد السفن المشاركة ونوعيتها، أما النصف الثاني فهو من نصيب طاقم السفينة وجنودها ويأخذ الرياس من هذا النصف الثاني بين عشرة واثنتي عشر سهما [2]، وعلى الأرجح النسبة التي يستفيد منها السلاويون تختلف حسب الغزوة البحرية فإذا كانت الغزوة متوسطية فأغلب الرياس يكونون من الجزائر، وبالتالي فإن نصيب السلاويين من الغنائم محدود، أما إذا كانت الغزوة أطلسية فإن الجزائريين يستعينون بعدد معتبر من السلاويين نظرا لمعرفتهم بجغرافية تلك المناطق وخبرتهم بتقنيات الملاحة في المحيط وبذلك فيكون نصيبهم معتبر [3].

وعلى العموم يمكن القول أن نصيب السلاويين من الغنائم العائدة من حملاتهم المشتركة مع الجزائريين تصل إلى ثلث الغنائم وقد أورد كواندرو أن حملة جزائرية سلاوية من 11إلى14 ماي سنة1687 قد تمكنت من حجز ثلاثة مراكب لسان فاليري Sant Valéry محملة بالقمح اقتيد مركبان إلى مدينة الجزائر ومركب واحد كان للسلاويين والذي اقتيد إلى تطوان [4].

---

1 - R.Coindreau : **op.cit.**, P76.

2- جون أولف: **المقال السابق**، ص 58.

3- راجع : ص132.

4 - R.Coindreau, **op.cit.**, p79.

التي كانت من أهم المراكز لبيع الغنائم[1].

وفي أواخر القرن17م أخذت سفينة جزائرية سفينة فرنسية بشواطئ سلا وأسرت فيها مائة فرنسي، وجهت ستين منهم برا إلى الجزائر عن طريق الأراضي المغربية[2]، وهذا ما يبين أن نصيب السلاويين من حملاتهم المشتركة قد يتجاوز الثلث إذ يتراوح من 33% إلى 40% من مجمل الغنائم .

ومجمل القول أن هذه الحملات المشتركة بين الأسطولين الجزائري السلاوي لم تقتصر على اقتسام الغنائم، بل مكنت البحارة المغاربة من التحكم في كل الطرق البحرية المارة عبر مضيق جبل طارق وباتجاه الشرق، وكذلك ضرب إسبانيا على جبهات متعددة متوسطية والأطلسية وكذا القوى المسيحية شمال أوروبا.

2- تبادل حمل الأعلام أثناء العملية الجهادية:

أوردت بعض المصادر معلومات مهمة تتعلق بطرق التعامل التجاري بين البحارة القراصنة من المدينتين، وتتمثل في حمل قراصنة سلا للراية الجزائرية أثناء العمليات الجهادية لتظليل العدو خاصة إذا كانت هذه الدولة في حالة حرب مع سلا وعلى سلم مع الجزائر، فقد كان السلاويون يرفعون أعلاما مزيفة حتى اللحظة الأخير[3]، فقد كان ربان السفينة غير متأكد ما إذا كان يتعامل رايس جزائري أم مع قرصان سلاوي، فإن استعمل ربان السفينة القوة كقنابل المدافع وكانت السفينة جزائرية، فإنه سيحمل إلى مدينة الجزائر ويحاكم هو والقنصل المعني، أما إذا فشل في صد البحارة وكانت السفينة سلاوية فإن سفينته ستحتجز ويسرق طاقمها.

وقد أبرزت هذه المشاكل فشل الرياس الجزائريين في إظهار علمهم الحقيقي إلا بعد

---

[1] H.D .De Grammont: **Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742),** Libraire Ernest Leroux, Paris, 1890, p72.

[2] الناصري: **المرجع السابق**، ج 3،ص 97.

[3] جون أولف: **المقال السابق**، ص 59.

طلبهم حق الصعود إلى ظهر السفينة وفحص حمولتها[1]، ولذلك فقد سعت القوى الأوروبية المتضررة على رأسها فرنسا إلى عقد مجموعة من المعاهدات مع سلطات الجزائر نصت على حمل جوازات سفر مطابقة للنسخة التي يعطيها لهم القنصل في الجزائر، لكن هذه الطريقة لم ترض البحارة القراصنة المصرين على مصادرة البضاعة المهربة لأعدائهم[2].

أول معاهدة سعت إلى إرساء ضـــمانات لتجارها ومراكبها هي المعـــاهدة الموقعة بين الجزائر وفرنسا سنة 1641، حيث تمسكت الجزائر بطلـــبها المتعلق بأن أي طاقم سفينة يقاوم فرقة التفتيش بالسلاح ســـيأخذ كرقيق، وهو البند الذي رفض ريتشلو[3] المصادقة عليه لأنه كان متخوفا من قراصنة سلا الذين دأبوا على حمل الراية الجزائرية كما سبقت الإشارة، وفي المقابل عارض البند المتعلق بمصادرة البضائع وحجز الذين ينتمون إلى أعداء الإيالة الجزائر، مع أن فرنسا كانت تطالب بنفس الحق[4]. وبالرغم من ذلك فإن هذه المعاهدات لم تجد نفعا بسبب تمسك كل طرف بمصالحه الخاصة، ورغبة الجزائر في دعم قراصنة سلا بأي طريقة كانت لممارسة نشاطهم الجهادي القرصني ضد السفن المسيحية، خاصة إذا علما أنه طيلة العقود الستة الأولى من القرن 17م عرفت سلا استقلالا سياسيا عن المملكة المغربية، وربطت علاقات جيدة مع أتراك الجزائر لما أبدوه من شجاعة وبسالة في مقارعة القوى المسيحية[5].

و لم تشر المصادر ما إذا كان حمل السلاويين للراية الجزائرية كان تعبيرا عن ولائهم لأتراك الجزائر، أم كانت طريقة لاصطياد السفن المسيحية والحصول على غنائم معتبرة، وفي

---

[1] جون أولف: **المرجع السابق**، ص 423.

[2] جون أولف: **المقال السابق** ،ص 59.

[3] الكاردينال ريتشيلو: ممثل للحكومة الفرنسية في شمال إفريقيا خاصة الجزائر وسلا يقوم بدور القناصل الفرنسي إضافة إلى تحرير الأسرى، متابعة الممارسات الدينية المسيحية وكذا متابعة قضايا الفرنسيين بسلا وكذا الجزائر، انظر: Rauad de Card:**. L'article précédent**, p303.

[4] جمال قنان: **معاهدات الجزائر مع فرنسا(1619-1830م)**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص 270 271.

[5] راجع: ص136.

المقابل فقد أشارت بعض المصادر إلى حمل الجزائريين للراية السلاوية أثناء مهاجمة السفن الفرنسية[1].

لم تشـــر المصادر المتوفرة بين أيدينا ما إذا كان الجزائريون مترعجون من سلوك الســـلاويين، بل بالعكس فإن قراصنة سلا كانوا يبيعون غـــنائمهم على ظهر السفن الجـــزائرية وبمدينة الجزائر بكل حرية[2].

غير أن استمرار الظاهرة في البحر المتوسط طيلة القرنيين17و18م يدل على أن الجزائر لم تتخذ أي إجراءات ردعية ضد قراصنة سلا، فبعد نهاية الحرب الجزائرية الفرنسية سنة 1763 تجددت الأزمة بين الطرفين، بعد أن أغرقت فرقاطة فرنسية شبيكة جزائرية بدعوى أنها ظنتها سفينة لأحد قراصنة سلا وكانت النتيجة فقدان كل الطاقم في البحر، فغضب الداي وصادر جميع السفن الفرنسية في المرسى، وبعد أسبوع من المفاوضات توصل الطرفان إلى معاهدة سلام اشتملت على بند ينص على منع قراصنة سلا من البيع على ظهر السفن الجزائرية للبضائع والطواقم التي يستولون عليها، بالإضافة إلى ضرورة مغادرة سفن سلا للجزائر أربعة وعشرون ساعة بعد وصولها، ولم يكن الجزائريون على الخصوص سعداء بهذا البند [3] باعتباره يعرقل النشاط القرصني السلاوي الجزائري المشترك، ويحد من تجارة الغنائم التي تشكل موردا هاما من اقتصاد المدينتين.

وقد أبرزت المعاهدات التي عقدتها القوى المسيحية مع مدينتي الجزائر وسلا مدى حرص هذه الدول على كسر هذه الشراكة التجارية بين قراصنة المدينتين، والتي أضرت كثيرا بالتجارة الأوروبية [4] وحتى الأمريكية ابتداء من أواخر القرن18م، سواء في البحر

[1] عزيز سامح إلتر: **المرجع السابق**، ص 445.

[2] عمار بن خروف: **المرجع السابق**، ص 83.

[3] جون أولف: **المرجع السابق**، ص 338.

[4] عبد المجيد القدوري: **سفراء عرب في أوروبا 1610–1922**، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006 ص69.

المتوسط أو في المحيط الأطلسي[1]، فقد سعت فرنسا مبكرا إلى تقييد المعاملات التجارية بين قراصنة المدينتين من خلال ربطهما بمجموعة من الالتزامات لسد الطريق أمامهما، وذلك لأن فرنسا كانت من أكثر الدول التي تدرك الغنائم والأرباح التي كان يحصل عليها القراصنة الجزائريون من وراء ذلك، وأنهم أصبحوا قادرين على بيع ما يحلو لهم في أمكنة أخرى غير مينائهم خاصة الغنائم التي يغنمونها من الفرنسيين، التي كانت سلا سوقا رئيسيا لها، كذلك بالنسبة لقراصنة سلا كانوا يلجؤون إلى ميناء الجزائر للاستراحة أثناء جولاتهم المتوسطية ، وخلال استراحتهم يأخذون معهم الغنائم العائدة للفرنسيين، كما أن قراصنة الجزائر كانوا يهاجمون السفن الفرنسية حاملين علم سلا.

ومن هنا جاء اهتمام الفرنسيين بتقييد العلاقات التجارية بين المدينتين عن طريق سلسلة من المعاهدات[2]، فقد تضمنت معاهدة فرنسا مع الجزائر المنعقدة 21 مارس سنة 1619 منع الجزائريين المغامرين من الأهالي أو الثغاريين[3] الذين يستولون على مراكب فرنسية من اقتيادها إلى سلا للبيع، وأن يتم أخذ تعهد من كل البحارة الذين يخرجون بالمراكب من أجل القرصنة أنهم سيعودون إلى الجزائر، كما منع تعيين الأجانب رياسا لأجـــفان السفن خاصة السلاويين منهم[4]، وهي نفس البنود التي وقعت عليها سلا مع فرنسا سنة 1630حيث تضمنت منع المراكب الجزائرية من بيع الغنائم الفرنسية بمدينة سلا، ويمنعون من طرف القوات المحلية ثم يعادون بسلام إلى الأراضي الفرنسية. كما تتضمن هذه المعاهدات التزام سلا بتقديم التموين اللازم لكل السفن الفرنسية التي تدخل إلى مرسى سلا وبأسعار معقولة مع دفع الحقوق الجمركية المعتادة[5].

ويتضح من خلال مضمون بعض المعاهدات المبرمة بين فرنسا ومدينتي الجزائر وسلا

---

[1]- **مذكرات كاثكارث**: ص 186.

[2]- إلتر: **المرجع السابق**، ص 445.

[3]- راجع: ص46.

[4]- جمال قنان: **المرجع السابق**، ص 268.

[5]- Dan, **op.cit**, p236.

أنها قد حاولت ضرب تجارة الغنائم بين المركزين الجهاديين وعملت على كسر أي نوع من المعاملات التجارية بينهما والتي تقوم أساسا على النشاط التجاري القرصني، وتهدف ظاهريا إلى تأمين تجارتها في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، ولكنها في الواقع تهدف تنمية نفوذها التجاري بالمدينتين من خلال السعي للحصول على تسهيلات وامتيازات، خاصة وأن القوى الأوروبية قد عرفت في هذه المرحلة تحولات اقتصادية عميقة (الثورة الصناعية)، وأصبحت هذه الدول تسعى ليس فقط لحماية تجارتها، وإنما السيطرة على الأسواق في شمال إفريقيا لتصريف فائض منتجاتها [1]، وهذا ما أدى إلى الأفول التدريجي للعلاقات التجارية بين المراكز الجهادية خلال القرن 18م، إذ لم تبرم مدينة سلا خلال هذا القرن إلا معاهدة سلام واحدة مع فرنسا 1767 [2]، وهذا ما يدل على الأفول التدريجي للنشاط القرصني وتحول هذه المدن إلى فضاءات تجارية للصناعة الأوروبية.

3- بيع الغنائم:

رغم المعاهدات العديدة التي عقدتها الدول الأوروبية مع مدينتي الجزائر وسلا بهدف الحد من النشاط التجاري القرصني بينهما، إلا أن هذه العلاقات لم تنقطع إطلاقا طيلة القرنيين17 و18م [3] حتى في فترات السلم والهدنة بين المدينتين والقوى الأوروبية، فعندما توقع مدينة سلا على الهدنة مع دولة أوروبية معينة، يشارك البحارة السلاويون مع الأسطول الجزائري في حملاته الجهادية ويبيعون غنائمهم بمدينة الجزائر وعلى ظهر السفن الجزائرية [4] الأمر الذي أعطى دفعا مستمرا للعلاقات التجارية بين المدينتين، خاصة وأن عدد كبيرا من قطع الأسطول الجزائري وكذا السلاوي يعود للخواص من الأندلسيين والثغاريين والعلوج [5]

[1]- مولود قاسم نايت بلقاسم: **المرجع السابق**، ج1، ص 207.

[2]- E .Rouard de Card: **op.cit**,p298.

[3]- **Ibid**, p302-303.

[4]- جون أولف: **المرجع السابق**، ص 439.

[5]- راجع: ص61 و74.

الذين لم يكونوا يلتزمون بمثل هذه المعاهدات لأسباب عديدة[1].

وتعتبر عملية بيع الغائم بالمدينتين من أهم أوجه التبادل التجاري بين المركزين الجهاديين وبالرغم من أن المصادر لم تعطينا تفاصيل وافية حول طرق التبادل بين المدينتين ما إذا كان يتم عن طريق المقايضة أم نقدا ، كما أنها لم تتطرق إلى العملة المتداولة بينهما، إلا أنها أكدت وجود هذه المعاملات فقد كان البحارة القراصنة من الجزائر وتونس يأتون بالأسرى والسبايا من النصارى إلى المغرب الأقصى، ويبيعونهم بيع الرقيق ويبقون مسترقين في مدينة سلا إلى أن تفديهم حكوماتهم أو أهلهم، وقد جند عدد منهم في القوات المسلحة[2]، وقد وصل عددهم بالمدينة في العقد الرابع من القرن 17م حوالي 1500 أسير[3] وهذا يعود للأعداد الضخمة من الأسرى التي كانت تدخلها السفن الجزائرية إلى المدينة للبيع.

ففي شهر نوفمبر سنة 1629 احتجز مركب جزائري يقوده محمد أوجيا[4] باخرة فرنسية عند دخولها مياه سلا، واسترق طاقم السفينة الذي يضم عددا كبيرا من الوكلاء التجاريين الذين كانوا قد جاءوا لأداء بعض الأعمال الخاصة، وكل ما حصل عليه حاكم الباستيون قد أنفقه لتحرير بعض طاقة السفينة، وقد قدر المبلغ بعشرة آلاف بياستر أي ما يعادل 23.350 فرنك[5].

أما في 5 أفريل سنة1637 أقام الانجليز اتفاقا مع العياشي الذي كان قد استقل بحكم سلا، وتربطه علاقات جيدة مع أتراك الجزائر[6]، وتضمنت هذه الاتفاقية تعهد العياشي بإطلاق سراح الأسرى الإنجليز الموجودين بيد قراصنة سلا، وشراء الأسرى الموجودين في

---

1 - Dan: **op.cit**, p 124.

2 - أمين الريحاني: **الرحلات المغرب الأقصى ونور الأندلس**، ط4، دار الجيل، بيروت، بدون سنة، ص 159-160.

3 - Dan: **op.cit.**, p 321.

4 - من أشهر البحارة بمدينة الجزائر.

5 - H.D.de Grammont **: Relations entre la France et la régence d'Alger au XVIIe Siècle**, Adolphe Jourdan, Li braira Édition, Alger, 1879, p97.

6 - محمد داوود: **المرجع السابق**، م1+2، ص 212.

الجزائر وتونس وإعادهم إلى انجلترا، وبالاعتماد على وساطة العياشي تمكن الانجليز من استرجاع أسراهم الموجودين بالجزائر[1]، ويتضح من ذلك أن مدينة سلا كانت تلعب أحيانا دور الوسيط بين الجزائر والدول الأوروبية في تجارة الأسرى، كما أن مدينة الجزائر قد لعبت دور الوسيط الدبلوماسي الذي لجأت إليه الدول المسيحية كالولايات المتحدة الأمريكية أواخر القرن 18م من أجل عقد سلام وهدنة مع قراصنة سلا، كما أنها منحت جوازات سفر لبعض السفن المسيحية لتأمين طريقها سواء في البحر المتوسط أو في المحيط الأطلسي[2] وهذا يدل على وحدة المنظومة التجارية بين مدينتي الجزائر وسلا. [3]

وقد استمرت عملية بيع الغنائم بالمدينتين حتى أواخر القرن 17 وأوائل القرن18م وذلك بالرغم من الجهود التي بذلتها الدول الاوربية لتقيد هذه المعاملات بين المدينتين من خلال ربطهما بمعاهدات واتفاقيات.

ففي سنة 1683 استولى الريس السلاوي محمد التاج على سفينة انجليزية مشحونة بالرخام وسلع أخرى وهو في طريقه إلى الجزائر، فأسر بحارتها وعددهم ستة وعشرون بحارا وقادها إلى الجزائر، فتعرض له مركب فرنسي فأسرها وأخذ ما فيها من السلع[4].

ومن ذلك أنه في حدود سنة 1686 أسر ريس جزائري يدعى محمد البوسطانجي[5] سفينة هولندية تضم 48 هولنديا وساقها إلى سلا، فاشترى المولى إسماعيل أولئك الأسرى فقامت قيامة هولندا من أجل ذلك وهددت المدينتين (الجزائر وسلا) بالقصف[6].

وهذا يدل على تدعيم حكام المدينتين للجهاد البحري بالرغم من المشاحنات السياسية بين إيالة جزائرية ومملكة المغرب خاصة في عهد المولى إسماعيل أواخر القرن 17م.

1- عزيز سامح إلتر: **المرجع السابق**، ص 361.

2- مذكرات كاثكارث: **المرجع السابق**، ص186.

3- Dan: **op.cit**, p 123.

4- الناصري: **المرجع السابق**، ج3، ص 89. انظر أيضا: R .Coindreau : **op.cit .** p80.

5- محمد البوسطاجي: ريس جزائري من أصل إيطالي اسلم وتعاطي القرصنة تحت إمرة وراية الجزائر.

6 الناصري: **المرجع السابق**: ج3، ص 270.

وفي مراسلة بتاريخ 25 جويلية سنة 1719 كتب القنصل الفرنسي لدى الجزائر أن بعض المراكب الفرنسية التي تم احتجازها من طرف قراصنة سلا، وأنه قد تم إدخالها إلى مينائي الجزائر ووهران لبيع الغنائم، واحتج لدى الداي لمنعهم من بيعها [1] .

وفي 26 جانفي سنة 1750ــ أخذ قرصان جزائري يدعى خليل ريس سفينة متجهة من سلا إلى أمستردام محملة بالصوف واللوز، ولم ينجو من طاقم السفينة إلا ستة أفراد من بينهم أربعة تجار يهود[2] . ونحن لا ندري ما إذا كان هذا البحار الجزائري قد تلقى معلومات عن هذه السفينة المنطلقة من سلا من قبل زملاءه السلاويين فترصد لها، أم كانت صدفة وهذا أمر مستبعد.

4-تجارة الأسلحة:

بما أن كل من مدينتي الجزائر وتونس كانتا تقومان بحملات جهادية مشتركة فقد كانت تجارة الأسلحة قائمة بين المركزين الجهاديين، فإذا كانت مدينة سلا مركز تموين للسفن الجزائرية المبحرة في سواحل الأطلسي[3] ومركزا لإعادة تسليح السفن الجزائرية وتزويدها البارود قبل الانطلاق في حملة جديدة[4]، فإن مدينة الجزائر كانت المركز الأساسي لبيع السفن على اعتبار أنها المركز الجهادي الوحيد في المغارب المصنع للسفن منذ القرن 16م، في حين لم تعرف مدينتي تونس وسلا هذه الصناعة إلا في أواخر القرن 18م.

ومن هذا المنطلق فقد تردد القراصنة السلاويون على ميناء مدينة الجزائر لشراء مختلف أنواع السفن الموجهة للعمليات الجهادية، ومن بينهم الريس السلاوي محمد التاج الذي قدم إلى مدينة الجزائر سنة 1683 لشراء سفينة قرصان وتسليحها، إلا أنه استرق من طرق الفرنسيين وذلك بالرغم من أنه حصل على جواز سفر من القنصل الفرنسي للدخول إلى

1- De Grammont : **Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742)** P155.

2- A Devoulx : «La marine de la régence d'Alger» ,in **R.A**, N.°77 Alger, 1869، p12.

3 -Dan : **op.cit.**, p32 .

4 - Leila Maziane : **op.cit.**, p90.

مدينة الجزائر وشراء السفينة [1]، وقد أشارت إلى ذلك الرسالة التي بعث بها المولى إسماعيل إلى الملك الفرنسي هذا مقتطف منها: «... وأعظم من ذلك كله هو أن رئيسا من بلادنا اسمه التاج كان أعطاه صاحبك الذي أتانا بخط يده على أنه يشتـــري سفينة من الجزائر، ويسافر بها قرصان وغنم قرماطة[2] مسوقة بالرخام والريال مع ما فيها من حرير...وبعثها مع أصحابه ستة وعشرون مسلما فتعرضوا لها سفنكم وأخذوها ...»[3].

ويتضح مما سبق أن تجارة السفن والأسلحة قد أخذت حيزا معتبرا من المبادلات التجارية بين المدينتين ، وكيف أن هذه التجارة قد تعرضت لعراقيل ومضايقات من قبل القوى المسيحية على رأسها فرنسا، حتى أصبح السلاويون لا يستطيعون شراء الأسلحة والسفن من مدينة الجزائر دون الحصول على جواز سفر فرنسي وبالرغم من ذلك فقد حقق الجزائريون أرباحا كبيرة من بيع السفن للسلاويين كما استفاد هؤلاء من بيع الأسلحة والبارود للجزائريين[4].

5- الإمدادات:

إن الإمدادات وتبادل الدعم اللوجستيكي بين مدينتي الجزائر وسلا يعود إلى القرن16م[5] فقد تحدث هايدو عن البحارة الجزائريين الذين كانوا يمارسون القرصنة إلى المغيب، ويبيعون مغانمهم ببعض موانئ مملكة فاس كتطوان، وفي حالة مصادفتها لعاصفة و لم تجد على الفور أي سفينة تسلبها تلجأ إلى الإبحار غربا إلى سلا للتزود والاستراحة لتستعد مجددا للقرصنة والحصول على غنائم جديدة.[6]

وقد استمر ذلك طيلة القرن 17م باعتباره العصر الذهبي للقرصنة الجهادية المغاربية.

---

[1] الناصري: **المرجع السابق**، ج3، ص 89.

[2] القرماطة: دارج يعني المركب راجع: مولاي ابن زيدان: **المصدر السابق**، ص 174.

[3] **المصدر نفسه**، ص 174.

[4] عزيز سامح إلتر: **المرجع السابق**، ص 445.

[5] راجع: ص25.

[6]-F .Diégo Haëdo : **Topographie et histoire générale d’Alger,** p80.

أما المؤن المعروضة في مينائي الجزائر وسلا فهي لا تختلف عما كان يقدم مرسى حلق الوادي بتونس فهي عبارة عن مواد غذائية يمكن حفظها لمدة طويلة[1] والأشياء الضرورية للغاية وتتمثل أساسا في البسكويت[2] والخل والزيت، الفواكه المجففة والجبن وغيرها[3]. بالإضافة إلى الأسلحة[4] التي يقدمها كل مركز جهادي في حال تعرض الآخر لهجوم، أو دخوله في حرب مع دولة مسيحية فقد تحدثت بعض التقارير التي قدمها بعض الجواسيس من قناصل ورهبان فرنسيين إلى حكومتهم أن الجزائر عازمة على التزود بالأسلحة التي يقدمها مجاهدو سلا في حربها ضد فرنسا[5]، ويبدوا أن قراصنة سلا قد دأبوا على تقديم مختلف الإمدادات للبحارة الجزائريين أثناء حملاتهم على سواحل المحيط الأطلسي[6].

6- فداء الأسرى:

إن ما ميز القرن 17م هو اشتداد الصراع الديني بين غرب أوروبا (خاصة إسبانيا والبرتغال) والمغارب عقب صدور قرار الطرد الجماعي الأندلسي سنة 1609، لتخرج بذلك آخر دفعة منهم خلال العقد الأول من هذا القرن، وقد كان لهذا الحدث أثر كبير في نفوس المسلمين يضاهي الأثر الذي تركته سقوط غرناطة سنة 1492.

وبذلك فإن مطلع القرن 17م قد طبع بتجدد الحرب الصليبية بالحوض الغربي للبحر وسواحل المحيط الأطلسي التي كانت مسرحا للحروب البحرية بين الأوروبيين والمغارب استرق على إثرها المئات من الأسرى المسلمين من مختلف المدن المغاربية[7] خاصة من مدينة الجزائر التي شكلت أكبر مركز جهادي مغاربي آنذاك، فانطلاقا من مدينة الجزائر شنت

---

[1] راجع: ص108.

[2] يسمى في مدينة تونس البشماط وهو الخبز المحمص **راجع** : ص106.

[3] جون أولف: **المقال السابق**، ص 58.

[4] Leila Maziane **: op.cit.**, p90.

[5] يحيى بوعزيز: **المرجع السابق** ، ص 88.

[6] راجع:ص158.

[7] الغساني: **المصدر السابق**، ص 13.

حملات جهادية على جبهات متعددة من البحر الأدرياتيكي شرقا إلى السواحل الأطلســـية غربا وصولا إلى السواحل الإنجليزية والإسلاندية.

وبما أن هذا الصراع قد ميزه الطابع الديني فقد أُنشئت خلايا بأوروبا لفداء الأسرى المسيحيين في شمال إفريقيا على يد رهبان وقساوسة الذي أنشئوا جمعيات [1] لجمع التبرعات لهذا الغرض سنة 1676 ورد من باريس، بوردو وتولوز مجموعة من الرهبان إلى ميناء سلا لمقابلة المولى إسماعيل بقصد فداء أسراهم [2]. وفي المقابل دأب حكام سلا خلال النصف الأول من القرن 17م على رأسهم العياشي على التوسط بين الدول الأوروبية وحكام الجزائر من أجل فداء الأسرى، وقد استمر ذلك في العهد العلوي حيث أرسل الحكام العلويين سفرائهم[3] إلى الدول الأوروبية من أجل فداء الأسرى المسلمين بما فيهم الجزائريين، أو التوسط بين الدول الأوروبية وحكام الجزائر لفداء الأسرى المسلمين[4]. وفي هذا الصدد وقد أشار السلاوي في كتابه الإستقصا أن المجاهد العياشي تمكن في إحدى حملاته الجهادية من تحرير زهاء ثلاثمائة أسير من المسلمين وأسر أكثر من ثلاثمائة من النصارى، وظفر المسلمون بقبطان من عظماءهم ففدى به الريس طابق[5] رييس أهل الجزائر وكان عندهم محبوسا في قفص من حديد[6]. فالتصرف النبيل للعياشي لا يعود للعلاقات الجيدة التي كانت تربطه بأتراك الجزائر فحسب وإنما تصرّف وفق ما تقتضيه الأخلاق والمروءة الإنسانية وتحض

[1] كانت قد أنشئت في باريس جمعية تسمى " جمعية الثالوث المقدس وفدية الأسرى" تقوم بجمع الأموال لفداء الأسرى. راجع: إسماعيل العربي: **المرجع السابق**، ص 31.

[2] ابن زيدان: **المصدر السابق**، ص 172.

[3] أشهرها سفارة احمد المهدي الغزال (1766-1767) طلب منه الملك الإسباني التوسط لدى حكام الجزائر لتبادل الأسرى معهم. راجع: السلاوي: **المصدر السابق**، ج8، ص 41.

[4] عبد المجيد القدوري: **المرجع السابق**، ص 37.

[5] الريس طابق: ريس تركي حكم الجزائر خلال السبعينات من القرن 17م لمدة قصيرة نفي بعدها لمدة قصيرة ولسنا ندري ما إذا كان طابق هذا هو الريس نفسه الذي حكم تونس الذي تحدث عنه الوزير السراج، ص476 راجع أيضا: ابن المفتي: **المصدر السابق**، ص 52.

[6] السلاوي: **المصدر السابق**، ج6، ص 75.

عليه الشريعة الإسلامية [1]، والتي التزم بها حكام المغرب الأقصى طيلة القرنين 17و18م، خاصة في عهد المولى إسماعيل الذي دأب على افتداء الأسرى المسلمين بما فيهم الجزائريين منهم، فقد تعددت في عهده السفارات إلى الدول الأوروبية بحثا عن الأسرى المسلمين، حيث اتفق مع فرنسا سنة 1693 على مبادلة الأسرى جمعا بجمع، بما فيهم جميع الأسرى المسلمين بفرنسا سواء من المغرب الأقصى، الجزائر، تونس وطرابلس وحتى الأتراك[2] بغض النظر عن انتماءاتهم السياسية فيكفي أنهم مسلمون، فقد ورد في إحدى مراسلات المولى إسماعيل مع فرنسا في هذا الصدد ما يلي: «... فنحن العرب لا نعرف إلا الصحيح ولا يسرنا إلا ما فيه مصلحة المسلمين كلهم... وقلنا أنك تراعي وتعمل لأولئك طريقا وتسرحهم وإن كانوا ليس فيهم من هو خديمنا، ولا من هو محسوب من جيشنا ولا هو من معرفتنا...» [3]، وهو نفس المرمى الذي يتضح من خلال رسالة السلطان مولاي إسماعيل إلى دون كارلوس الثاني ملك إسبانيا أواخر القرن17م، هذا الأخير الذي طلب من المولى إسماعيل تسريح مائة أسير إسباني فكان جواب المولى إسماعيل كافيا شافيا بقوله: «...وذكرونا (علماء الشريعة) في مسألة غدر أسلافكم بأهل غرناطة...فلأجل هذا أبصرنا كلام علمائنا في هذه النازلة لابد منه ولا محيد عنه...وذلك أن تعطوننا في الخمسين نصرانيا من هذه المائة خمسة آلاف كتاب، مئة كتاب لكل نصراني من كتب الإسلام الصحيحة المختارة المثقفة في خزائنكم بإشبيلية وقرطبة وغرناطة... وتعطون خمسمائة أسير من المسلمين في الخمسين الأخرى عشرة أسارى لكل نصراني، وإن لم توجد الكتب التي هي مرادنا فاجعلوا عوضها من أسارى المسلمين... وقبلها من العدد المذكور الرجل والمرأة والصبي الصغير أو الكبير والشيخ من إيالتنا وغيرها، إذ ما لنا قصد إلا في الأجر والثواب في فكاك أسرى المسلمين كيفما كانوا، ومن أي بلاد كانوا... إنما نقصد بفكاكهم وجه الله تعالى...» [4].

---

[1] محمد داوود :**المرجع السابق**، م1+2، ص214.

[2] الناصري: **المرجع السابق**، ج3، ص 113.

[3] ابن زيدان: **المصدر السابق**، ص 174.

[4] محمد الصغير اليفريني: **المصدر السابق**، ص 104-105.

كما ورد في رسالة من السلطان مولاي إسماعيل ملك إسبانيا فليب الخامس يطلب منه فيها تحرير أسير جزائر سنة 1128هـ(أوائل القرن 18م) وما يلي: «...أما بعد فقد لمقامنا العلي بالله رجل مسكين من أهل الجزائر مزغنة...وذكر لنا بان ولده اسمه محمد بن صوفة أسير عندك في إيالتك الإسبانية، وهو الآن في الغراب المسمى قبَّاطنة واستحيينا منه لكبر سنه ولغربته في بلادنا وقصده إلينا...فلذلك كتبنا لك هذا الكتاب الكريم أسماه الله لتسرّحه لنا بعد أن عيّنا نصرانيا واحدا من جنس السبنيول اسمه امنويل ابانيس ووجَّهناه لمدينة تطوان يجلس بها إلى أن يقدم المسلم الأسير محمد بن صوفة المذكور ونسرحه حتى هو بحول الله وقوته... »[1].

أما في زمن السلطان محمد بن عبد الله سنة 1779 فقد قاد محمد بن عثمان المكناسي سفارة إلى إسبانيا، وكانت المهمة التي توجه من أجلها هي عقد معاهدة لتجديد الصلح بين البلدين وافتكاك الأسرى الجزائريين الذين كانوا بإسبانيا [2]، فقد تمكن السفير المغربي ابن عثمان مبعوث السلطان محمد بن عبد الله إلى ملك إسبانيا سنة 1780 من تحرير مائة واثنتين وعشرين أسيرا جزائريا، فقد كان هذا السلطان المغربي مهتما بتحرير أسرى الجزائر وبذل جهدا لخلاصهم حتى سرح منهم زهاء الألفين على دفعات مختلفة، وصل الأمر إلى توسطه بين الإسبان وحاكم الجزائر، ونجح في تحرير عدد كبير من الجزائريين [3].

ويتضح من هذه الرسائل أن افتداء الأسرى المسلمين بين الطرفين إنما كان يستند أساسا إلى دوافع دينية وإنسانية، حيث حرص الحكام المغاربة على العناية بالأسرى المسلمين طيلة القرنين 17و18م.

[1] المصدر نفسه: ص 131.

[2] الناصري: المرجع السابق، ج4، ص 64.

[3] الغساني: المصدر السابق، ص 14.

ثالثا: الطرق والمواصلات ووسائلها

إن الحديث عن طرق المواصلات بين أي مركزين للجهاد البحري، يوحي لنا من الوهلة الأولى أنها طرق بحرية، غير أن الحالة الأمنية على السواحل المغربية بسبب الاحتلال الاسباني والبرتغالي لكل الثغور المغربية على المحيط الأطلسي، وأصبحت سلا الثغر الوحيد المفتوح على العالم الخارجي، لذا ضيق الأوربيون على هذا الثغر الخناق بسبب نشاط قراصنته واستهدافهم للسفن والسواحل الأوروبية[1]، وهو ما دفع السلاويين للبحث عن طرق تجارية جديدة تربطهم بالمراكز الجهادية الأخرى لتصريف غنائمهم من سلع وأسرى كتطوان والجزائر وتونس فاستخدموا الطرق البرية [2]، وبذلك فإنه يتبن لنا وجود طريقين رئيسين الاتصال بين مدينتي الجزائر وسلا خلال فترة موضوع البحث وأثناء ها:

1-الطريق البحري: إن أسهل طريق لزيارة مدينة الجزائر هو الطريق البحري وذلك باتفاق جميع الرحالة [3]، وكان هذا الطريق قبل احتلال موانئ المغرب الأقصى يمر بمعظم مراسي الأطلسية أو المتوسطية للمملكة وكذلك الموانئ الغربية لإيالة الجزائر: وهي سلا، العرايش، طنجة، سبتة، وتطوان، وبادس على شاطئ البحر المتوسط ثم وهران ومستغانم والجزائر. وبعد الاجتياح الإسباني والبرتغالي لسواحل المغارب لم ينج من هذه المراسي سوى تطوان وسلا [4] وأصبحت مدينة سلا شـــبه منعزلة على المحيط الأطلسي، لذا عرفت الحركة التجارية بينها وبين بقية المدن المغاربية مضايقات عديدة، بسبب سيطرة الأوروبيين على الثغور المطلة على جبل طارق فقد احتل الإسبان سبتة وحجر بادس، أما الانجليز فقد احتلوا طنجة، وهذا الأمر قد ساعد العياشي إلى حد ما نظرا لعلاقته الجيدة مع الانجليز، وتعهد الطرفين بتموين الآخر عند الحاجة[5]، وقد سلك هذا الطريق التمكروتي في

[1] شوقي عطا الله الجمل: **المرجع السابق**، ص 103.

[2] الناصري: **المرجع السابق**، ج3، ص 97.

[3] جون أولف: **المقال السابق**، ص 149.

[4] عمار بن خروف: **المقال السابق** ، ص 67.

[5] محمد داوود: **المرجع السابق**، م1+2، ص 222.

سفارته الشهيرة سنة 1589، غير أن انطلاقته كانت من تطوان في شمال المغرب[1] ، وهو الطريق نفسه الذي سلكه عبد الرزاق ابن حمادوش في رحلته إلى المغرب الأقصى أواخر القرن18م، ولكن وجه التغيير في هذا الطريق يكمن في أنه بعد وقوع حجر بادس آخر المحطات المغربية تحت الاحتلال الإسباني، ثم هنين منفذ تلمسان البحري، لذا أصبحت السفن تدخل إلى جبل طارق ثم تطوان مباشرة.

أما عن الوسائل المستعملة في النقل فهي سفن من نوع الشطيات، غير أن أغلبها أجنبية يتم كرائها من طرف البحارة المسافرين حتى يسمح لهم بالعبور عبر جبل طارق أو خشية من بطش قراصنة البحر الأوروبيين، وكذا للحصول على المؤن من بعض المراسي حيث تحدث ابن حمادوش أنه تنقل من مدينة الجزائر إلى غاية تطوان على متن سفينة فرنسية ثم اكترى سفينة أخرى من جبل طارق[2]، وربما هذا ما دفع حكام الجزائر والمغرب (سلا في مرحلة الاستقلال) أن توقع السلم مع دولة أوروبية يكاد يكون موازيا لإعلان الحرب على أخرى حتى يضمنوا استمرار الغزو البحري، وكذا ضمان سفن نقل يتم كرائها عن الدول التي هي في حالة سلم مع مدينة الجزائر أو سلا[3]، وقد طبقت هذه الاستراتيجية لحماية حركة النقل بين المدينتين حيث كانت سفنهما مستهدفة من السفن الأوروبية باعتبارهما أكبر المراكز الجهادية في المغارب.

2- الطريق البري: فهو الطريق الذي تسلكه قافلة سلا التجارية التي تعد من أكبر القوافل المغربية نظرا لأهميتها الكبيرة على صعيد المبادلات التجارية بين المغارب فهي قافلة ذات طابع ديني وتجاري تتحرك سنويا نحو البقاع المقدسة مارة بمدينتي الجزائر وتونس[4]، وكانت هذه القافلة تنطلق من سلا محملة ببضائع المغرب وبلاد السودان من منسوجات صوفية وأدوات نحاسية، والعقاقير والعبيد والأسرى مارة بتلمسان، معسكر، الجزائر

[1] التمكروتي: **المصدر السابق،** ص 15-27.

[2] ابن حمادوش: **المصدر السابق:** ص30.

[3] إسماعيل العربي: **المرجع السابق،** ص 42.

[4] ابن زيدان: **المصدر السابق،** ص 209.

وقسنطينة إلى أن تبلغ تونس عادة قبيل شهر رمضان، وبعد أن تستكمل مبادلاتها التجارية فيها تأخذ في العودة إلى المغرب الأقصى عبر الجزائر[1] محملة بالألبسة والشاشية [2]، الحياك الأحزمة، الأشرطة المستعملة لتزيين الأثاث والألبسة النسائية [3]، وتستغرق الرحلة من سلا إلى تونس من 25 يوما إلى شهر، فقد أورد الرحالة الاسكتلندي ليثجو الذي سلك نفس الطريق تقريبا من مدينة تونس إلى مدينة فاس 1615، أنه قد استغرق سبعة أيام من مدينة الجزائر إلى فاس[4] التي تقع على مسافة قريبة من سلا، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنه من عادة القوافل أن تدرج على بعض المحطات قصد التزود والاستراحة وكذا للتجارة، فإن الرحلة من الجزائر إلى سـلا لن تتجاوز 12 يوما [5]. وتستعمل قافلة سلا أكثر من مائة جمل في رحلتهـا إلى مدينة الجزائر [6] نظرا لقدرة الجمال على حمل الأثقال ومشاق الطريق كالعطش، لذا فقد شاع استعمالها في كل القوافل التجارية خلال القرنين 17و18م[7] إضافة إلى حيوانات أخرى أليفة كالأحمرة والبغال[8].

وكانت القافلة المغربية تحمل سلعها إلى مدينة الجزائر باستعمال الدواب، الحمير البغال والإبل وتقف أمام باب عزون، وهو الباب الذي تدخل منه إلى الفنادق، أما إذا وصلت إلى الباب ليلا فإنها تبات خارج المدينة، فقد كان من عادات أهل الجزائر إذا أغلقوا أبواب المدينة لا تفتح إلا في الغد[9].

---

[1] عمار بن خروف: **المرجع السابق**، ص 65.

[2] تشير بعض المصادر أن عددا كبيرا من صانعي الشواشي في مدينة تونس من أندلسي سلا انظر: الوزير السراج: **المصدر السابق**، ص 625.

[3] G-Lempriere :**op.cit**,p280.

[4] ميشال آبار: **المقال السابق**، ص 50.

[5] G-Lempriere :**op.cit**,p361.

[6] عمار بن خروف: **المرجع السابق**، ص 64.

[7] ميشال آبار: » **المقال السابق** ، ص .51

[8] G-Lempriere :**op.cit**,p287.

[9] نور الدين عبد القادر: **المرجع السابق**، ص 142.

رابعا: حالة الأمن في الطرق:

إن اضطراب الأمن وانعدامه في الطرق التجارية يعتبر من العوامل الأساسية المؤثرة في الحركية التجارية بين مدينتي الجزائر وسلا، حيث تتحدث المصادر التراثية عن انعـــدام الأمن في الـــطرق البحرية والمسالك البرية الرابطة بينها.

أما اضـــطراب الأمن في الطريق البري فقد كان بسبب الحروب المستمرة بين الجزائر والمغرب الأقصى، إضـــافة إلى حركات التمرد التي كانت سلا ملجأ لثوارها[1].

أما في الطريق البحري فكان بسبب الصراع المسيحي الإسلامي في الحوض الغربي للبحر المتوسط، حيث كانت الحالة أمام الشواطئ البحرية المغربية غير مستقرة ولا مأمونة فالمراكب المسيحية تغدو وتروح مترصدة البحارة المسلمين لمهاجمة سفنهم وأخذ ما يجدون فيها من سلع واسترقاق من فيها من أحرار[2].

فقد كان الطريق البحري المار عبر جبل طارق من أخطر الطرق البحرية في البحر المتوسط، إذ لم يكن آمنا إطلاقا كونه يربط بين أكبر المـــراكز الجهادية في المغارب وهي الجزائر وسلا وتطوان، وعلى طول هذا الطريق تنتشر مجموعة من الحاميات والاستحكامات العسكرية الأوروبية في سبتة ومليلية والمعمورة، والإنجليز في طنجة، فقد شكل هذا الطريق نقطة التماس بين البحارة المسلمين والقوى المسيحية، فكثيرا ما تعرضت السفن الجـــزائرية السلاوية التي تحمل الحجاج والتجار والمسافرين[3]، حيث كان أندلسو سلا يسافرون بحرا عند أهلهم بالجزائر[4] انتقاما من القراصنة السلاويين الذين نهبوا وخربوا السواحل الأوروبية، فقد ورد في الوثائق الهولندية إشارات عديدة لاعتداءات قطع الأسطول الهولندية الحربية على السفن السلاوية المتجهة إلى الجزائر والآبية منها محملة بالبضائع والتجار[5].

1- ابن حمادوش: **المصدر السابق**، ص 96.

2- محمد داوود: **المرجع السابق**، م1+2، ص 204.

3- ابن حمادوش: **المصدر السابق**، ص 30.

4- محمد داوود: **المرجع السابق**، م1+2، ص 89.

5- عمار بن خروف: **المرجع السابق** ، ص 67.

أما الطريق البري فلم يكن أحسن حالا، فالفوضى السياسية التي عاشها المغرب الاقصى عقب وفاة السلطان السعدي أحمد المنصور سنة 1603 ،قد أدت إلى اضطرب الأمن في البلاد، وأصبح الطريق البري خطير للغاية بل شبه مستحيل[1]، فبالرغم من أن قافلة سلا كانت تسلك الطريق الشمالي عبر المسالك الداخلية بحثا عن الأمن، إلا أن هذا الطريق كان محفوفا بالمخاطر[2].

أما الرحالة الاسكتلندي ليثجو الذي قطع الطريق من مدينة الجزائر إلى غاية فاس فقد تحدث عن تهديد السكان للمسافرين حيث أورد : « فشعرنا بشيء من الخوف نظرا لوقف الأهالي واحتقارهم وتهديدهم لنا، إلا أنهم تركونا نواصل السفر من غير أن يفرضوا علينا إتاوة...»[3]، إضافة إلى قطاع الطرق الذين كانوا يهاجمون القوافل التجارية وينهبون البضائع. ومن هذا المنطلق كل القوافل الواردة أو الخارجية من مدينة سلا تكون مدججة بالأسلحة من خناجر وسيوف ورجال أشداء تحسبا لأي هجوم[4].

ومما تقدم يمكن القول أن أهم ما طبع القرنين 17و18م هو استمرار الصراع الجدلي بين ضفتي الحوض الغربي للبحر المتوسط وانتقاله إلى سواحل المحيط الأطلسي، والمتزامن مع استمرار الصراعات السياسية بين أتراك الجزائر وأشراف المغرب الأقصى التي كانت مستمرة في معظم الأوقات، كلها عوامل أثرت بشكل واضح على العلاقات التجارية بين مدينتي الجزائر وسلا التي عرفت مراحل للازدهار وأخرى للأفول إلا أنها لم تصل إطلاقا إلى حد الانقطاع، خاصة بعد استقرار العنصر الأندلسي بمدينة سلا وتحكمه بزمام الأمور بها، خاصة وقد ربطتهم علاقات ممتازة مع أتراك مدينة الجزائر التي كانت معبرا لحجاج ومرابطي سلا مما سمح بتوحيد الخطاب الفكري الصوفي، الأمر الذي أسهم في إذكاء روح بهما الجهاد طيلة قرنين كاملين. أما على الصعيد الاجتماعي فيرتبط الأندلسيون بمدينتي الجزائر وسلا بقرابة

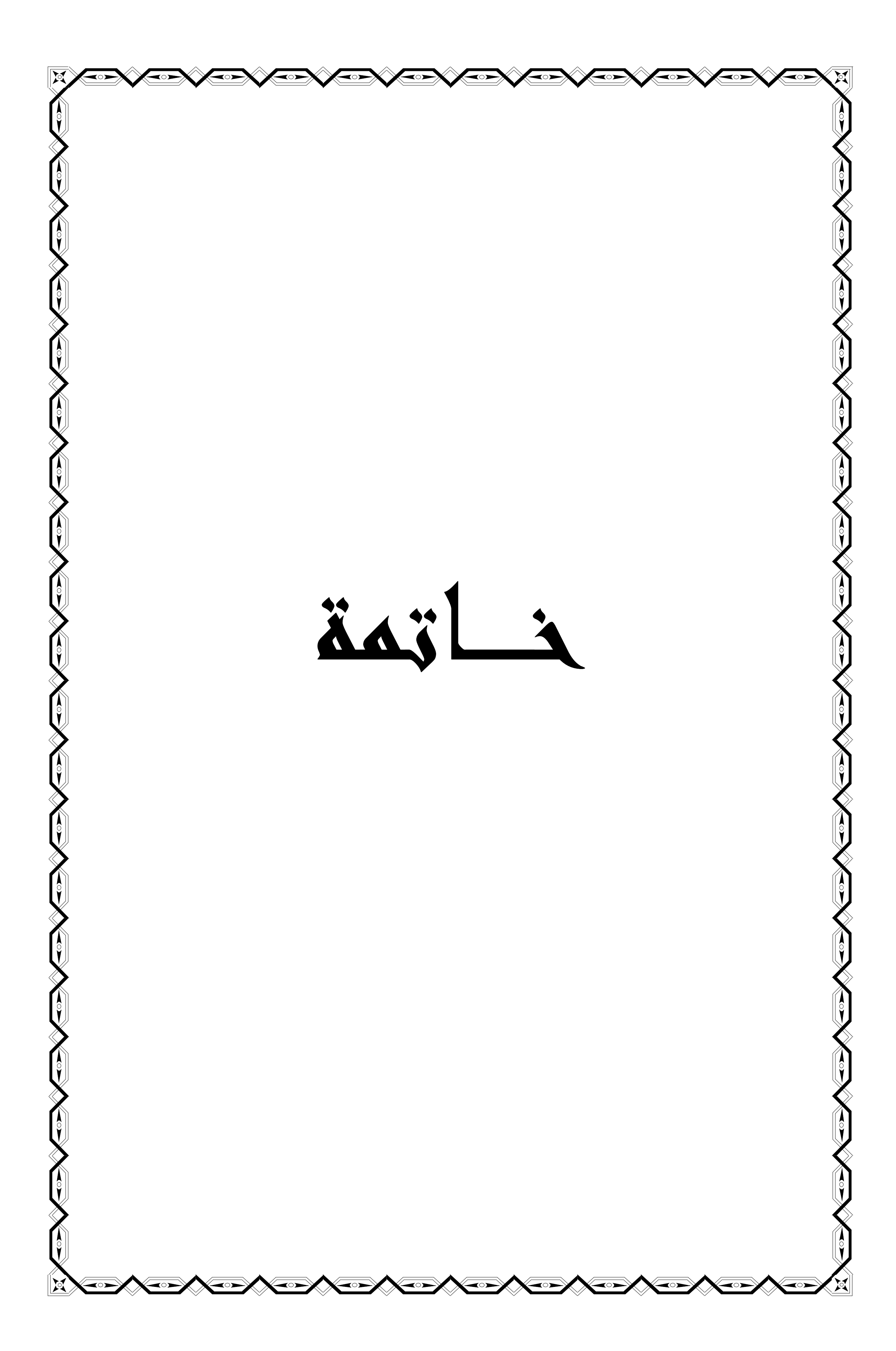
1- محمد داوود: **المرجع السابق**، م1+2، ص 204.

2- G-Lempriere :**op.cit**,p261.

3- ميشال آبار: **المقال السابق**، ص 50.

4- G-Lempriere :**op.cit**,p361.

دموية نتيجة تشتت الأسر الأندلسية عقب صدور قرار الطرد الجماعي سنة1609، وهذا ما يترجم قيام روابط متعددة على عدة أصعدة بين المدينتين سمحت بتوحيد الجهود لنصرة الإسلام والدفاع عن مصالح المسلمين، متجاوزين بذلك كل الصراعات البينية، الأمر الذي سمح باستمرار العلاقات التجارية بين المدينتين والتي لم تصل إطلاقا الى حد الانقطاع، سواء بحرا عن طريق استمرار الحملات المشتركة بين أسطولهما والإمدادات. أو برّا من خلال القافلة التجارية لسلا فكونها قافلة حج فقد سمحت بنقل الغنائم والأسرى بين هاذين المركزين الجهاديين .



خــاتمة

وأخيرا وبعد الانتهاء من كتابة صفحات هذه المذكرة نود أن نقول ما يلي:
إن العلاقات التجارية بين مدينة الجزائر مدينتي تونس وسلا كمراكز للجهاد البحري، قد تحكمت بها جملة من العوامل السياسية، الاقتصادية والاجتماعية، إذ ساهمت في معظمها في ازدهاره حيث أن حكام المراكز الجهادية الثـــلاث قد اهتموا بالجهاد البحري نظرا لعائداته الاقتصادية الضخمة ولحاجة هذه المراكز في دعم قوتها العسكرية لصد الخطر الأوربي الذي ظل يهددها باستمرار.

1- أما العامل السياسي فيتمثل أساسا في الصراعات العسكرية بين القوى السياسية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، إذ ساهمت ازدهار الجهاد البحري تارة، وأفوله تارة أخرى وتتمثل هذه الصراعات في ما يلي:

أ- الصراع بين المغارب بين الدول المسيحية : تجدد هذا الصراع بعد طرد آخر دفعة الأندلسيين من اسبانيا 1609، فقد كان البحر المتوسط مسرحا للصراع بين ضفتيه الجنوبية الإسلامية والشمالية المسيحية، الأمر الذي ساهم في ازهار الجهاد البحري في كل الثغور المغاربية .

ب – الصراع بين القوى المغاربية:

ب1 – الصراع الجزائري التونسي: نتيجة عدم اعتراف الجزائر بشرعية الحكم في تونس واستمرار تدخلاتها في شؤونها، وفرض إتاوة سنوية عليها كإقرار لولائها للجزائر.

ب2 – الصراع الجزائري المغربي: نتيجة عدم اعتراف الأشراف السعديين ثم لاحقا العلويين بعدهم بمشروعية الحكم العثماني في كل من الجزائر وتونس، إذ يرون أنفسهم أحق الخلافة على المسلمين باعتبارهم من آل البيت.

ونظرا لحاجة القوى المغاربية لدعم قوتها السياسية و العسكرية، فقد عرفت كيف توجه هذه الصراعات البينية نحو الجهاد البحري ضد القوى المسيحية، وبذلك فإن الجهاد البحري قد استمر حتى أثناء المشاحنات السياسية بين المغارب أو داخل هذه المراكز الجهادية، التي سخرت كل إمكانياتها لهذا الغرض، لذلك فقد استطاع الجهاد البحري كنشاط عسكري واقتصادي من أن يوحد سياستها الخارجية حيال قضايا البحر المتوسط

والمحيط الأطلسي، فإذا كانت أنظمة كل من تونس والمغرب الأقصى لم تعترف بمدينة الجزائر كعاصمة قطرية للمغارب، فإن العلاقات التجارية بين مدينة الجزائر كمركز رئيسي للجهاد البحري ومدينتي تونس وسلا كمراكز ثانوية، قد أقرت بهذا الوضع السياسي من خلال عملها تحت راية الجزائر واحترامها لكل الاتفاقيات التي تبرمها المدينة مع الدول الأوربية، وبذلك فإن الشعوب المغاربية قد تمكنت من تجاوز الخلافات السياسية للدفاع عن أرضها و دينها .

2- أما العامل الطبيعي فيتمثل في وحدة الامتداد الجغرافي للمغارب الذي أسهم بشكل واضح في ربط علاقات قوية بين مراكزه الجهادية، وذلك من خلال الاستفادة من مزايا موقع كل مدينة في تدعيـــم الخطوط البحرية للجهاد البحري بالمؤن والسلاح، وكذا شن حملات مشتركة امتدت من البحر الادرياتيكي سواحل أوربا الشمـــالية وبعض الجزر الكندية، الأمر الذي مكّن من تطويق القـــوى المسيحية الأوربية ومقـــارعة سفنها حيث ما حلت، وكذا تحكمهم في كل الخطوط البحرية في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي لأزيد لقرنين من الزمـــن.

3- أما العامل الاجتماعي فيتمثل التدفق البشري الهائل من الأندلسيين الذي عرفته المدن الثلاث مقارنة مع المدن المغاربية الأخرى في بداية العقد الأول من17م عقب قرار الطرد الجماعي الذي أصدره الملك الاسباني لويس فليب 1609، فالمتتبع للمسار الجغرافي للأندلسيين النازحين إلى المغارب يجد أن أغلبهم قد تركز بمدن الجزائر، تونس وسلا، نظرا للترحيب الكبير الذي وجدوه بهذه المدن حسب ما أورده المقري، كما أن هؤلاء النازحين قد انحدروا من نفس المدن والقرى الأندلسية، فقد حدث وأن تشتتت العائلة الأندلسية الواحدة على عدة مدن مغاربية، متشبعة بالحقد على الإسبان، هذا الوضع فرض على المغارب نسقا سياسيا واقتصاديا موحدا لقي تأييدا قويا من أتراك الجزائر، فقد استمر الحراك الاجتماعي برا وبحرا بين هذه المدن و لم ينقطع إطلاقا، وذلك بالرغم من مراحل الأفول التي عرفتها هذه العلاقات أثناء المشاحنات السياسية بين المغارب .

4- أما عن طرق التعامل التجاري بين المراكز الثلاثة فقد كانت تتم بأشكال مختلفة وفق ما تمليه الظروف، فقد كان يتم خلال النصف الأول من القرن 17م عن طريق الحملات المشتركة جزائرية تونسية أو جزائرية سلاوية، في حين لم تشر المصادر ما إذا تعدت هذه الأعمال المشتركة إلى حملات تونسية سلاوية، مما يؤكد أن مدينة الجزائر كانت المركز الجهادي المدبر والمسير لكل الحملات المشتركة بين هذه الأقطاب الجهادية.

أما في النصف الثاني من القرن 17م فقد اتخذت هذه المعاملات أشكالا أخرى، نظرا للمعاهدات التي عقدها القوى الأوربية مع هذه المراكز الجهادية والتي تنص في الظاهر على الحد من العنف البحري، تنظيم الملاحة، فداء الأسرى وإرجاع الغنائم، إلا أنها في الواقع تهدف إلى كسر دواليب النشاط التجاري بين الأقطاب الجهادية الثلاثة، فمهادنتها لأحد المراكز يكون متزامنا لإعلان الحرب على مركز آخر، وبالرغم من ذلك فقد استمر الجهاد البحري بأشكال أخرى كتقديم الإمدادات وتبادل حمل الأعلام، بالإضافة إلى أن بحارة كل مركز جهادي كانوا يلجؤون إلى المشاركة في الحملات الجهادية التي تشنها المراكز الأخرى التي تكون في حالة حرب مع بعض الدول المسيحية التي تربطها علاقات سلمية مع حكومتهم، الأمر الذي سمح باستمرار العلاقات التجارية بين هذه المراكز الجهادية في جميع حالات الحرب والسلم مع الدول الأوربية .

أما عن المواد التجارية المتبادلة فقد تمثلت أساسا في الأسرى والغنائم المتمثلة أساسا في المواد التي تتاجر بها الدول الأوربية كالأخشاب، الحبال والصواري، المعادن، الرخام، السفن وبعض المواد الصناعية والغذائية كالقماش، الحرير والقمح وغيرها.

وقد تعدت العلاقات التجارية بين هذه المراكز إلى تقديم مختلف المؤن والإمدادات طيلة القرنيين17و18م، أما المواد التموينية التي كان يتزود بها كل مركز من الآخر فهي المواد التي تقاوم الرطوبة لمدة طويلة ويمكن حفظها لمدة طويلة نظرا طول مدة الإبحار وتتمثل أساسا في الخل، الزيت والسمن، الزيتون، الأرز، البيض، البرغل، الفلفل، القمح، الشحم، القهوة والخبز المحمص الذي يسمى في تونس البشماط، أما اللحوم فتأخذ عددا محدودا من

رؤوس الماشية بكميات قليلة لا تغطي سوى استهلاك يومين أو ثلاثة أيام حسب طاقم السفينة.

أما الخضر فهي موسمية إما ربيعية، صيفية أو خريفية باعتبارها المواسم الأكثر ملائمة للإبحار تتمثل أساسا في البطيخ، الليمون، الرمّان، العنب، التفاح والإجاص بالإضافة إلى مواد أخرى تستخدم أثناء السفر الطويل كحصائر الحلفاء المستخـــدمة في فرش السفن، الشمع وبعض الأسلحة كالبارود، بل إن هذه العلاقات قد تعدت إلى إصلاح السفن الجهادية المعطوبة.

أما مراكز التموين فقد كانت مدينة تونس أهم مركز للدعم اللوجستيكي لبحارة مدينة الجزائر أثناء غاراقم على سواحل البحر الأدرياتيكي والساحل الغربي لإيطاليا، مالطا وسردينيا وكذا الطريق البحري الشرقي المؤدي إلى استانبول الذي سلكه البحارة المغاربة في معاملاقم التجارية مع الباب العالي، أو لدعمه عسكريا في حروبه البحرية ضد اليونان والروس.

أما مدينة سلا فقد كانت أهم مركز تموين للبحارة الجزائريين على المحيط الأطلسي فموقعها الجغرافي الممتاز، قد مكّنها من إيواء السفن الجهادية نظرا للخصائص التي يتميز بها نهر أبورقراق، إضافة إلى معرفة أهلها خاصة الأندلسيين منهم بالطرق البحرية على الأطلسي ومعرفتهم الجيدة للسواحل الاسبانية ومداخلها، ومن هذا المنطلق فإن مدينة سلا لم تمد البحارة الجزائريين بالمؤن فحسب، بل تعدّت إلى إمدادها ببحارة ماهرين الذين كانوا مرشدين جيدين بالطرق البحرية الأطلسية، وفي المقابل فإن قراصنة الجزائر قد مكنوا السلاويين من الدخول إلى البحر المتوسط، الأمر الذي أحدث تكاملا وتداخلا في الطرق البحرية بين المدينتين، كما سمح بربط علاقات تجارية قوية بينهما طيلة الفترة المدروسة.

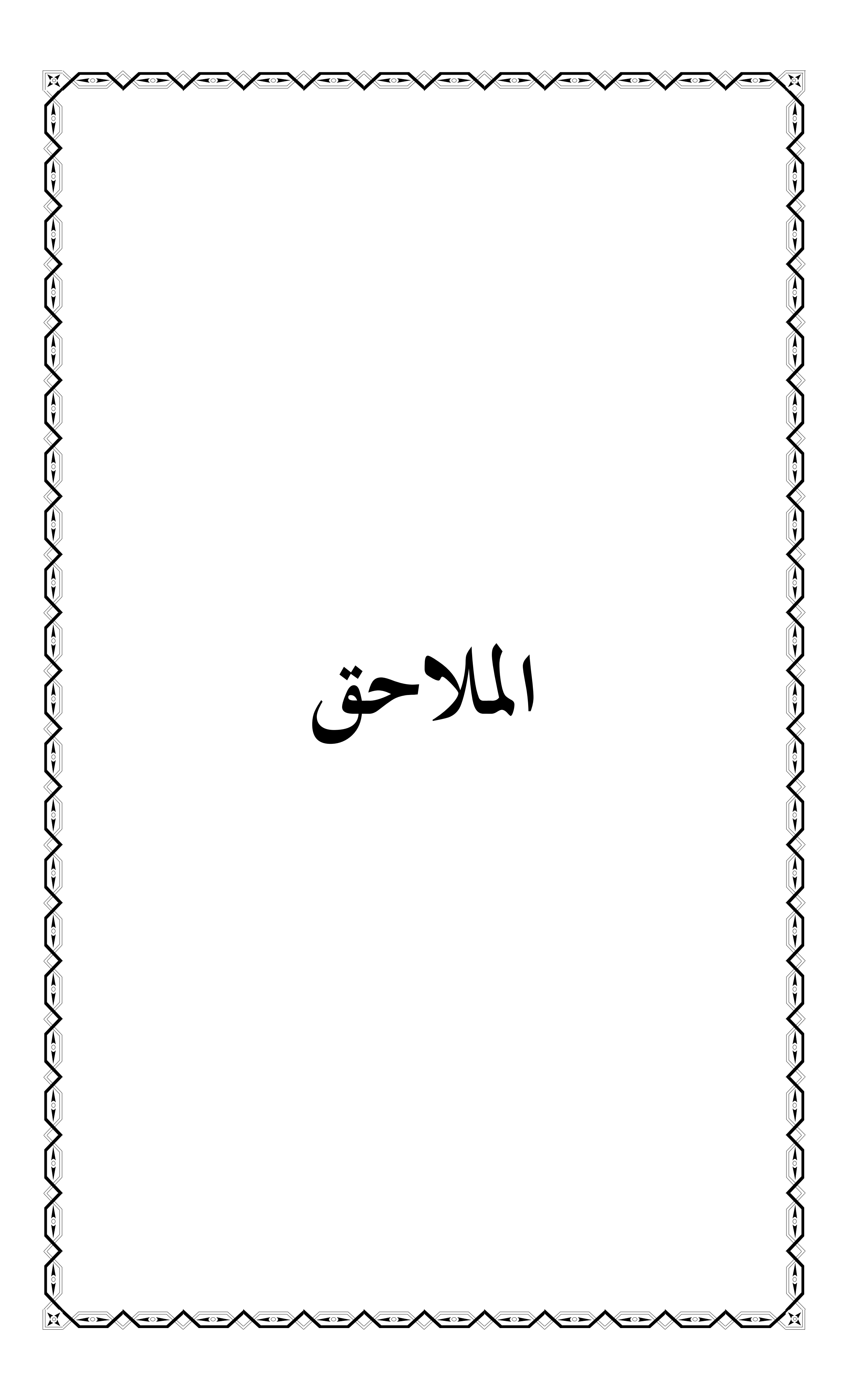
وكيفما كانت هذه المعاملات، فقد دخلت مرحلة الأفول التدريجي ابتداء من العقد الثالث من القرن 18م بسبب التطور الصناعي الذي عرفته أوربا خلال هذا القرن الذي انعكس إيجابا على أوربا، التي أصبحت تملك أحسن الأساطيل وأقواها عدة وعتادا وغدت قادرة على مواجهة القرصنة الجهادية المغاربية، وهو الأمر الذي لم يحرص المغارب على

مواكبته بل إن تونس التي تمكنت من تطوير أسطولها البحري في عهد حمودة باشا بدعم من القوى الأوربية، قد سعت إلى التخلص من النفوذ الجزائري ودخلت في حرب بحرية مع الجزائر وبذلك فقد تحولت الحملات البحرية المشتركة بين الأسطولين خلال القرن 17م إلى مواجهات حربية بينهما أواخر القرن 19م.

وقد لعبت مدينة الجزائر في الفترة المدروسة دورا محوريا، حيث كانت بمثابة عاصمة قطرية للمغارب التي تسيّر منها كل العمليات الجهادية على طول الساحل المغاربي من طرابلس إلى سلا، فقد أعطاها الأتراك العثمانيون هذه المكانة المهمة منذ العقد الثاني من القرن16م بعدما اتخذوها عاصمة للنيابات العثمانية في شمال إفريقيا وقاعدة للجهاد البحري في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

وهكذا نكون قد كتبنا صفحة من صفحات تاريخنا الاقتصادي المغاربي المجيد، وأعطينا ولو صورة بسيطة عن العلاقات التجارية بين المغارب في العصر الحديث.

ومن الله التوفيق



الملاحق

الملحق رقم7

القصيدة1:

قال يحي بن أحمد بن أبي راشد في وصف مدينة الجزائر :

تسقى المطر الهطال أرضا تشرفت	بمصر غدت للفضل والفخر جامعه
ب"مزغنة" الفيحاء تظهر في المدى	ترى كســقيط الثلج بيضاء ناصعة
بنور السما أبراجـــــها قد تألفت	تروقك من أفـــق الأجنة طالعه
وحيث الربيع الغـــض تم شبابه	ترى أرضها تبدى الغــضارة ناجعه
وحيث بدا كسري الرياض متوجا	بتاج نور فهــــي صفراء فاقعة
تريك احمرارا في ابيــضاض كأنها	دماء على ارــض من الثلــج واقعه
دواليبها تسقـــــى الغصون فتنثني	حمائها تشدو على القــضب ساجع
فتبصر أغصان الحـــــدائق سجدا	تميد من الصوت الحنـــــون و راكعه
سقى روضها عهد السحاب فانتشت	أزاهــره بالماء تضحـــــك دامعه

حول القصيدة راجع :محمد بن ميمون الجزائري : **التحفة المرضية في الدولة البكتاشية في بلاد الجزائر المحمية**، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، ط1، الجزائر ، 1972 ، ص63-64.

القصيدة2:

وقال في مدينة الجزائر أبو زيد السيد عبد الرحمن بن عبد الله الجامعي:

تهز قدودا في دعـــــوص كـــــأنها | بنود تثنـــــت في جـــــنود الجزائر
جنود بها الإســـــلام عز مـــــناله | على كل جـــــبار عنيد منـــــــافر
حمو بالصفاح البيض من كل عابث | حماه فلم يعبـــــث به كـــــف فاجر
فكم كسرا ثغرا به كانـــت العدى | تبسم في وجـــــه من الـــدين كاشر
فيا حاديـــه الإضغان حث براكب | يؤم حمـــــاه رغـــــب في الذخـــائر
وسر بي الى ذاك الــــرباط فـــانه | ذخيرة ســــاع للـــــجهاد وزائـــر
وانك مهما جئته جئـــــت روضة | مــــؤرجة أرجـــــاؤها بالأزاهـــــير
ديار بني عثـــــمان –حيث تألفت | ضـــــباب ونـــور – مستـــــقر المسافر
بلاد بتـــاج الغرب تـــــاج مكلل | وخلـــــخال ســـوق الشرق غير ضوامر
بدت بمناصـــــب الزمـــــان كأنها | عروس تجلـــــت في أعـــــالي المنـــــابر
و قلـــــدت من بحـــــرها بموشح | وصيـــــغت لها الأمواج خلـــخال حاسر
و لاح بها باب الجـــــــزيرة مثلما | تبســــــم ثغر في وجـــــوه البـــــشائر
كأن مجاز البحـــــر معصـــم غادة | حلـــــى ســـــوارا و اكتســـــى بجواهر
و لله أبراج بشــــــاطئ بحـــــرها | تحـــــاكي النجـــــوم الزهر في عين خازر
كأن الرياض الخــــــــضر محدقة بها | ذوائـــــب أصـــــداع الوجـــــوه النواضر
غصون و أنهـــــار و تلـــك لهذه | تحـــــــن فتحنـــــو لاستلام الغزائر
فتبدو وقد حاك النســـيم برودها | نصـــــال رماح في زرود مشـــــاجر
و لله ماضمـــــــــنه من كل منظر | حلاوته مـــــا مر تلفـــــي بخـــــــاطر
فدعني من غـــــــرناطة وربوعها | وشنيـــــل فالحـــــسن انتـــهى للجزائر
فما تفصــــــل الحيراء بيضاء غادة | مقرطـــــفة بالـــــــبدر ذات غـــــدائر

راجع : ابن ميمون ، **المصدر السابق**،ص188،189،190.

ملخص

– إن من المسائل التاريخية المهمة في تاريخ المغارب مسألة الجهاد البحري التي لا تزال تثير الجدل، وقد تفرز مواقف ذات نظرة أحادية مشحونة بترسبات الاحتكاك الجدلي بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، وفي هذا الإطار لا يمكن استخلاص الأحكام التاريخية حول موضوع « العلاقات التجارية بين مدينة الجزائر ومدينتي تونس وسلا كمراكز للجهاد البحري خلال القرنين 17-18م. » دون فهم معطيات حركية المجتمع بالمدن الثلاث وكذا التوجهات السياسية بها، إذ تحكمت بهذه العلاقات مجموعة من العوامل المتداخلة التي أدت ازدهار هذه العلاقات تارة وأفولها تارة أخرى، خاصة وأن الجهاد البحري قد شكل في هذه الفترة محور العلاقات العثمانية المغاربية من جهة والصلات المغاربية الأوروبية من جهة أخرى، فبالرغم من أنه قد عمق روح العداء مع العالم المسيحي، إلا أنه رخاء اقتصاديا وتعددا عرقيا بمراكزه الأساسية،حيث أن القوى المغاربية عرفت كيف توجه صراعاتها البينية نحو الجهاد البحري خاصة وأن الطبقات الحاكمة بالمدن الثلاث تتفق في توجهاتها السياسية اتجاه الدول المسيحية، كما ضمت هذه المدن شبكة اجتماعية متنوعة منسجمة هذا الوضع خلق حراكا اجتماعيا بينها ولا يمكن فهم سر هذا التواصل إلا في ظل نوعية العلاقات التي ربطت دار الإسلام بدار الإسلام فكل من مدن الجزائر، تونس وسلا تنتمي إلى نفس المنظومة الدينية والمذهبية، كما أن انتشار الفكر الصوفي بها قد ساعد على توحيد الخطاب الفكري، وتبنيها لحركة الجهاد البحري، وذلك بالاستفادة من مزايا موقع كل مدينة في تدعيم خطوطه البحرية، وتطويق القوى المسيحية من البحر الأدرياتيكي إلى السواحل الشمالية لأوروبا ، خاصة وأن هذه المدن كانت بحاجة لسد العجز الحاصل في بعض المنتجات التي لا يمكن تأمينها على المستوى المغاربي.

– أما عن الطرق التعامل التجاري بين المراكز الثلاثة فقد كانت تتم بأشكال مختلفة إذ كانت تتم أوائل القرن 17م عن طريق الحملات المشتركة بتدبير من مدينة الجزائر ،أما أواخر القرن 17 فقد اتخذت هذه المعاملات أشكالا أخرى كتقديم الإمدادات، وتبادل حمل الأعلام، وفداء الأسرى نظرا للمعاهدات التي عقدتها الدول الأوروبية مع هذه المدن والتي تنص على الحد من العنف البحري .

– أما المواد التجارية المتبادلة: الأخشاب، الحبال، المعادن، الرخام، السفن، القماش، القمح وغيرها، إضافة إلى المؤن التي تقاوم الرطوبة لمدة طويلة كالخل، الزيت والسمن، الزيتون، الأرز، البيض، الشحم، القهوة والخبز المحمص، أما الخضر فهي موسمية تتلاءم مع مواسم الإبحار وهي البطيخ، الليمون، الرمان، العنب، التفاح، إضافة إلى مواد أخرى كالحصائر،الشمع، الأسلحة،إذ شكلت مدينة تونس أهم مركز للدعم على الطريق البحري الشرقي الرابط بين مدينة الجزائر واستنبول ، أما مدينة سلا فقد كانت أهم مركز للتموين على سواحل المحيط الأطلسي، الأمر الذي أحدث تكاملا في الطرق البحرية بين هذه المدن مما سمح بربط علاقات تجارية قوية بينها التي دخلت في مرحلة الأفول التدريجي أواخر القرن 18م .

Résumé

- L'une des principales questions historiques dans l'histoire du Maghreb est la course qui est encore controversée, et elle peut émaner des vues unilatérales chargées de friction dialectique entre l'Orient islamique et l'Occident chrétien. Dans ce contexte, il sera impossible de donner les jugements historiques sur «Les liens commerciaux entre la ville d'Alger et les villes de Tunis et de Salé étant des centres de la course au cours des 17e - 18e siècles AD» sans comprendre la dynamique de la communauté ainsi que les orientations politiques dans les trois villes. Plusieurs facteurs interdépendants, ayant contrôlé ces relations, ont conduit à l'essor de ces relations au temps et à leur pause à d'autre temps, d'autant plus que la course est devenu le centre des relations ottoman-Maghrébines d'une part et des liens Euro-Magrébins d'autre part. Bien qu'il a approfondi l'hostilité envers le monde chrétien, il a apporté la prospérité économique et la multiplicité éthnique à ses trois centres puisque les pouvoirs du Maghreb ont su orienter leurs intra-conflits vers la course, d'autant plus que les classes dirigeantes des trois villes ont les mêmes orientations politiques vis-à-vis les pays chrétiens. Aussi ces trois villes ont inclus un réseau social, varié et harmonieux qui a créé une mobilité sociale. Nous ne pouvons pas comprendre le mystère de cette communication, sauf à la lumière de la qualité des relations tissées entre la maison de l'Islam et la maison de l'Islam ; chacune des villes: Alger, Tunis et Salé appartient au même système religieux et doctrinal. En outre, la propagation de la doctrine soufie a aidé à unifier le discours intellectuel et adopter la course ainsi en profitant de l'emplacement de chaque ville dans le renforcement des lignes maritimes, et à encercler les forces chrétiennes de la mer Adriatique à la rive nord de l'Europe , d'autant plus que ces villes avaient besoin de combler le déficit de certains des produits qui ne peuvent être assurés au niveau du Maghreb.

-En ce qui concerne les façons de faire des échanges commerciaux entre les trois centres, ils ont été faits en diverses formes depuis le début du 17e siècle par des campagnes conjointes orientées par Alger; tandis que la fin du 17e siècle, ces opérations ont été effectuées en d'autres formes, telles que la fourniture d'approvisionnement, le port des drapeaux, et l'échange d'otages vu les traités conçues par les pays européens avec ces villes, qui prévoient la limitation de la violence maritime .

-En ce qui concerne les matières commerciales échangés: du bois, des corde, des métaux, du marbre, des bateaux , des tissus, du blé, etc., en plus des fournitures qui sont résistants à l'humidité pendant une longue période, tels que le vinaigre, l'huile, la margarine, l'olive, le riz , les œufs, la graisse, le café, le pain grillé, alors que les légumes eussent été saisonniers pendant les saisons de navigation comme la pastèque, les citrons, les grenades, les raisins, les pommes, en plus d'autres matières tels que des tapis, de la cire, des armes. La ville de Tunis est devenue le plus important centre de support sur la route de la mer à l'est de liaison entre Alger et Istanbul, tandis que la ville de Salé était le centre le plus important de fourniture sur les rives de l'océan Atlantique. Cela a conduit à l'intégration des routes maritimes entre ces villes, et a aidé à établir des liens commerciaux étroits entre eux, qui sont entrés dans une phase d'un déclin graduel à la fin du 18e siècle.

Abstract

After the viva vouce, the student received a Magister degree (Mark: 14.68) in **"Economic and Cultural Links Between Ottoman Algeria and the Grand Countries of Maghreb."**

- One of the main historical issues in the history of Maghreb is course which is still controversial, and it may emanate one-sided views loaded with dialectical friction between the Islamic East and the Christian West. In this context, it will be impossible to give the historical rulings on «Trade Links between the city of Algiers and the cities of Tunis and Sale as centers for course during the 17th and 18th centuries AD» without understanding the dynamics of the community as well as the political policies in the three cities. Several interrelated factors, which have controlled these relations, have led to the boom of these relationships at times and to their break at other times, especially when course became the focus of the Ottoman –Maghrebin relations on the one hand and the Euro-Maghrebin ties on the other hand. Although it has deepened hostility against the Christian world, it has brought economic prosperity and ethnical multiplicity at its three centres since the Magreb powers knew how to orientate their intra-conflicts towards course, especially since the ruling classes of the three cities agreed on the political orientations towards the Christian countries. Also, these three cities included a variety of harmonious social network which has created a social mobility. We cannot understand the mystery of this communication, but in light of the quality of the relationships that linked the house of Islam to the house of Islam since each of the cities: Algiers, Tunis and Sale belong to the same religious and doctrinal system. Moreover, the spread of Sufi doctrine has helped unify the intellectual discourse and adopt the course as well by taking advantage of the location of each city in strengthening maritime lines, and in encircling the Christian forces from the Adriatic Sea to the northern shores of Europe, especially since these cities needed to meet the shortfall in some of the products that could not be secured on the level of the Maghreb.

-Concerning the ways of doing business among the three big cities, they were made in various forms since the early 17th century AD through joint campaigns masterminded by Algiers; while the late 17th century, these transactions were made in other forms such as providing supplies, exchange the carrying of flags, and the exchange of hostages as well due to the treaty held by European countries with these cities, which provides for the limitation of the use of maritime violence.

-As regards the commercial products exchanged: Wood, rope, metal, marble, ships, cloth, wheat, etc., in addition to the supplies that are resistant to moisture for a long time such as vinegar, oil, margarine, olive, rice, eggs, fat, coffee, toast, and seasonal vegetables, which fit the seasons of sailing, like watermelon, lemons, pomegranates, grapes, apples, coupled with other materials such as carpets, wax, weapons. The city of Tunis became the most important centre of support on the east sea route linking Algiers with Istanbul, while the city of Sale was the most major centre of supply on the shores of the Atlantic Ocean. This led to the integration of the maritime routes between these cities, and helped establish strong trade links between them, which entered the stage of gradual decline in the late 18th century AD.

قائمة المصادر والمراجع

-**القرآن الكريم.**

المخطوطات :

1- بن عمار (أحمد) : **نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب**، مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 2757، ص39.

2- التلمساني (ابن رقية): **الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة**، مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 2603.

3- الفاسي (ابن زاكور): **نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان**، مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1740.

قائمة المصادر العربية:

1- التمكروتي (علي بن محمد): **النفحة المسكية في السفارة التركية**، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية الرباط، 2002.

2- الحشائشي (محمد بن عثمان): **تاريخ جامع الزيتونة**، تحقيق: الجيلالي بن الحاج يحي ط3، دار لهى للطباعة والنشر، تونس، 2006.

3- الحفناوي (أبو القاسم محمد) :**تعريف الخلف من رجال السلف**، القسم الثاني،ط1 مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر والتوزيع ، بيروت ، 1982.

4- ابن حمــــادوش (عبد الرزاق): **لسان المقال في النبأ عن النســـب والحسب والحال** تقديم وتعليق وتحقيق: أبو القاسم سعد الله، طبعة خاصة، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع الجزائر، 2011.

5- ابن حوقل (أبو القاسم محمد): **المسالك والممالك والمغاور والمهالك (صورة الأرض)**.

6- ابن خلدون (عبد الرحمن): **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2007.

7- خوجة (حمدان بن عثمان): **المرآة**، تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري، ط3 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1985.

8- ابن أبي الدينار (محمد بن ابي القاسم الرعيني) : **المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس**،ط3، دار الميسرة، بيروت، 1993.

9- أبو رأس الناصري (محمد بن محمد): **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**، تقديم وتحقيق: محمد غالم، ج1، منشورات قاسكو، الجزائر، 2005.

10- الراشدي (أحمد بن محمد بن علي بن سحنون): **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تحقيق: المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث قسنطينة، 1973.

11- الزهّار (أحمد الشريف): **مذكرات**، تحقيق: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.

12- الزياني (أبو القاسم): **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًّا وبحرًا**، تحقيق وتعليق: عبد الكريم الفيلالي، مطبعة فضالة، المحمدية، 1967.

13- الزياني (محمد بن يوسف): **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران** تحقيق المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978.

14- ابن زيدان (مولاي عبد الرحمن): **المترع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف**، تحقيق: عبد الهادي التازي، ط1، مطبعة إديال، الدار البيضاء، 1993.

15- السراج (محمد بن محمد الأندلسي): **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب الهيلة، ج3، دار الكتب الشرقية، تونس، 1973.

16- السلاوي (أبو العباس أحمد بن خالد): **كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج4+6+8، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956.

17- الشويهد (عبد الله بن محمد): **قانون أسواق مدينة الجزائر (1695-1705)**، تحقيق وتقديم وتعليق: ناصر الدين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت، 2006.

18- ابن أبي الضياف (أحمد): **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان** مراجعة وتعليق: أحمد الطويلي، ج3، الدار التونسية للنشر، تونس، 1979.

19- العدواني (محمد بن محمد بن عمر): **تاريخ العدواني**، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2005.

20- ابن العنتري (محمد الصالح): **فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانهم**، مراجعة وتعليق وتقديم: يحي بوعزيز، دار هومة للنشر والتوزيع الجزائر، 2005.

21- العياشي (أبو سالم عبد الله بن محمد): **الرحلة العياشية (1661-1663) المسماة بماء الموائد**، تحقيق: سعيد الفاضلي، سليمان القرشي،ج2، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع أبو ظبي، 2006.

22- الغبريني (أبو العباس): **عنوان الدراية فيمن عرف في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق وتعليق: عادل نويهض، ط2، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1979.

23- الغساني (محمد بن عبد الوهاب): **رحلة الوزير في افتكاك الأسير**، تحقيق: عبد الرحيم بنحادة، منشورات معهد الأبحاث في لغات وثقافات آسيا وإفريقيا طوكيو، 2005.

24- القشتالي (أبي فارس عبد العزيز بن محمد): **مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا** تحقيق وتقديم: عبد الله كفون، المطبعة المهدية، تطوان 1964.

25- المحامي (فريد بك):**تاريخ الدولة العلية العثمانية**، مكتبة الآداب، القاهرة ، 2009.

26- المحبي (محمد): **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، ج4.

27- ابن المفتي (حسين بن رجب شاوش): **تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلماءها**، مراجعة: فارس كعوان، ط1، بيت الحكمة، الجزائر، 2009.

28- المقري (أحمد بن محمد): **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: إحسان عباس، م6، دار صادر، بيروت، 1968.

29- ابن ميمون الجزائري (محمد): **التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية**، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1972 .

30- الورتيلاني (الحسن بن محمد): **نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار** ، تعليق: ابن مهنا القسنطيني، ج3، دار المعرفة الدولية، 2011.

31- الوزان (الحسن بن محمد):**وصف إفريقيا** ، ترجمة: محمد حجي، محمد الأخضر،ج 1+2+3 ط2،دار الغرب الإسلامي، بيروت ، 1983.

32- اليفريني (محمد الصغير): **روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف** تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1995.

مصادر أجنبية مترجمة:

1- **رحلة العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1732** ترجمة وتعليق: ناصر الدين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي تونس، 208.

2- ستيفن (جون ولسن): **الأسرى الأمريكان في الجزائر(1789-1797)**، ترجمة: علي تابليت، منشورات تالة، الجزائر، 2008.

3- مارمول (كاربخال): **إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي، محمد زينبر، محمد الأخضر، أحمد توفيق، أحمد بنجلون، دار المعرفة للنشر، 1989.

4- **مذكرات أسير الداي كاثكارث (قنصل أمريكا في المغرب)**، ترجمة: إسماعيل العربي ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.

5- **مذكرات خير الدين بربروس**: ترجمة محمد دراج، ط1، شركة أصالة للنشر والتوزيع الجزائر 2010.

6- وويلد (أ. ليسور): **رحلة طريفة في إيالة الجزائر**، تحقيق وتقديم وتعليق وترجمة: محمد جيجلي، دار الأمة، الجزائر، 2002.

قائمة المراجع العربية:

1- ابن حادة (عبد الرحيم) وآخرون: **العثمانيون في المغارب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطية**، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 2005.

2- ابن خروف (عمار): **العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب خلال 16م**، ج2، دار الأمل، الجزائر، 2008.

3- ابن صحراوي (كمال): **الدور الدبلوماسي ليهود الجزائر في أواخر عهد الدايات** بيت الحكمة، الجزائر، 2008.

4- أبو سرور (الصادق): **كتاب جغرافية القطر التونسي**، ط2، المطبعة التونسية 1938.

5- إلتر (عزيز سامح): **الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا**، ت: محمود علي عامر دار النهضة العربية، بيروت، بدون سنة.

6- الإمام (رشاد): **سياسة حمودة باشا في تونس (1782-1814)**، منشورات الجامعة التونسية، 1980م.

7- امريت (مارسيل):« الأحياء التجارية بمدينة الجزائر العهد العثماني» قانون أسواق مدينة الجزائر، ترجمة: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، 2006.

8- أندري ريمون : **المدن العربية الكبرى في العهد العثماني**، ترجمة :لطيف فرج، ط2 دار الفكر للدراسات و النشر و التوزيع، القاهرة،1991 .

9- أولف (جون): **الجزائر وأوروبا (1500-1830)** ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار المعرفة، الجزائر، 2009.

10- بكباشي (محمد أفندي مختار): **المجموعة الشفاهية في علم الجغرافية**، أركان حرب الجهادية، 1294هـ.

11- بوحوش (عمار): **التاريخ السياسي للجزائر من البداية إلى غاية 1962**، ط1 ،دار الغرب الإسلامي ، 1997.

12- بوعزيز(يحي): **علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا (1500-1830)**، طبعة خاصة ، دار البصائر للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2009م.

13- التميمي (عبد الجليل): **دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن 16م**، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2009.

14- التميمي (عبد الجليل): **دراسات في التاريخ الموريسكي الأندلسي**، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان،1993،ص95

15- الجزائري (محمد بن عبد القادر) :**تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر** شرح وتعليق : ممدوح حقي ،ج1+2 ، ط2،دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر.

16- الجمل (شوقي عطا الله): **المغرب العربي الكبير في العصر الحديث**، طبعة خاصة، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1977.

17- الجيلالي (عبد الرحمان): **تاريخ الجزائر العام**، ط8، دار الأمة للطباعة والنشر الجزائر 2008.

18-الجيلالي (عبد الرحمان) وآخرون: **تاريخ المدن الثلاث (الجزائر، المدية، مليانة)** ط1 ، دار الأمة للطباعة و النشر ، الجزائر،2007.

19-حسن حسني (عبد الوهاب):**خلاصة تاريخ تونس،** الدار التونسية للنشر 1983،ص163.

20-حليمي (علي عبد القادر): **جغرافية الجزائر**، ط1، مكتبة الشركة الجزائرية، مرازقة الجزائر، 1968.

21-حليمي (علي عبد القادر): **مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبيل 1830**، ط1، دار الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972.

22-حماش (خليفة): **كشاف وثائق تاريخ الجزائر في العهد العثماني وأحمد باي والأمير عبد القادر في الأرشيف الوطني التونسي**، مطبوعة.

23-داوود (محمد): **تاريخ تطوان**، م1، ط2، مطبعة كريماديس، تطوان.

24-درياس (يامنة): **السكة الجزائرية في العهد العثماني**، ط1، دار الحضارة للطباعة والتوزيع 2007.

25-الركباني (عمر): **خلاصة التاريخ التونسي**، ط4، مطبعة التليلي، تونس، 1949.

26-ركيبي (عبد الله): **الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز**،ج1، دار الحكمة، القاهرة 1958.

27-الريحاني (أمين): **رحلات المغرب الأقصى ونور الأندلس**، دار الجيل، بيروت ،بدون سنة.

28-زبيب (نجيب): **الموســوعة العامة لتاريخ المغــرب والأندلس**، تقديم: أحمد بن سودة، ،ج4، دار الأمير، بيروت، 1995.

29-الزبيري (محمد العربي): **التجارة الخارجية للشرق الجزائري** ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972.

30-الزبيري (محمد العربي): **مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث**، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر.

31-الزعفراني: **يهود الأندلس والمغرب**، ترجمة: أحمد شحلان، ج2، مطبعة النجاح الجديدة ، الرباط، 2000،.

32-سبنسر (وليام): **الجزائر في عهد رياس البحر**، تعريب: عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006.

33-سعيدوني (ناصر الدين): **الجزائر منطلقات آفاق**، ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت 2000.

34-سعيدوني (ناصر الدين): **النظام المالي للجزائر في العهد العثماني (1800-1830)** ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.

35-سعيدوني (ناصر الدين): **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)** ج2 ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

36-الشريف(محمد الهادي): **تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال** تعريب: محمد الشاوش و محمد عجينة ، ط3 ، دار سرّاس للنشر ، تونس، 1993م.

37-شوفاليه (كورين): **الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1530-1541)**، ترجمة: جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

38-شويتام (أرزقي): **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني (1519-1830)**، ط1، دار الكتاب العربي، 2009.

39-شويتام (أرزقي): **دراسات ووثائق في تاريخ العسكري والسياسي (1519-1830)**، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2010.

40-عامر (محمود علي) وآخرون: **تاريخ المغرب الحديث (المغرب الأقصى وليبيا)** جامعة دمشق.

41-عبد القادر (نور الدين): **صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي**،ج2، مطبعة البعث، قسنطينة، 1965.

42-العربي (إسماعيل): **العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب والوم أ (1776-1816)**، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.

43-العربي (إشبودان): **مدينة الجزائر**، ترجمة: جناح مسعود، مراجعة: حاج مسعود مسعود، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007.

44-عمورة (عمار): **الجزائر بوابة التاريخ**،ج2، دار المعرفة، الجزائر، 2009.

45-عميراوي (أحميدة): **الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني** (مذكرات تيدنا أنموذجا)، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، 2003.

46-غطاس (عائشة) وآخرون: «تجار مغاربيون بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني من خلال وثائق القنصلية الفرنسية » **دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله**، جمع وإخراج: ناصر الدين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.

47-غوثالبيس بوستو (غييرمو): **الموريسكيون في المغرب**، ترجمة: مروة محمد إبراهيم مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005.

48-الفيلالي (عبد الكريم): **التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير**،ج4، ط1،شركة ناس للطباعة والنشر ، القاهرة 2006.

49-القدوري (عبد المجيد): **سفراء عرب في أوروبا (1610-1922)**، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006.

50-قنان (جمال): **معاهدات الجزائر مع فرنسا (1619-1830)**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987.

51-الكعاك (عثمان): **محاضرات في مراكز الثقافة في المغرب من القرن (16–19)**، المطبعة الكمالية، القاهرة، 1958.

52-كوران (أرجمنت) : **السياسة العثمانية اتجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر**، ترجمة عبد الجليل التميمي، منشورات الجامعة التونسية،1970.

53- المدني (أحمد توفيق): **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792)** ط1، دار البصائر، الجزائر، 2007.

54-المدني (أحمد توفيق): **كتاب الجزائر**، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1963.

55-المدني (أحمد توفيق): **محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766-1791)**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

56-مروش (المنور): **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (القرصنة)**،ج1 ،دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009.

57-مروش (المنور): **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (العملة الأسعار والمداخيل)**، ج2 ،دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009.

58-مزين (محمد): **فاس وباديتها (مساهمة في تاريخ المغرب السعدي (1549-1637)**،ج2 ، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 1986 .

59-المطوي (محمد العروسي) :السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1980.

60-مقيدش (محمود): **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، تحقيق: علي الزواوي محمد محفوظ، م2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.

61-الناصري (جعفر بن أحمد): **سلا ورباط الفتح أسطولهما وقرصنتهما الجهادية** تحقيق: أحمد بن جعفر الناصري، ج2+3+4+5، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية الرباط، 2006.

62-نايث بلقاسم (مولود قاسم): **شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830**، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، ج1، 2007.

المعاجم والقواميس:

1- أحمد رضا: **معجم متن اللغة**، م1، منشورات مكتبة الحكمة، بيروت، لبنان، 1958.

2- أحمد عطية الله : **القاموس الإسلامي**،م1.

3- أبو عمران الشيخ وآخرون: **معجم مشاهير المغاربة**، منشورات دحلب، الجزائر 2007.

4- **المنجد في اللغة والأعلام**، ط40، دار المشرق، بيروت، 2003.

5- ابن منظور: (أبو الفضل جمال الدين بن مكرم)، **لسان اللسان تهذيب لسان العرب** ج2، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993.

الموسوعات والأطالس:

1- أبو حجر (آمنة): **موسوعة المدن العربية** ، ط1، دار أسامة للنشر والتوزيع ،عمان الاردن، 2002.

2- بدران (شارل جورج): **الأطلس العالمي**، مطبعة قلاردي، 1978.

3- بريل (أ. جيل): **موجز دائرة المعارف الإسلامية**، ج12، ط1.

4- الخوند (مسعود): **الموسوعة التاريخية الجغرافية**،ج7، الشركة العالمية للموسوعات بيروت، 2004

5- الشناوي (أحمد) وآخرون: **دائرة المعارف الإسلامية** ، مراجعة محمد مهدي علام م12 دار المعرفة ،بيروت .

6- موريس(شربل كمال): **الموسوعة الجغرافية للوطن العربي**،ط1 ،دار الجيل، بيروت . 1998

الرسائل الجامعية:

1- بلعمري (فاتح): **مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر من خلال بعض الرحالة العرب والأوروبيين،** مذكرة لنيل درجة الماجستير في التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، (2008-2009).

2- حماش (خليفة): **العلاقة بين الجزائر والباب العالي** ،رسالة ماجستير في التاريخ الحديث ،كلية الآداب ، مصر ،1988.

3- رموم (محفوظ): **الثقافة و المثاقفة في المجتمع الحضري الجزائري خلال العهد العثماني (1519–1830)**، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة الأمير عبد القادر، 2002 .

4- رهيوي (رجاء): **دايات الجزائر صور وأبعاد (1671–1830)**، إشراف فاطمة الزهراء قشي، مذكرة لنيل درجة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة،(2007-2008).

5- العابد (زكريا): **الجزائر في العهد العثماني من خلال رحلات أوروبية،** مذكرة لنيل درجة ماجستير في التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2007.

6- فيلالي (السايح): **العلاقات السياسية الجزائرية التونسية (1792-1837)**، أطروحة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة (1997-1998).

الدوريات:

1- آبار (ميشال):« الجزائر في القرن السابع عشر لرحالة اسكتلندي » **مجلة الثقافة**، ترجمة د. حنفي عيسى، العدد3، 1971.

2- ابن خروف (عمار):« ملامح من الحياة الاقتصادية في المغرب في عهد السعديين» **مجلة الدراسات التاريخية**، العدد3، جامعة الجزائر، 1987.

3- ابن عبود (محمد): «الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب الأقصى خلال القرنين 16و17م» **المجلة التاريخية المغاربية**، العدد 55-56، تونس، 1989.

4- أولف (جون): « رياس البحر» **مجلة الدراسات التاريخية** ترجمة: أبو القاسم سعد الله، العدد3، جامعة الجزائر، 1987.

5- التميمي (عبد الجليل): «العلاقات الثقافية بين اسطنبول والمغرب الأقصى خلال العصر الحديث» **المجلة التاريخية المغاربية**، العدد 57و58، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، 1990.

6- حليمي (عبد القادر):« أثر التضاريس في تخطيط مدينة الجزائر»، **مجلة الأصالة** ،العدد 16، مطبعة البعث، قسنطينة، 1973.

7- سعيدوني (ناصر الدين):« فحص مدينة الجزائر أواخر لعهد العثماني» **مجلة الدراسات التاريخية**، العدد1، جامعة الجزائر، 1986.

8- سعيدوني (ناصر الدين):« نظرة في التاريخ الاقتصادي للجزائر خلال العهد العثماني » **مجلة سيرتا** ، العدد3، معهد التاريخ جامعة منتوري قسنطينة، 1980.

9- عنان (محمد عبد القادر):«سقوط الأندلس وآخر مسلميها » **مجلة الأصالة**، العدد 27، مطبعة البعث، قسنطينة، 1975.

10- فينار (جيروم): « رؤية جديدة للقرصنة» **المجلة التاريخية المغاربية**، ترجمة: عبد الجليل التميمي، العدد13و14، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس 1979.

- **قائمة المصادر باللغة الأجنبية:**

1- Conestaggio (Jeronimo) :**Relation des préparatifs faits pour surprendre Alger**, traduite de l'italien par : H.D. de Grammont, Adolphe Jourdan, Libraire, édition : Alger, 1882.

2- Dan (Pierre) **: Histoire de barbarie et de ses Corsaires (des royaumes d' Alger ,de Tunis , de Tripoli et de Salé),** Seconde édition, chez l' imprimeur et libraire ordinaire du roi, Paris, 1646.

3- De Haëdo (Diégo) : **Histoire des rois d'Alger**, traduite par : H.D.D Grammont, Adolphe Jourdan libraire, éditeur, Alger, 1881.

4- De Haëdo (Diégo) : **Topographie et histoire générale d'Alger,** traduit de l'espagnol par : Dr. Monnereau et A. Berbrugger, imprimé à Valladolid, 1870.

5- De Lesseps (M.): **Un pacha d'Alger,** par : H.D. de Grammont, Adolphe Jourdan libraire édition, Alger, 1886

6- De Paradis (Venture): **Alger au XVIIIe siècle,** édité par : E. Fagnon, Typographie, Adolphe Jourdan, Alger, 1898.

7- De Tassey (Laugier): **Histoire de royaume d'Alger**, A Amsterdam.

8- Lempriere (G.): **Voyage dans l'empire de Maroc et le royaume de Fez (1790 – 1791),** traduite de l'Anglais par : M. De Sainte – Suzanne, Paris 1801.

9- Shaw (Tomas) : **Voyage dans la régence d'Alger (description géographique physique, philologique etc. de cet Etat)** traduit de l'Anglais : J. Mac Carthy, chez Merlin édition, Paris, 1830.

• قائمة المراجع باللغة الأجنبية:

1- Anonyme : **Aperçu historique statistique et topographique sur l'état d'Alger a l'usage de l'Armée expéditionnaire d'Afrique,** rédigé au dépôt général de la guerre, deuxième édition, Paris, 1830.

10-De Resbecq (De fontaine): **Alger et les côtes d'Afrique,** bibliothèque instructives et amusante, Paris, 1832.

11-Léon fey (Henri): **Histoire d'Oran avant, pendant et après la domination espagnole**, typographie Adolphe Perrier éditeur, Oran, 1858.

12-Rozet et Carette : **l'Algérie,** Firmin didot frères éditions, Paris, 1850.

13-Masson (Paul)**: Histoire des établissements et du commerce française dans l'Afrique Barbaresque (1560 – 1793),** (Algérie – Tunisie – Tripolitaine, Maroc), Librairies Hachette, Paris, 1903.

14-Mercier (Ernest) : **Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française 1830,** tome premier, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1888.

15-Maziane(Leila): **Salé et ses corsaires (1666 – 1727), un port de la course Marocaine Au XVIII Siècle**, Thèse Soutenue en1999 à Université de Roue havre Normandie, 2007, (books .google.com).

16-Vayssette (E.): **Histoire de Constantine sous la domination turque**, présentation :Ouarda Siari Tengour, Édition Media plus, Constantine, 2010.

2-Carette (E.):**Origine et migrations des principales tribus de l'Algérie,** in imprimerie impériale, Paris,1840.

3-Coindreau (Roger): **Les Corsaires de Salé,** éditeur les croisé des chemins, 1993**,** p 44. (Books .Google.fr).

4-Devoulx (Albert): **Le rais Hamidou (notices biographique célèbre corsaire algérien du XIIIe siécle) l'hégire**،présentation : Abderrahmane Rabahi, livre édition, Alger, 2007.

5-Devoulx (Albert.): **Tachrifat**, imprimerie du gouvernement d'Alger, Alger 1852**.**

6-De Card (E. Rouard): **Traités de la France avec les pays de l'Afrique du Nord (Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc),** A-Pédone, édition, Paris, 1906.

7-De Grammont (H.D.): **Correspondances des consuls d'Alger (1690 – 1742),** librairie Ernest Leroux, Paris, 1890.

8-De Grammont (H.D.) : **Relations entre la France et la régence d'Alger aux VXII e siècle**, Adolphe Jourdan, libraire éditeur, Alger 1879.

9-De Grammont (Henri Delmas), **Histoire d'Alger sous la domination turque (1515 -1830),** présentation : Lemouar Marouche, éditions Bouchene, 2002.

- **المقالات :**

1- Berbrugger (A**.):«** l'Afrique septentrionale **»**, in **R.A**, N.° 1, 1856, Alger, p84.

2- Berbrugger (A**.):**« La piraterie Musulmane », in **R.A** , N.° 2, Alger, 1857.

3- Braudel (F.):« Les espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 **–** 1577**»,** in **R.A**. N.° 69, Alger, 1928.

4- Devoulx (A**.): «**La Marine de la régence d'Alger», in **R.A**, N.° 77, Alger, 1869.

5- Devoulx (A.):« La Batterie des Andalous», in **R.A** N.° 16, Alger, 1872.

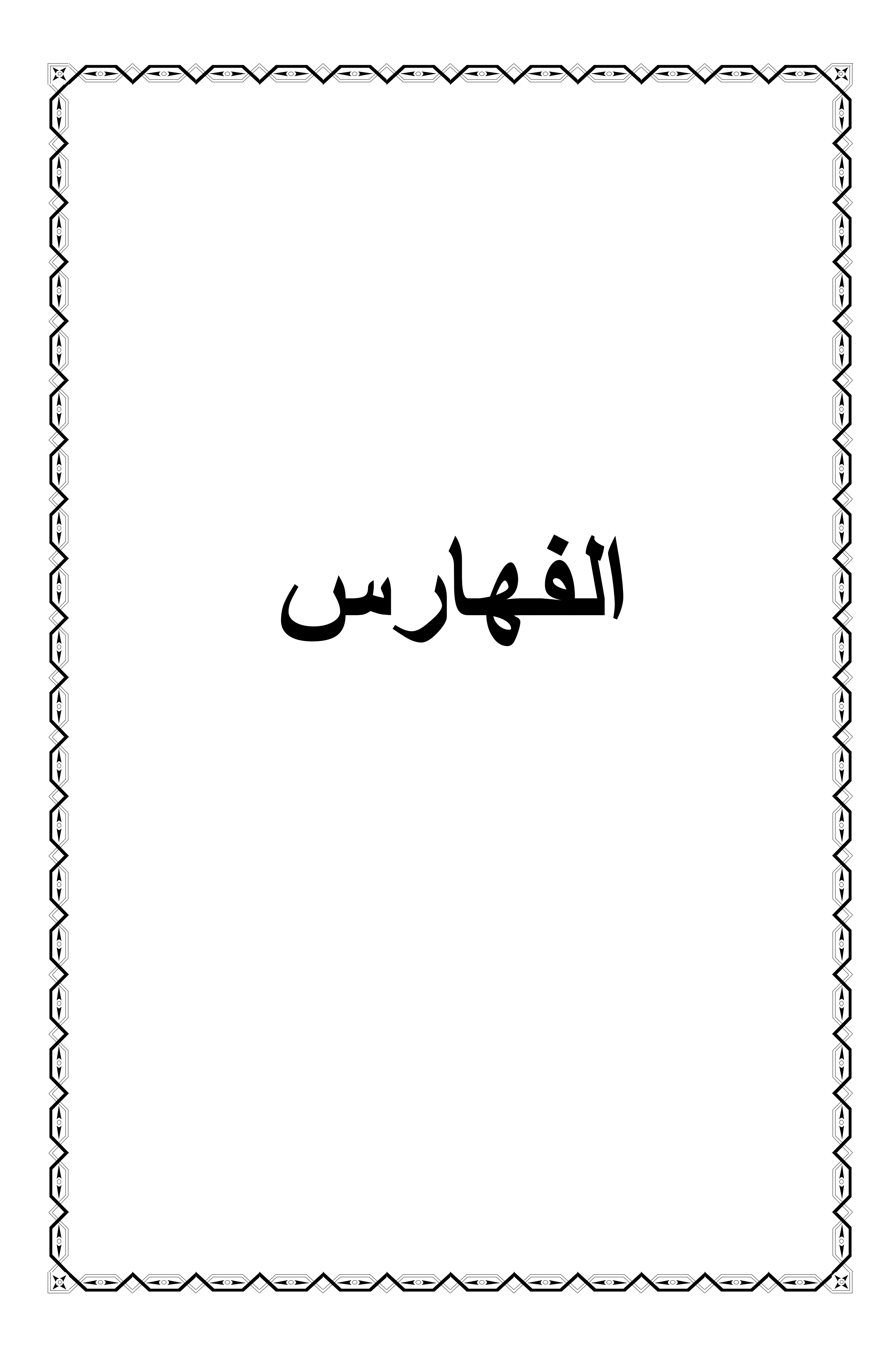
6- Devoulx (Albert):« Le registre des prises Maritimes **»**, in **R.A**, N.° 15, Alger, 1871.

7- Godard (Léon):« Les évêque de Maroc **»**, in **R.A**. N.° 2, Alger, 1857.

8- rand (Berthe**):«** Alger étude archéologique et topographique Sur cette ville aux époques Romaine Arabe – turque**»,** in **R.A.** N.° 19, Alger, 1870.

- **قواميس باللغة الأجنبية:**

1- Rey (Alain) et autres **: Dictionnaire historique de la langue française,** édition**,** dictionnaires le Robert, Paris, 1992.



الفهارس

1- فهرس الأماكن:

أ

ب

ت

ج

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

2-فهرس الأعلام:

أ

ب

ت

ج

ح

خ

3- فهرس القبائل والجماعات والهيئات:

أ

ت

ث

ج

ح

د

ص

ع

غ

ف

ق

ك

م

ن

ه

و

ي

4 –فهرس المهن والحرف والصناعات

أ

ب

ت

ح

خ

د

ر

س

ط

ع

ق

ك

م

ن

و

5- فهرس الموضوعـــــات

الفهارس